

إسطنبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

اسم الكتاب باللغة التركية: Faziletler_Med _2

اسم الكتاب بالعربية: حضارة الفضائل - ٢

الترجمة للعربية: أرسين إشجي أوغلو/ فاطمة أرسين إشجي أوغلو

مراجعة وتصحيح وتدقيق: إياد عمار/ أحمد حمدي

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٩٠٦٨

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



- Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
  Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
  Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : http://www.islamicpublishing.net

حضارة الفضائل

-٢-

«الشخصية والسوية القلبية»

عثمان نوري طوبّاش



الجزء الثاني



الشخصية والسوية القلبية

١ . المحبة

إن المحبة هي متعة حياتنا وفرحها وطمأنينتها وسرورها، وقد عجنت عجينة الوجود بخميرة المحبة، حتى باتت صفة المحبة من أكبر النعم التي أنعم ربنا بها على عباده، ومن هذا المنظور فيجب استخدام المحبة في الأفئدة المدركة حقيقة الصحبة، لكن وللأسف فإن أكثر الناس يضيّعون المحبة -التي هي لطف إلهي- في سبيل شهوات ورغبات فانية ونفسية، وأيُّ قيمة وشرف لقلب قد قَسى إلى حدٍّ لا يشعر فيه بحاجة إلى محبة الله تعالى؟

ويذكر مولانا مثالاً يشتمل على عبرة لمن يضيع رأس مال المحبة في سبيل المخلوقات الزائلة والأغيار، ويحرم من عشق الله تعالى:

«مثل المتعلقين بالدنيا كمثل من يتصيد ظلاً، أنى لظل أن يكون مالاً؟ كصياد أبله ظن ظل العصفور صيداً ثمينا فأراد اصطياده، لكن حماقته قد دُهش منها حتى الطائر القابع فوق الغصن».



ثم إن نسيان «لقاء الحق» -والتي هي الغاية والمقصد الأخير الذي يمكن بلوغه-، والتعلق بإحدى مراحل الحب الزائل من مال وملك ومكانة وثروة وعائلة وأولاد، ما هذا كله إلا تشويه لفطرة الفؤاد ونقاء الروح، وقد ذكر شاعرٌ هذه الحقيقة على النحو التالي:

أخرج الأغيار من فؤادك حتى يتجلى الحق

فالسلطان لا يدخل القصر قبل إعماره

كل ما يطلبه المجنون في الطريق المؤدية إلى المولى عدم تعلقه بليلى التي ذهبت بعقله، أي عدم جعلها المرحلة الأخيرة في مواقف المحبة، وليلى في هذا الطريق الصعب والمؤلم هي إما امرأة لدى بعضهم أو مالاً لدى آخرين أو مكانة ومقاماً عند غيرهم، وهذا -الذي يسمى مجازاً- الحب لا بد أن يكون جسراً للحب الحقيقي.

أ . حب الله ومحبته

إن الإنسان حين يعلق قلبه بحب أحد ما فإن ما يناله من هذه المحبة يتوافق مع طبيعة من يحبه، فمن أحب الله تعالى و تعلق قلبه به بلغ الكمال لأنه علق قلبه بمنبع الكمال كله، إذ إن الذات الوحيدة المستحقة للحب الحقيقي هي ذات الله تعالى، منبع كل الحب والمحبة، لأنه:

- هو وحده صاحب القدرة والكمال المطلق الخالق لكل شيء، والمتفضل بالرزق على جميع الأحياء، الذي يحميهم ويراقبهم.

- هو يحب عباده كالأم الرؤوم تحب ابنها، إذ خلق آدم عليه السلام في الجنة بأحسن تقويم وأعظم اعتناء، وهو تعالى يريد دخول عباده جنته، وما جزاء المحبة إلا المحبة.[1]
- سهل ويسر لعباده طرق لقائه ومحبته جل وعلا.
- هو وحده من له ملك الدنيا والآخرة.
- سيمثل الإنسان بين يدي الله تعالى في النهاية، ولن يجد ملجأً ولا مأوى وعوناً له سواه سبحانه، فالله رب العالمين نعم المولى ونعم النصير.
- وشكر الله تعالى لا ينتهي، فقد جعلنا من أمة أحب أنبيائه إليه سيدنا محمد ﷺ وخصَّنا بأكمل كتبه القرآن الكريم، إضافة إلى كل هذه النعم الإلهية التي نتقلب بها.

وبالتالي فمن مقتضى عبوديتنا توجُّهنا بالحب إلى الله تعالى.

وما من شك في أن المحبة، يختلف تجلّيها من ولي عاشق وعارف إلى آخر، وبسبب هذه التجليات المختلفة نقش مولانا في محيط الكلام الواسع المليء بنار الحب الذي يكوي القلوب، منبعاً للحكمة والمعنى تتدفق من لسانه الحكم وينثر الدرر النفيسة، وقد نال حلاج المنصوري اللقاء الإلهي في إقليم العشق اللاهوتي الذي يفنى فيه المحب في حبيبه، وأما بهاء الدين النقشبندي فقد فني في

١ انظر: المائدة، ٥٤.



الله تعالى وبات بحر همة واسعة في التصوف، ومعرفة الله تعالى في طرق الخدمة من خلال اعتنائه بالحيوانات الجريحة والمتألمة، واشتغاله بتنظيف الشوارع، واهتمامه بالمرضى المنبوذين وقضائه لحوائجهم لسنوات طويلة، فالطرق كما نرى مختلفة لكن غاية القلب واحدة لا تختلف، ألا وهو أن يفيض بعشق الله تعالى وحبه...

لقد جعل الحق تعالى جميع أوليائه -الذين نالوا تجليات مختلفة- هدايا للبشرية جمعاء، كبراعم استثنائية في إقليم المحبة بتزويدهم بالعشق وعلم معرفة الله تعالى.

والحاصل، فعلى المؤمن المحب للحق تعالى أن يدرك دوما ويستشعر أنه في الحقيقة لا يملك شيئا، إذ إن الحب لاستلزامه التضحية ينافي الملكية، أي يلزم المحب التخلي عن كل شيء في سبيل الحبيب، ثم إن المحبة تولِّد في الفؤاد ميولاً للإكرام المادي والمعنوي بطبيعة الحال، وهذا يتحقق بحسب شدة المحبة، ولذا فإن الناس يبذلون أثمن الأعواض مقابل حبهم، ويظهر لنا هذا البذل أقصى حدوده في صورة التضحية بالنفس والتخلي عن نعمة الحياة في سبيل المحبوب، تَبَعًا لشدة الحب.

فطوبى للمؤمنين الذين يجعلون حب الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فوق كل شيء، ولا يغترون بأزهار الحدائق البرية المزيفة!..



صور الفضيلة

ما من شك في أن الشخصية التي تأتي في القمة حب الله تعالى هي شخصية الرسول ﷺ، حيث كان يكرر مناجاة سيدنا داوود عليه السلام بطلبه لحب الله تعالى في دعائه فيقول:

«**اللهم إني أسألك حُبَّك وحُب من يُحبك، والعملَ الذي يبلغني حبَّك، اللهم اجعل حُبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد**»، وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر داوود عليه السلام يحدث عنه قال: «**كان أعبد البشر**».[٢]

وثمة دعاء للنبي ﷺ في هذا الشأن هو على النحو التالي:

«**اللَّهُمَّ ارزقني حُبَّكَ وَحُبَّ من ينفعني حُبُّهُ عندك، اللَّهُمَّ ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللَّهُمَّ وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغا لي فيما تُحِبُّ**».[٣]

كان عليه الصلاة والسلام في حالة دائمة من ذكر الله تعالى والدعاء في كل أحواله من خلال تفكره في صفاته وتجليات قدرته وعظمته ونعمه التي مَنَّ بها، أخذاً بقاعدة: «المحب لا يفتأ يذكر محبوبه، ويفكر فيه»، فقد بلغت أدعيته التي كان يدعو بها في

---

٢ الترمذي، الدعوات، ٧٢/ ٣٤٩٠.

٣ الترمذي، الدعوات، ٧٣/ ٣٤٩١.

مختلف الأزمنة والأمكنة من دخوله مكاناً ما، وخروجه منه، وأثناء جلوسه، وقيامه، وشروعه في عمل ما، وعند الفراغ منه، حداً عجز معه الصحابة الكرام عن حفظه كله لكثرته، مما جعلهم يطلبون منه عليه الصلاة والسلام أدعية مختصرة موجزة.



لقد كان النبي ﷺ الذي قضى حياته كلها في حب الله تعالى وشوق للحظة لقاء ربه تعالى، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«كان رسول اللَّه ﷺ يعوذ بهذه الكلمات:

"أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما"

قالت: فلمّا ثقُل رسول اللَّه ﷺ في مرضه الذي مات فيه أخذْتُ بِيده، فَجعلت أمسحها وأقولهَا، قالت: فَنزعَ يده من يدي وقال:

"اللهم اغفر لي، وألحقني بالرفيق الأعلى"».[٤]

وفي رواية أخرى:

«كان رسول الله ﷺ، وهو صحيح يقول:

"إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخير"، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي

٤ أحمد، ٦، ١٠٨، ٢٣١/ ٢٤٢٢٨.



عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثمَّ قال: **"اللّهم في الرفيق الأعلى"**، قالت عائشة ﵂: فقلتُ: إذا لا يجاورنا».[٥]



وفي الحديث:

«دخل جبريل على النبي ﷺ، وقال: ملك الموت بالباب، ويستأذن أن يدخل عليك، وما استأذن من أحد قبلك، فقال له:

"ائذن له يا جبريل"

فدخل ملك الموت وقال: السلام عليك يا رسول الله، أرسلني الله أخيِّرك بين البقاء في الدنيا وبين أن تلحق بالله تعالى، فقال النبي ﷺ:

"بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى"

فوقف ملك الموت عند رأس النبي ﷺ وقال: أيتها الروح الطيبة، روح محمد بن عبد الله، اخرجي إلى رضى من الله ورضوان ورب راضٍ غير غضبان». [٦]

وثمة الكثير من الأمثلة فيما يتعلق بموضوع محبة الله ﷻ من حياة سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فنسرد بعضا منها على وجه التمثيل:

---

٥ البخاري، المغازي، ٨٤/ ٤٤٣٧؛ أحمد، ٦، ٨٩.

٦ ابن سعد، ٢، ٢٥٩؛ الهيثمي، ٩، ٣٤ ـ ٣٥؛ البلاذوري، أنساب الأشراف، مصر ١٩٥٩، ١، ٥٦٥.



لقد أكرم الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقطعان من الغنم لا تحصى، فجاءه جبريل عليه السلام على هيئة البشر، وسأله: لمن هذه القطعان؟ فقال إبراهيم عليه السلام: هي لربي، وهي عندي أمانة، إن ذكرتَ الله مرة لك ثلثُها، وإن ذكرته ثلاثاً هي لك كلها فخذها، فقال جبريل عليه السلام: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح، قالها ثلاثاً، فقال له إبراهيم عليه السلام: خذها فهي لك، فقال جبريل عليه السلام: لستُ بشراً إنما أنا ملك لا آخذها، فقال إبراهيم عليه السلام: أنت ملك، وأنا خليل، لا يليق بي أن أسترجع ما قد أعطيت، وفي نهاية المطاف كان إبراهيم عليه السلام قد باع كل قطعانه، واشترى ملكاً وجعله وقفاً.

أصاب إبراهيم عليه السلام بلاءٌ شديد في نفسه وأولاده وماله، فانقطع في جميعها لربه بإذعان وحب عظيمين، حتى بلغ ذروة العبودية فصار خليل الله.



وفيما يلي حكاية صحابي يظهر الحب الإلهي المركوز في قلبه من خلال كلام الله تعالى:

«روي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، فقال:

"سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟"



فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

"أخبروه أن الله يُحبّه"»[٧]



قال عمار بن ياسر رضي الله عنه أثناء سيره على ساحل الفرات -وهو على وشك الاشتراك في معركة- مبيناً حُبه لله تعالى:

«اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللهم إنك تعلم لو أني أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني، ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين».[٨]



كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه من أغنى أغنياء الصحابة الكرام، لا يفتح مجالاً لتراكم ثروته، بل يوزع ما يحصل عليه إلى المحتاجين والمساكين، وكان يختار أكثر ما يعجبه مما يمتلكه فيضعه كي يُنفق في سبيل الله تعالى، وكان قد بدأ بإعتاق من رآه جيداً من عبيده وبالأخص من علم أنه يصلي منهم، فنبهه أحد أصحابه بأن بعض عبيده يقصدون المسجد كي يُعتقوا، لا يريدون بذلك وجه الله

---

٧ البخاري، التوحيد، ١/ ٧٣٧٥.

٨ ابن سعد، ٣، ٢٥٨.



تعالى، فرد عليه عبد الله بجواب حسن يعكس حبه لله تعالى قائلاً: «من خدعنا بالله انخدعنا له».[٩]



كان الفضيل بن عياض شخصاً عارفاً فاضلاً، يبكي كثيراً خوفا من الله تعالى، وكان في الوقت ذاته راوياً موثوقاً في رواية الحديث، فالتقى رحمه الله تعالى مرة بالسيدة العابدة الزاهدة شعوانة التي كانت تبكي كثيراً أيضاً حبا لله تعالى وخوفا منه، فسألها الفضيل أن تدعو الله بدعاء، فقالت شعوانة: يا فضيل، أما بينك وبين الله ما إن دعوته استجاب؟ قال: فشهق الفضيل شهقة فخر مغشيا عليه، قال: وقال الفضيل: أعزنا بعز الطاعة ولا تذلنا بذل المعصية.[١٠]



وحسب ما روي فإن الدعاء الذي قاله الحلاج قبل إعدامه، يقدم لنا مدى حبه وإخلاصه لله تعالى إذ يقول:

«يا رب، قد اجتمع عبادك -تقربا لك وإقامة لدينك- كي يقتلوني، فاعف عنهم، لأنك لو أكرمتهم بالأسرار التي مَنَنْت عليَّ بها لَمَا حكموا عليَّ بهذا، فلو أنك أخفيت عني ما أخفيته عنهم لما أفشيت ذلك على هذا النحو، يا ربي، اصفح عنهم! لأنهم يوصلونني إليك».

٩ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٣٤٣.

١٠ ابن الجوزي، صفات الصفوة، ٤، ٥٦.

وينقل من شاهد حالة الحلاج في عالم المعنى، أنه لما وضعوه في المشنقة أتاه إبليس فسأله: كلانا قال «أنا»، فلمَ تتنزل عليك الرحمة وعلي الغضب؟ فأجابه: إنك بقولك «أنا» جعلت نفسك فوق آدم وأظهرت تكبرك، لكنني بقولي: «أنا الحق» أفنيت ذاتي في الحق، وأنانيتك نابعة من الكبر والعجب فهوت بك في جهنم، وأما أنانيتي فهي نابعة من الفناء في الحق لتعبر عن أني صرت لاشيء، لذا نزلت الرحمة فوقي واللعنة والغضب فوقك.

ويروى أن إبراهيم بن فاتكة زار الحلاج فقال له:

«يا بني، يظن بعض الناس أني واقع في الكفر، والبعض الآخر على أني ولي، وأحسب أن من يعلن كفري هم أحب عندي وعند الله ممن يقول بولايتي، ولما سئل عن ذلك قال: يبني المتيقنون من ولايتي ظنهم على حسن الظن بي، وأما الذين يكفرونني فبسبب حميتهم لدينهم، ومن يخلص في دينه أحبُّ عند الله تعالى من الظّانّ خيراً».



ويا له من تعبير رائع ما يقوله مولانا في الاكتواء بالعشق الإلهي والفناء بالله سبحانه وتعالى، وأن النار الملتهبة في روحه لن تنطفئ حتى بالموت:

«افتح قبري بعد موتي وانظر إلى الدخان المتصاعد من كفني بسبب حرارة جوفي! إن ما يجعل الموت مخيفا هو قفص هذا



الجلد، فإن كسرت هذا الجلد -كصدفة- بالعشق، سترى أنت أيضاً شَبَهَ الموت بالدُّرَّة!..» .

وأهم ما يميّز أولياء الله تعالى، احتراقهم بالعشق الإلهي واكتواؤهم به، لقد بحث مولانا أيضاً عن العشاق الحقيقيين الذين اكتووا على هذا النحو طوال حياتهم وهو في حالة العشق التي بينها سابقاً، وينقل لنا رغبته هذه على النحو التالي:

«إني في حاجة إلى عشق تقوم من لهيبه القيامة بداخلي، ويجعل النار رماداً باشتعال فؤادي!..».



قال أحد صحب معروف الكرخي له:

«يا معروف، ما الذي يحملك على كل هذه العبادة، فصمت، فأصرَّ صاحبه على السؤال بقوله: أهو تذكر الموت؟

فأجاب معروف الكرخي: وما الموت؟

فسأله: أهو التفكر بالقبر وحياة البرزخ؟

فأجابه: وما القبر؟

وسأله صاحبه مُصِرَّاً: أهو الخوف من جهنم، أو الطمع في الجنة، فأجابه معروف الكرخي بهذا الجواب الرائع إذ قال: إنها كلها ليست بشيء، إن الذات العظيمة التي في يدها كل ما ذكرته لرب كبير، فإن قدرت أن تُكِنَّ له حباً عميقاً وشوقاً كبيراً، ينسيك ذلك كلَّ



ما ذكرته، إذ تظهر محبة بينك وبين الله تعالى، وبهذا يخلصك من كل ما عددت». [١١]



ومن الملفت للانتباه حال مجنون ليلى التالي من حيث عكسه بوضوح حال من نال محبة الله تعالى:

اغتم مجنون ليلى ذات يوم لبقائه بعيداً عن ليلاه، فجعله المرض طريح الفراش، فطلبوا طبيباً لمعالجته، فقال الطبيب: ليس لنا إلا بأخذ دم من عرقه، وربط يده للحجامة، وكان قد تناول المبضع فقال له مجنون: أيها الطبيب، دع الحجامة، وخذ أجرك وارحل، فما من ضرر إن مت من هذه العلة، ليمت هذا البدن المتصلب، فما من أمر يحصل إن مات.

فسأل الطبيب مجنوناً وهو في حيرة: كيف تخاف من سحب دم، وأنت الذي لا تخشى الأسود المزمجرة في الصحارى؟ فكان جواب مجنون ليلى: ليس خوفي من المبضع ... فالكل يعلم أن صبري وتحملي أكبر من جبل صلب، فأنا لست أخشى أيَّ شيء ولا أملك شيئاً يعلقني بالدنيا ولو إصطبلاً، فإن جلدي الفاني هذا لا يلقى الراحة إن لم يجرح، فالجراح مراهم لعشقي، ولذا آتيها مسرعاً...

---

١١ بابان زادة أحمد نعيم، أسس الأخلاق الإسلامية، اسطنبول ١٩٦٣، ص: ٦٦.



إلا أن جسدي يفيض بليلى فما من وجود لشيء غير ليلى في داخلي، وبدني هذا الذي يبدو كصدف، محشو بصفات تلك اللؤلؤة، ولذا أيها الطبيب: فإني أخشى أن يصيب المبضع ليلى فجأة وأنت تحجمني، فتجرحها أو تؤذيها...

ثم إن أولياء الله الخاصة يعلمون أنه ما من فرق بيني وبين ليلى.

وبعد انقضاء سنوات تأتي ليلى مجنوناً، لكنه لا يهتم بها، فتقول ليلى: ألست أنت مَن تاه في الصحارى لأجلي؟ فأجابها المجنون: لقد ذابت ليلى التي كانت ظلاً وتبعاً وزالت.

فأضحت ليلى التي كانت فيما مضى غاية مجنون في حياته خطوة في المحبة الإلهية، ولما وجد مجنون مكانه في عالم المحبة الإلهية الذي بحث عن حقيقته، كان دور ليلى قد انتهى.

فإن ليلى المذكورة في حكايا المثنوي هي رمز العشق الإلهي الذي تفنى فيه الذات في الحق، وبعبارة أخرى فإن ليلى أفق عشق إلهي يجعل القلوب مجنونة ويمحو الإرادة البدنية، وانطلاقاً من هذا فإن مغامرات المحبة التي تتفتح بأمثال ليلى إن نالت السكون في المولى، تكتسب قيمة عليا.



هامَ المجنون على وجهه في الصحراء من حبه لليلاه، فرأى في البيداء كلباً تساقط وبره وسال لعابه، فلاعبه ولاطفه، وقبّل ما



بين عينيه، فلامه من رآه قائلاً: أيها المجنون! ما هذا الجنون الذي تفعله؟ لم تحتضن هذا الحيوان وتقبله؟ فأجاب المجنون قائلاً:

إن فؤاداً يكتوي بنار الحب الإلهي، يحب بهذا الحب جميع مخلوقاته، فكل ما يذكّره بالله تعالى يقدم له قيمة لا تقدر بثمن حسب قربه منه.



وينقل لنا ولي من أولياء الله تعالى هذه الحادثة التي تظهر ثمرة محبة الله تعالى فيقول:

كنت أمر بسهل واسع وموحش، فصادفت راعياً غريباً، فرأيته يصلي في خشوع عميق، والذئاب تحرس قطيعه، فتعجبت لأمره، ومكثت انتظر بفضول فراغه من صلاته، وقلت له: أيها الراعي، كيف للذئاب أن تغدو مسالمة للغنم؟ وماذا حلَّ بروح العداوة والافتراس فيها حتى تبدلت إلى الصلح والمحبة؟

فأجاب الراعي المنوَّر من أثر السجود: يا أخي إن السرّ في هذه الصداقة بين الذئاب والخراف، مرتبط بالصحبة بين الراعي والمالك الحقيقي للقطيع والذئاب، أي إن هذه الحال سرٌّ في المحبة.



المحب يضحي بكل ما لديه في سبيل الحبيب، والحادثة التي يذكرها ملا جامع قدّس سرّه من هذا القبيل:



«كان ثمة شاب يحضر حلقة مجلس شيخنا مولانا سعد الدين قشغري، وكان هذا الشاب قد بلغ أقصى درجات الزهد والعشق، وحاله كحالي إذ وقع وتعلق بجمال فان، وبهذا فقد كان حول القيم التي جمعها في فؤاده في لحظة إلى تلك المحبة، وقد كان اشترى هدية أثمن من الذهب والماس ووضعها في طريق ذلك الجميل وخبأها في مكان بحيث لا يأخذها أحد من المارة، فكان في ظنه أن الحبيب سيمر من هناك ويرى الهدية ويأخذها، لكنه سيجهل ممن وكيف، ولما علمت بالأمر قلت له: يا لغرابة أمرك، تترك ما حصلت عليه بمشقة في طريقه، فلو هو وجده ورآه وأخذه فإنه لن يعلم ممن ولم أبداً، فهلا فعلت أمراً يوضح أنها منك.

فأجاب الشاب وقد اهتز والدموع تنهمر من عينيه: ما الذي تقوله أنت، أوتظن أني أجهل غرابة ما أقوم به، إلا أني لا أنتظر أي مقابل لما أفعله، إذ إني لا أريد أن أجعله ممتناً لي لأجل الهدايا».

فأصابتني رعشة من هذا الجواب، فإن قدّم حبٌ فانٍ مثل هذا العمق والدقة والسماح، فمي يدري التجليات العلوية التي ستظهر فيمن نال محبة الذات.



وفي النتيجة فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد قال:

«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ...»[١٢]

---

١٢ أحمد، مسند، جـ٦، ٣٣٨/ ٣٧٨٩.



وعليه فإن الله تعالى صاحب كل الحسن يعتبر أيضاً منبع الحب الحقيقي، لأنه ودود، [١٣] وهذ الاسم الشريف كما أنه في معنى المحب كثيراً فهو أيضاً في معنى الْمُحَبِّ بشدة، ولذا وظيفة المؤمن في أن يكون باب رحمة بزرعه المحبة في قلوب المؤمنين، لأن المؤمن طالما لم يجعل حبه لله فوق كل حب وتعلُّق بما سواه تعالى، لا يصل إلى الصراط المستقيم بحقه، يقول الحق تعالى في الآية الكريمة:

﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ...﴾[١٤]

وثمة آية أخرى تفيد لزوم هذه الحال للمسلمين، إذ يقول:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[١٥]

ومما لابد منه معرفة الله بالقلب أي التمكن من الحصول على تجليات أسماء الله الحسنى، لتأمين محبة الله تعالى. ثم إن ذكر

---

١٣ انظر: مسلم، تحريم الكبر، ١٤٧/ ٩١.

١٤ البقرة، ١٦٥.

١٥ التوبة، ٢٤.



الحق تعالى يكون وسيلة للترقي في استقامة محبة الله تعالى، إلا أن هذا الترقي يتحقق بحسب كيفية هذا الذكر أي سويته المحسوسة في القلب. يقول عليه الصلاة والسلام:

«من علامة حب الله تعالى ذكره، ومن علامة بغض الله بغض ذكره».[١٦]

وللتقدم في استقامة محبة الله تعالى، ينبغي على القلب أن يكتسب جدارة وكفاءة بإمكانه تحمّلها، وأما هذا فيمكن الحصول عليه بتمارين المحبة البشرية،ولذا يُنظر إلى العشق البشري الذي هو ضمن إطار المقاييس المشروعة بعين الرضا والسماح لأنه يعد تجهيزاً للقلب، ويكون ذلك باسم "العشق المجازي"، وهو كالحب الذي يكنّه الشخص لعائلته...

والوصول إلى محبة الله تعالى بالاستمرار في هذا الحال يعني تحقيق الإنسان لغاية خلقه، وبالتالي نيل رضا الله تعالى، إذ إن ذروة التكاليف الإلهية الْممنوحة للبشر والمقصد النهائي في الإسلام هو أن يكون الإنسان «واصلاً إلى الله»، وأهم رأس مال هذا المحبة، وأما سائر الأعمال فليست إلا مظاهر لهذه المحبة.

فالمؤمن الواصل إلى معرفة الله تعالى ومحبته، يبتعد عن شر نفسه ومكائد الشيطان، ويعيش طالباً رضا الحق تعالى لا غير،

---

١٦ السيوطي، ٢، ٥٢.



وتتباعد صفحات كتاب المخلوقات له فيغدو صاحباً لها كلها، أي يكتسب النظر إلى الخلق بعين الخالق، فيغوص في تأمّل تدفقات الحكمة الإلهية والأسرار في الكون، ويحاول زيادة العبادات النافلة وأعمال الخير بكمال الأدب والتعظيم والشوق على الرغم من عدم إلزاميتها ولا يحمله على ذلك سوى العشق والمحبة النابعين من القلب، بعدما أوفى الحد الأدنى لما كلفه الله به من وظائف العبودية الملزمة والضرورية بخشوع كبير، ويصل بقضائه على جملة اللذائذ النفسية إلى أن سر اللذة الحقيقية هو الإيمان.

ب . محبة رسول الله ﷺ

الصلاة والسلام على سيد الكونين محمد المصطفى!..

الصلاة والسلام على نبي الثقلين محمد المصطفى!..

الصلاة والسلام على إمام الحرمين محمد المصطفى!..

الصلاة والسلام على جدّ الحسنين محمد المصطفى!..

إن أعظم ذروة في مراحل الحب البشري هي المحبة المكنونة لرسول الله ﷺ، فلا يتصور وجود إنسان أحق بالمحبة منه، إذ إن:

- جميع المخلوقات تدين في إيجادها للمحبة التي يخصّه الله تعالى بها.
- رسول الله ﷺ وسيلة لخلاص عالَمي الإنس والجن من العذاب الأبدي في الآخرة، بتعريفه إياهم بالحقيقة الأزلية والأبدية.



- الله تعالى قدم نعم القرآن والإسلام لعباده في قلبه الطاهر.
- ما تعرض له النبي عليه الصلاة والسلام من معاناة وبلاء في سبيل هداية الخلق لم يتعرض له أي بشر.
- النبي ﷺ مفعم بشفقة ورحمة واسعتين للمؤمنين، فهو منبع رحمة لا ينقطع، يهتم لأمته عظيم الاهتمام، ويثقل عليه ما قد يصيبهم من المحن.[١٧]
- النبي ﷺ شخصية نموذجية ومثالية في العبودية.
- وهو أيضاً أعظم وسيلة توصِل العباد إلى معرفة الله تعالى.
- وهو الوحيد الذي أقسم الله تعالى بحياته من بين جميع الأنبياء عليهم السلام، إذ قال: «لعمرك»، وبهذا يكون قد ركّز كل اهتمام أمته بحياة النبي النموذجية عليه الصلاة والسلام.
- لقد علّق الله تعالى محبته ومغفرته بإطاعة حبيبه الأكرم، تقول الآية الكريمة على لسان النبي ﷺ:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٨]

- حبنا للنبي ﷺ وسيلة لإنقاذنا من العذاب الإلهي، إذ يقول الحق ﷻ:

---

١٧ انظر: التوبة، ١٢٨.

١٨ آل عمران، ٣١.

﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[19]

فحياة النبي ﷺ بين المؤمنين وقاية وحماية وأمان لهم من سخط الله تعالى وعذابه.

- أهم شيء أن الحق تعالى أحبه وناداه بحبيبي،[20] وحب حبيب الله تعالى شرف ما بعده شرف.

وبعد ذلك فعلينا نقش اسم ذلك السلطان الفريد والصلاة عليه في قلوبنا بخط محبة لا يمحى، حتى تبدأ قلوبنا باكتساب مكانة تليق بالقيمة العلية المعطاة إليه.

ثم إنه لا بد من التذكير بأمر ألا وهو أنه حتى النبي عليه الصلاة والسلام ليس بهدف نهائي للمحبة، فالذات الوحيدة التي ينبغي أن تخصص بالمحبة هو خالق الكائنات كلها، وأما حبنا للحبيب الأكرم فهو أهم وسيلة وواسطة تبلغنا معرفة الله تعالى ومحبته.

صور الفضيلة

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين يلتفون حول النبي عليه الصلاة والسلام، ويبادرون بقولهم بأبي أنت وأمي يا

---

١٩ الأنفال، ٣٣.

٢٠ انظر: الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦؛ الدارمي، المقدمة، ٨؛ أحمد، ٦، ٢٤١.



رسول الله فداك مالي ونفسي، في كل ما يقوله ويأمر به حتى ولو أومأ إيماءة بسيطة، وكان من يتمكن من لمس جلده يفتخر بذلك. ويقول: "بايعت النبي بيدي هاتين".[٢١]

وأبو أسماء الشامي، واحد من أمثلة هذا الموضوع: كان قد قَدِمَ على النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً، وبعد أن تعلّم بعض الأمور من مواضيع الإسلام الأساسية والتي ينبغي عليه تبليغها لقبيلته التي جاء ممثلاً لها، بايع رسول الله، يقول ﵁: «وفدت على رسول الله ﷺ فبايعته، وصافحني رسول الله ﷺ، فآليت على نفسي ألا أصافح أحداً بعد رسول الله ﷺ، قال: فلم يكن أبو أسماء يصافح أحداً»[٢٢]



وقد كانت محبة الصحابة الكرام للرسول عليه الصلاة والسلام بالغة حداً يجعل الصحابيات رضوان الله عليهن يوبخن أولادهن إن هم غابوا عن النبي مدة طويلة، فعن حذيفة ﵁ قال:

«سألتني أمي متى عهدك -تعني بالنبي ﷺ- فقلت ما لي به عهد منذ كذا وكذا، فنالت مني، فقلت لها دعيني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب، وأسأله أن يستغفر لي ولك ...»[٢٣]

---

٢١ ابن سعد، ٤، ٣٠٦؛ الهيثمي، ٩ ، ٤٢.

٢٢ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٧.

٢٣ الترمذي، المناقب، ٣٧٨؛ أحمد، ٥، ٣٩١، ٢.



وعن جبلة بن حارثة ﷺ قال:

«قدمت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! ابعث معي أخي زيداً، قال: "**هو ذا، فإن انطلق معك لم أمنعه**" قال زيد: يا رسول الله، والله لا أختار عليك أحداً، قال: فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي»[٢٤]



قصد مصعب بن عمير ﷺ الذي كان على رأس القافلة في بيعة العقبة الثانية النبي ﷺ قبل ذهابه إلى بيته، وأخبره بسرعة قبول أهل المدينة للإسلام، فسرّ النبي ﷺ للأخبار التي جاء بها مصعب ﷺ.

وقدوم مصعب بن عمير إلى النبي ﷺ أولاً قبل بيته أغضب أمه، إلا أنه قال ﷺ:

«إني لا آتي أحداً قبل رسول الله ﷺ، فلا أقدم أحداً عليه»، ثم استأذن النبي عليه الصلاة والسلام في الذهاب إلى أمه حتى جاءها ودعاها إلى الإسلام.[٢٥]



«جعل أبو بكر يمشى مرة أمام النبي ﷺ، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن شماله أثناء الهجرة إلى المدينة، فسأله الرسول عليه

٢٤ الترمذي، المناقب، ٣٩/ ٣٨١٥.

٢٥ ابن سعد، ٣، ١١٩.



الصلاة والسلام عن ذلك، فقال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك، فلما انتهيا إلى فم الغار قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخله فجعل يلتمس بيده، فجعل كلما دخل جحرا قام إلى ثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، فبقي جحر فوضع عقبيه عليه، ثم دخل رسول الله عليه الصلاة والسلام فجعلت الحيات يلسعن أبا بكر ﷺ وجعلت دموعه تنحدر، ولما أصبح رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لأبي بكر أين ثوبك؟ فأخبره بالذي صنع فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال:

"اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة"» [٢٦]

وجدَّتْ قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافلة، حتى انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه، فقال أبو بكر ﷺ، يا رسول الله: لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا، فقال رسول الله ﷺ:

«**يا أبو بكر ما ظنك باثنين، الله ثالثهما**»، وفي رواية: «**يا أبا بكر لا تحزن، إن الله معنا**». [٢٧]

---

٢٦ انظر: الحاكم، ٣، ٧/ ٤٢٦٨؛ ابن كثير، البداية، ٣، ٢٢٢ ـ ٢٢٣؛ علي القاري، المرقاة، بيروت، ١٩٩٢، ١٠، ٣٨١ـ٣٨٢/ ٦٠٣٤.

٢٧ ابن كثير، البداية، ٣، ٢٢٣ ـ ٢٢٤؛ ديار بكري، التاريخ الخامس، بيروت، ١، ٣٢٨ـ٣٢٩.

وفي الغار وضع رأس النبي عليه الصلاة والسلام رأسه الشريفة على رجل أبي بكر ونام، أما أبو بكر فقد لدغه شيء في رجله فتألم لكنه ما تحرك حتى لا يوقظ النبي ﷺ، فدمعت عين أبي بكر فسقطت على وجه النبي ﷺ، فاستيقظ قال: «**مالك يا أبا بكر**»، قال: لا شيء يا رسول الله، قال: «**مالك؟**» [٢٨] قال: لَدَغَنِي شيء في رجلي، قال: «**أرني إيَّاها**»، فرآها فدعا الله وَنَفَثَ على قدمه فَبَرِئَ رضي الله عنه.[٢٩]



ذكرَ رجال على عهد عمر رضي الله عنه فكأنهم فضَّلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنه، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال: «والله لَلَيْلَةٌ من أبي بكر خير من آل عمر، وليومٌ من أبي بكر خيرٌ من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر،...»[٣٠]



يوضح البراء رغبة أبيه الدائمة لسماع أية حادثة لرسول الله في كل فرصة فيقول:

«اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُرِ البراء فليحمل إليَّ رحلي، فقال عازب: لا،

---

٢٨ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تعليق: عبد المعطي قلعجي، بيروت ١٩٨٥، ٢، ٤٧٧؛ ابن كثير، البداية، ٣، ٢٢٣.

٢٩ علي القاري، المرقاة، ١٠، ٣٨١ ـ ٣٨٢/ ٦٠٣٤.

٣٠ الحاكم، المستدرك، ٣، ٧/ ٤٢٦٨.



حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم...»، فسرد أبو بكر ﵁ حادثة الهجرة مطولاً.[٣١]



تكلم سيدنا سعد بن معاذ مع النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر بعدما استقر جيش الإسلام في مكانه، فقال له كلاماً يبين مدى محبته له عليه الصلاة والسلام واهتمامه به، إذ قال:

«يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام -يا نبي الله- ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريش، فكان فيه»[٣٢]



وفيما يلي حادثة ذات عبرة يسردها لنا سيدنا عبد الرحمن بن عوف ﵁ تبين أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد عجنوا كلهم صغارا وكبارا بحبه، فيقول:

---

٣١ البخاري، أصحاب النبي، ٢؛ أحمد، ١، ٢.

٣٢ ابن هشام، ٢، ٢٦٠؛ الواقدي، ١، ٤٩.



«بَيْنَمَا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار - حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما - فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني، فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه فقال: "**أيكما قتله؟**"، قال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: "**هل مسحتما سيفيكما؟**"، قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: "**كلاكما قتله، سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح**"، وكانا معاذ ابن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح».[٣٣]



قال نور الوجود ﷺ في غزوة أحد لما جرح وجه الشريف:

«"**أشتد غضب الله على من دمىّ وجه نبيه...**"، والذي قد أصاب وجه رسول الله ﷺ، هو عتبة بن أبي وقاص، وقد حرص الصحابي سعد أبن أبي وقاص على قتل عتبة بن أبي وقاص، وقال:

٣٣ البخاري، المغازي، ١٠/ ٣١٤١؛ مسلم، الجهاد، ٤٢.



والله ما حرصت على قتل رجل قط، كحرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص،.. ولقد كفاني رسول الله ﷺ في قوله : أشتدّ غضب الله على من أدمّى وجه نبيه....» [٣٤]



أبصر طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه جانب المعركة التي يقف فيها النبي ﷺ، فألفاه قد صار هدفا لقوى الشرك والوثنية، فسارع نحو الرسول وراح رضي الله عنه يجتاز طريقا ما أطوله على قصره..! طريقا تعترض كلَّ شبر منه عشرات السيوف المسعورة والرماح المجنونة، ورأى النبي ﷺ من بعيد يسيل من وجنته الدم ويتحامل على نفسه، فجنّ جنونه، وقطع طريق الهول في قفزة أو قفزتين وأمام الرسول وجد ما يخشاه.. سيوف المشركين تلهث نحوه، وتحيط به تريد أن تناله بسوء، ووقف طلحة كالجيش اللجب، يضرب بسيفه البتار يمينا وشمالا،ورأى دم الرسول الكريم ينزف، وآلامه تئن، فسانده وحمله بعيدا عن الحفرة التي زلت فيها قدمه، كان يساند النبي ﷺ بيسراه وصدره، متأخرا به إلى مكان آمن، بينما بيمينه، بارك الله يمينه، تضرب بالسيف وتقاتل المشركين الذين أحاطوا بالرسول. [٣٥]



---

٣٤ الواقدي، ١، ٢٤٥.

٣٥ الواقدي، ١، ٢٤٥.



«وحين رمى مالك بن زهير الرسول ﷺ «يوم أُحد» اتقى طلحة بجسمه السهام عن الرسول الكريم ﷺ، وكان يتقي النبل عنه بيده حتى شلت يده».(٣٦)



عن أنس رضي الله عنه، قال:

«لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي عليه الصلاة والسلام، وأبو طلحة بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل، فيقول: «انثرها لأبي طلحة» قال: ويشرف النبي عليه الصلاة والسلام ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف، يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة وأم سليم رضي الله عنهما، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثا»(٣٧)



---

٣٦ ابن سعد، ٣، ٢١٧.

٣٧ البخاري، المغازي، ١٨.



وقد روي أن قتادة بن النعمان وقف أمام رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد يرمي السهام دونه، فأصيبت عينه حتى سالت على خده، فردها رسول الله ﷺ مكانها، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى.[٣٨]



وهذه أم عمارة من الصحابيات -رضوان الله عليهن أجمعين- لما رأت تغير الظروف رمت السقاء واستلت السيف، فقاتلت به دون الحبيب المصطفى ﷺ، حتى قال ﷺ عنها:

«ألتفت يميناً فإذا بـأم عمارة تذود عني، ألتفت يساراً فإذا بـأم عمارة تذود عني»[٣٩]



«ثم إن أم عمارة لما سمعت صوت النبي ﷺ وهو يدعو لها والدم ينفجر منها صاحت: ادع الله أن نرافقك في الجنة، فأتاها الجواب منه ﷺ:

"اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة"،

فهتفت رضي الله عنها: والله ما أبالي ما أصابني من الدنيا بعد اليوم»[٤٠]



---

٣٨ الحاكم، ٣، ٣٣٤/ ٥٢٨١؛ الهيثمي، ٦، ١١٣؛ ابن سعدو ٣، ٤٥٣.

٣٩ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٤٧٩.

٤٠ الواقدي، ١، ٢٧٣؛ ابن سعد، ٨، ٤١٥.



«مر أنس بن النضر رضي الله عنه بقوم من المسلمين ألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ، فقال: وما تصنعون بالحياة بعده؟. قوموا، فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل المشركين فما زال يقاتلهم حتى قتل.»[٤١]



«لمَّا كان يوم أُحد قال رسول الله ﷺ:

"من يأتيني بخبر سعد بن الربيع الأنصاري"،

فقال رجل: أنا يا رسول الله. فذهب الرجل يطوف بين القتلى، فقال له سعد بن الربيع: ما شأنك؟ فقال له الرجل: بعثني إليك رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك، قال: فاذهب إليه فاقرأه مني السلام. وأخبره أني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة. وأني قد أنفذت مقاتلي. وأخبر قومك أنه لا عذر لهم عند الله، إن قتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حي»[٤٢]



وروي: «أنّ عائشة رضي الله عنها خرجت من المدينة تتطلّع لأخبار معركة أُحد، ومعها نسوة من المدينة، فالتقت بهند بنت عمرو بن حرام

---

٤١ أحمد، ٣، ٢٥٣؛ ابن هشام، ٣، ٣١.

٤٢ الموطأ، الجهاد، ٤١؛ الحاكم، ٣، ٢٢١/ ٤٩٠٦؛ ابن هشام، ٣، ٤٧.



تسوق بعيراً لها عليه جثّة زوجها عمرو ابن الجموح، وابنها خلّاد بن عمرو، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو جابر ابن عبد الله الانصاري، فقالت لها عائشة: فما وراءك؟ قالت هند: أمّا رسول الله فهو بخير، وكلّ مصيبة بعده جلل... ».[٤٣]



وثمة صورة أخرى ذات عبرة في أحد وهي: اهتزت المدينة بخبر قتل محمد، فعلا الصراخ في أنحاء المدينة، وبلغ النحيب العرش، وقصد الجميع الطرق، طالبين للخبر، فلما لاح للسميراء الأنصارية فارس يقترب نهضت إليه تستوقفه، وتسأله عن أخبار المعركة، فعرفها الفارس فنعى إليها ولديها النعمان وسليم، فما زادت أن قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعادت إلى الرجل تقول: يا أخا الإسلام، ما عنهما سألتك، أخبرني ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال الرجل: خيراً إن شاء الله، هو بحمد الله على خير ما تُحبين، قالت: أرنيه انظر إليه، فأشار إليه، فقالت –وقد تهلل وجهها، ونسيت مصيبتها بولديها–: كلُّ مصيبة بعدك جلل يا رسول الله.[٤٤]

---

٤٣ الواقدي، ١، ٢٦٥؛ ابن حجر، فتح الباري، دار الفكر، ٣، ٢١٦؛ ابن عبد البر، الإصابة، القاهرة، ٣، ١١٦٨.

٤٤ الواقدي، ١، ٢٩٢؛ الهيثمي، ٦، ١١٥.



هذه هي قمة المحبة التي كان الصحابة يُكِنُّوها للرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه هي التضحيات ونماذج الفضيلة التي كانت قلوب المؤمنين الفائضة بهذا الحب تقدمها...



«مر رسول الله عليه الصلاة والسلام بشهداء أحد فقال:

"هؤلاء أشهد عليهم"

فقال أبو بكر الصديق ﵁: ألسنا يا رسول الله بإخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟

فقال رسول الله ﷺ: **"بلى، ولكن لا أدري ما تُحدثون بعدي؟"**

قال: فبكى أبو بكر ﵁ –وكان لا يحتمل فراق النبي عليه الصلاة والسلام ولو للحظة–، وقال: أئنا لكائنون بعدك؟.–معبراً بذلك عن قلقه وحزنه في شأن الحياة بعده عليه الصلاة والسلام–».[٤٥]



وقد روي أن قبيلتي عضل وقارة بعثوا بمجموعة إلى المدينة وطلبوا من الرسول الله أن يبعث معهم من يعلمهم وكانت مكونة من ١٠ صحابة عليهم عاصم بن ثابت، فلما وصلوا إلى منطقة الرجيع أغارو عليهم بنو لحيان وكانوا متفقين مع قبيلة عضل وقارة على الخيانة، فمات ٧ من المسلمين وبقي ثلاثة فأعطوهم الأمان،

٤٥ الموطأ، الجهاد، ٣٢.



وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، فقال له أبو سفيان حين قَدِمَ ليُقتل: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحبُّ أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي، قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا، وقد كانت لخبيب بن عدي رضي الله عنه رغبة واحدة قبل موته، وهي إرسال سلام إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن أنى له ذلك، ومع من؟ فتوجه ببصره نحو السماء قائلاً: اللهم إني قد بلَّغت رسالة رسولك، فبلغ عنا نبيك فإني أحب أن يبلغه مني السلام قبل الموت، فينزل جبريل من السماء: يا رسول الله، خبيب بن عدي يقرئك السلام، وسيقتلونه الآن.[٤٦]



كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يهتاجون أحياناً في حب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى درجة أنهم يعجزون عن تقاسم النبي بينهم، قال كعب بن عجرة رضي الله عنه:

«جلسنا يوما أمام بيوت رسول الله ﷺ في المسجد في رهط منا معاشر الأنصاري ورهط من المهاجرين ورهط من بني هاشم،

---

٤٦ انظر: البخاري، الجهاد، ١٧٠، المغازي، ١٠، ٢٨؛ الواقدي، ١، ٣٥٤ـ٣٦٣.



فاختصمنا في رسول الله ﷺ أينا أولى به وأحب إليه؟ قلنا: نحن معاشر الأنصار آمنا به واتبعناه، وقاتلنا معه، وكتيبته في نحر عدوه، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه، وقال إخواننا المهاجرون: نحن الذين هاجرنا إلى الله ورسوله، فارقنا العشائر والأهلين والأموال، وقد حضرنا ما حضرتم وشهدنا ما شاهدتم، فنحن أولى الناس برسول الله ﷺ وأحبهم إليه، فقال إخواننا من بني هاشم: نحن عشيرة رسول الله ﷺ، قد حضرنا الذي حضرتم وشهدنا الذي شهدتم، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه، فخرج إلينا رسول الله ﷺ، فأقبل علينا فقال: "**إنكم لتقولون شيئا؟**" فقلنا مثل مقالتنا، فقال للأنصار: "**صدقتم من يرد هذا عليكم**"، وأخبرناه بما قال إخواننا المهاجرون، فقال: "**صدقوا وبروا من يرد هذا عليهم**"، وأخبرناه بما قال بنو هاشم: فقال: "**صدقوا وبروا من يرد هذا عليهم**"، ثم قال: "**ألا أقضي بينكم؟**" قلنا: بلى بأبينا وأمنا أنت يا رسول الله، فقال: "**أما أنتم يا معشر الأنصار فإنما أنا أخوكم**"، فقالوا: الله أكبر ذهبنا به ورب الكعبة، "**وأما أنتم معشر المهاجرين فإنما أنا منكم**"، فقالوا: الله أكبر ذهبنا به ورب الكعبة، "**وأما أنتم بنو هاشم فأنتم مني وإلي**"، فقمنا وكلنا راض مغتبط برسول الله عليه الصلاة والسلام».[٤٧]



---

٤٧ الهيثمي، ١٠، ١٤.

وقد كان حب ما يحبه عليه الصلاة والسلام من دواعي سرور الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فعن أنس ﵁:

«إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرب إليه خبزا من شعير ومرقا فيه دباء، قال أنس: فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حول القصعة، فلم أزل أحب الدباء بعد ذلك اليوم».[٤٨]

ومن أوضح علامات الحب حب ما يحبه الحبيب.



«وأما حال أبي بكر ﵁ فيما سيأتي فأثرٌ لا مثيل له في المحبة والحساسية البالغة، حيث أتى أبو بكر في فتح مكة بأبيه أبي قحافة إلى النبي ليُسْلِمَ على يديه ﷺ، وكان أبو قحافة ضريرا وذا شيبة، فلما أتى به قال له النبي ﷺ: **"ألا تركت الشيخ حتى نأتيه"**، قال أبو بكر ﵁: يا رسول الله أردتُّ أن يأجره الله ﷻ، وفي رواية هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه، ثم قال أبو بكر للنبي ﷺ: أما والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك ....».[٤٩]



---

٤٨ البخاري، الأطعمة، ٣٣، السحر، ٣٠؛ مسلم، الأشربة، ١٤٤.

٤٩ الهيثمي، ٦، ١٧٤؛ ابن سعد، ٥، ٤٥١.



كان عليه الصلاة والسلام يؤمّ المسلمين للصلاة في كل مكان يمر به أثناء ذهابه للحج، فأراد المسلمون بعد ذلك بقصد المحبة والوفاء بناء مساجد في تلك الأماكن إحياء لذكراه عليه الصلاة والسلام على الدوام.[٥٠]



وقد قدم الصحابة رضوان الله عليهم الكثير من نماذج الفضيلة فيما يتعلق بالتبرك بأي شيء يخصّ فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما:

«أن سيدنا أبا القاسم رسول الله ﷺ لما حلق شعره في حجّة الوداع أمر بتقسيم شعره الشريف بين الصحابة»

وروي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه:

«اعتمرنا مع رسول الله ﷺ في عمرة اعتمرها فحلق شعره، فسبقتُ إلى الناصية، فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدمة القلنسوة، فما وجهت في وجه إلا فتح لي».[٥١]



وقد روي:

«أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، قالت: نسجتُها بيدي فجئت لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها،

---

٥٠ ابن سعد، ٢، ١٧٣.

٥١ الواقدي، ٣، ١١٠٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١١١.



فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسنها فلان فقال: اكسنيها ما أحسنها، قال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجا إليها، ثم سألتَه وعلمتَ أنه لا يرد، قال: إني والله ما سألته لألبسه إنما سألته لتكون كفني، قال سهل فكانت كفنه». [٥٢]



وعن سهل بن سعد الساعدي:

«أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: **"أتأذن لي أن أعطي هؤلاء"**، فقال: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحدا، قال: فتلَّه رسولُ الله ﷺ في يده». [٥٣]



كان رحيل النبي عليه الصلاة والسلام عن الصحابة -الذين كانوا يؤثرونه على أنفسهم ويحبونه أكثر من أنفسهم- مؤلماً وثقيلاً جداً عليهم، فعن أنس رضي الله عنه قال:

«لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أباه، فقال لها: **"ليس على أبيك كرب بعد اليوم"**، فلما مات قالت: يا أبتاه! أجاب ربا دعاه، يا أبتاه! من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه!

---

٥٢ البخاري، الجنائز، ٢٨، السحر، ٣١، اللباس ١٨.

٥٣ البخاري، الأشربة، ١٩.



إلى جبرئيل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب». [٥٤]



جاء عبد الله بن زيد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أجد حتى أتيك فانظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة خشيت ألا أراك، فلم يرد عليه حتى نزلت:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [٥٥]

وروي أن عبد الله بن زيد كان يعمل في بستانه، فأتاه ابنه فأخبره بوفاة النبي ﷺ، فقال:

«اللهم أذهب بصري حتى لا أرى، فعمي مكانه» [٥٦]



ولم يختلف شعور صحابي آخر فقد بصره بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، عن عبد الله بن زيد، إذ عاده أصحابه بعدما عمي،

---

٥٤ البخاري، المغازي، ٨٣/ ٤٤٦٢؛ الدارمي، المقدمة، ١٤.

٥٥ النساء، ٦٩.

٥٦ انظر: القرطبي، ٥، ٢٧١.



في حين أنه لم يكن ذهاب بصره يهمّه ويحزنه، فقال لمن أتاه يروّح عنه:

«كنت أريدهما لأنظر إلى النبي ﷺ ،فأما إذا قبض النبي ﷺ فو الله ما يسرني أن بهما بظبي من ظباء تبالة».[٥٧]

لقد كانت حال أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لما توفي أشبه بشمعة تحترق وتذوب من الحزن، حيث اكتوت الأفئدة يومئذ فجأة بنيران الحسرة ودخلوا في حال غير التي كانوا فيها، حتى عمر ﵁ أصابه الذهول، وثقل على أبي بكر ﵁ بَعْثُ السكينة في الناس، إذ إنه كان على تلك القلوب التي لم تكن تطيق فراقه يوماً واحداً أن تعلم أنها لن تراه مجدداً في هذه الدنيا الزائلة.



عندما توفي الرسول ﷺ حزن بلال ﵁ حزناً شديداً، ومن حزنه توقف عن الأذان، وترك المدينة المنورة، ورحل الى بلاد الشام، مرت سنين على وفاة الرسول ﷺ، ثم إن بلالا ﵁ رأى الرسول ﷺ في المنام، يقول له الرسول ﷺ: ما هذه الجفوة يا بلال، أما آن لك أن تزورنا؟ ، فانتبه من نومه حزيناً، وركب إلى المدينة، وأتى قبر النبي ﷺ وجعل يبكي عنده ويتمرّغ عليه، فأقبل الحسن والحسين فجعل يقبلهما ويضمهما إليه، فقالا له: نشتهي أن تؤذن في السحر، فقام

٥٧ ابن سعد، ٢، ٣١٣.



بلال إلى سطح المسجد وأذّن: الله أكبر الله أكبر، فارتجّت المدينة كلها، فلمّا قال: أشهد أن لا إله إلا الله زادت رجّتها، فلمّا قال: أشهد أن محمداً رسول الله خرجت النساء من خدورهنّ، فما رؤي يومٌ أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم.(٥٨)

ولما حضرت الوفاة هذا الصحابي -عاشق رسول الله عليه الصلاة والسلام- كانت امرأته تبكي وتقول: واحزناه! فنظر بلال إليها وقال: بل، واطرباه.. غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فتوفي في دمشق وهو ابن بضع وستين سنة رضي الله عنه وأرضاه.(٥٩)

فكانوا رضوان الله عليهم يتمسكون بقوله عليه الصلاة والسلام: "**إنك مع من أحببت**"(٦٠)، ويحاولون زيادة حبه عليه الصلاة والسلام ومضاعفته في قلوبهم، فهو أعظم رأس مال في أيديهم، والمنبع الوحيد للسَّلْوَى.

وعن أنس رضي الله عنه قال:

«جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: "**وما أعددت للساعة؟**"، قال: حبُّ الله ورسوله، قال: "**فإنك مع من أحببت**"، قال أنس فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول

٥٨ ابن الأثير، أسد الغابة، ١، ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ الذهبي، السير، ١، ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

٥٩ الذهبي، السير، ١، ٣٥٩.

٦٠ البخاري، جـ٨، ص ٣٩/ ٦١٦٧؛ أحمد، مسند، جـ ٢١، ص ٧٦/ ١٣٣٧١.



النبي ﷺ فإنك مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم».[٦١]



«خرج عمر رضي الله عنه ليلةً يحرس، فرأى مصباحاً في بيتٍ، فدنا فإذا عجوز تطرق شعرا لها لتغزله أي تنفشه بقدح وهي تقول:

على محمد صلاة الأبرار

صلى عليك المصطفون الأخيار

قد كنت قواما بكي الأسحار

يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي ﷺ، فجلس عمر يبكي، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها، فقالت: من هذا؟ قال: عمر بن الخطاب، قالت: ما لي ولعمر؟ وما يأتي بعمر هذه الساعة؟ قال: افتحي رحمك الله فلا بأس عليك، ففتحت له فدخل فقال: ردي علي الكلمات التي قلت آنفا، فردتها عليه، فملا بلغت آخرها قال: أسألك أن تدخليني معكما، قالت: وعمر فاغفر له يا غفار، فرضى ورجع».[٦٢]



---

٦١ مسلم، البر، ١٦٣.

٦٢ علي المتقي، ١٢، ٥٦٢/ ٣٥٧٦٢.

لم تُر فاطمة ﵂ تضحك أبداً بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.[٦٣]

ولم يكن يمضي يوم دون أن يتذكر فيه عبد الله بن عمر ﵁ النبي عليه الصلاة والسلام، ويبكي.[٦٤]

يقول أنس ﵁:

«ما مِن ليلة إلاَّ وأَنا أرى فيها حبيبي -يعني رسول الله ﷺ- في المنام بعد وفاته، ثمَّ يبكِي».[٦٥]

كان أنس ﵁ يعيش كما كان عليه الصلاة والسلام يعيش، ويصلي مثله تماماً، لمعرفته الجيدة به من ملازمته الدائمة له عليه الصلاة والسلام، وكان يحتفظ بعصا النبي عليه الصلاة والسلام وشعرة من شعراته الشريفة لا تفارقانه أبداً، فلما مات وضعت العصا جانبه في قبره والشعرة تحت لسانه حسبما أوصى ﵁.



كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين إذا ذكروا النبي عليه الصلاة والسلام أو تحدثوا عنه، يسرّهم البدء بكلمات

٦٣ ابن سعد، ٢، ٣١٢.

٦٤ ابن سعد، ٢، ٣١٢.

٦٥ ابن سعد، ٧، ٢٠.



تفيد حبهم الجيّاش له عليه الصلاة والسلام، كأن يقولوا «حبيبي» و«خليلي».[٦٦]

وما كان من شيء على وجه الأرض إلا ويذكِّرهم بصاحبهم الحبيب، وقد قال أبو ذر ﵁:

«لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يتقلب في السماء طائر الا ذَكَّرَنَا منه علماً»[٦٧]



يقول عقبة بن الحارث: «صلى أبو بكر العصر ثم خرج يمشي ومعه علي، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه وقال: بأبي، شبيه بالنبي ﷺ ليس شبيهاً بعلي، وعلي يضحك».[٦٨]



أظهر الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين حساسية شديدة واهتماماً كبيراً أثناء نقلهم وتبليغهم أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، خشية اختلاطه بما ليس من كلامه، يقول عمرو بن ميمون: «ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط قال رسول الله ﷺ، فلما كان ذات عشية قال: قال رسول الله قال ﷺ، فنكس، قال: فنظرت إليه فهو قائم محللة

٦٦ البخاري، التهجد ٣٣، الصوم ٦٠؛ مسلم، ٨٥، ٨٦؛ ابن سعد، ٦، ٢٢٩.

٦٧ أحمد، ٥، ١٥٣، ١٦٢/ ٢١٤٧٧؛ الهيثمي، ٨، ٢٦٣.

٦٨ البخاري، المناقب، ٢٣.



أزرار قميصه قد اغرورقت عيناه وانتفخت أوداجه، قال: أو دون ذلك أو فوق ذلك أو قريبا من ذلك أو شبيها بذلك».[٦٩]



كان سيدنا أبو بكر ﷺ إن أراد التحديث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بحديثه، يبكي كلما تذكر النبي عليه الصلاة والسلام، ويصعب عليه الكلام، يصف لنا أبو هريرة ﷺ حاله تلك فيقول:

«قام أبو بكر الصديق على المنبر ثم بكى، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ عام أول على المنبر ثم بكى، فقال: "**سلوا الله العفو والعافية، فإن أحدا لم يُعط بعد اليقين خيرا من العافية**"».[٧٠]



وتصف لنا عائشة ﷺ شوق أبيها أبي بكر ﷺ إلى لقاء خليله الوحيد النبي عليه الصلاة والسلام لحظة وفاته، فتقول:

«لما ثقل أبو بكر قال: أي يوم هذا؟ قلنا يوم الاثنين، قال: فإني أرجو ما بيني وبين الليل، قالت: وكان عليه ثوب عليه ردع من مشق، فقال: إذا أنا مِتُّ فاغسلوا ثوبي هذا، وضموا إليه ثوبين جديدين، وكفنوني في ثلاثة أثواب، فقلنا: أفلا نجعلها جدداً كلها؟ قال: لا، إنما هو للمهلة فمات ليلة الثلاثاء».[٧١]

---

٦٩ ابن ماجة، المقدمة، ٣.

٧٠ انظر: الترمذي، الدعوات، ١٠٥.

٧١ أخرجه البخاري، أحمد، ١، ٨.



كان أبو بكر ﵁ يشعر وكأنه في الغربة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، فلما حان وقت الرحيل عن الدنيا دخل في حالة من الهيجان لهجرة ثانية إلى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.



ثم إن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يغبطون المرضى منهم الذين يعشقون النبي عليه الصلاة والسلام ويأملون لقاءه في أسرع وقت ممكن، لدنوٍّ لحظة الوصال بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام، فيبعثون معهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام سلامهم المفعم بالحب، فعلى سبيل المثال: قال محمد بن المنكدر:

«دخلت على جابر بن عبد الله وهو يموت، فقلت: اقرأ على رسول الله ﷺ السلام».[٧٢]



وقد كان حب أقرباء وأحباب رسول الله ﷺ شعارهم في حياتهم، فعلى سبيل المثال:

«كَانَ عِنْدَ عمر بن الخطاب ﵁ صحاف تسع. فلا تكون فاكهة ولا طريفة إلا جعل منها في تلك الصحاف. فبعث بها إلى أزواج

٧٢ ابن ماجة، الجنائز، ٤.



النبي ﷺ. ويكون الذي يبعث به إلى حفصة ابنته، من آخر ذلك. فإن كان فيه نقصان، كان في حظ حفصة».[٧٣]



وعن عمر رضي الله عنه: «أنه فرض لأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمس مائة، وفرض لعبد الله بن عمر في ثلاثة آلاف، قال عبد الله بن عمر لأبيه: لم فضَّلتَ أسامة عليَّ، فوالله ما سبقني إلى مشهد، قال: لأن زيدا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله ﷺ منك، فآثرت حِبَّ رسول الله ﷺ على حبي».[٧٤]



وعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ:

«صحبت جرير بن عبد الله، فكان يخدمني وهو أكبر من أنس قال جرير: إني رأيت الأنصار يصنعون شيئا، لا أجد أحدا منهم إلا أكرمته».[٧٥]

يا له من حب عظيم!..



---

٧٣ الموطأ، الزكاة، ٤٤.

٧٤ الترمذي، المناقب، ٣٩/ ٣٨١٣.

٧٥ البخاري، الجهاد، ٧١/ ٢٨٨٨؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٨١.



كان الكثير من الصحابة يعيشون بذكرى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومنهم أبو محذورة: «فكان لا يجزّ ناصيته ولا يفرقها لأن النبي ﷺ مسح عليها».[٧٦]



«وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لامرأة من غفار:

"... **خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك**"

ففعلت، وكانت لا تطهر إلا جعلت في طهرها ملحاً، وأوصت أن يجعل في غسلها ملح حين غسلت».[٧٧]

يا لها من محبة مذهلة لا تضيع شيئاً من قوة العمر، بل تتضاعف بزيادتها!..



قال عبد الرحمن بن سعد:

«خدرت رجل ابن عمر رضي الله عنهما، فقلت: ما لرجلك؟ قال: اجتمع عصبها، قلت: ادع أحب الناس إليك، قال: يا محمد، فبسطها».[٧٨]



---

٧٦ أبو داوود، الصلاة، ٢٨/ ٥٠١.

٧٧ أبو داوود، الطهارة، ١٢٢/ ٣١٣.

٧٨ ابن سعد، ٤، ١٥٤.



يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى الحب العظيم الذي تُكنّه له أمته:

«**مِن أشد أمتي لي حُبا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**».[79]

ولذا فقد مر الكثير من أولياء الحق -منذ عصر الرسالة وحتى يومنا هذا- اكتووا بنار حب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وفيما يلي بعض من الأمثلة على ذلك:

«قال عبدالله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدث حديث رسول الله ﷺ، فلدغته عقرب ستة عشرة مرة، ومالك يتغير ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس، قلت له: يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً، فقال: نعم إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ».[80]

كان الإمام مالك رحمه الله تعالى يعيش بنشوة محبة القرب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، شديد الحب لرسول الله فلا يركب على ظهر دابة في المدينة المنورة، ولا يخرج لقضاء الحاجة، ويتكلم بصوت منخفض عندما يؤم في الروضة، احتراماً لحرمة ساكنها، ويقول للخليفة المنصور: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدّب قوماً فقال:

---

٧٩ مسلم، الجنة، ١٢/ ٢٨٣٢؛ الحاكم، ٤، ٩٥.

٨٠ المناوي، ٣، ٣٣٣؛ السيوطي، مفتاح الجنة، ص: ٥٢.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٨١]



كان الإمام مالك منذ شبابه شديد التعظيم لحديث رسول الله ﷺ، إلى جانب اهتمامه بالسماع بكل سكون ووقار لكي يتعلمها على الوجه الحسن، ولذا كان لا يستمع إلى الحديث الشريف وهو قائم، أو منزعج لأمر ما، أو حزين، ولا يحضر درساً للحديث وهو متوتر، حيث يخشى الوقوع في الخطأ في الأحاديث الشريفة، حتى سئل يوماً: أسمعت عن عمرو بن دينار؟ فقال: رأيته يحدث والناس قيام يكتبون، فكرهت أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، وكان رجلاً مهيباً نبيلاً، وفي الوقت نفسه ذا أخلاق حسنة في أحواله كلها وكذا مجالسه، وكان وجهه مستبشراً ومشرقاً سواء كان يفتي في المسائل أو يحدث بأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان مالك إذا جلس للحديث توضأ، وتهيأ ولبس ثيابه، ولم يكن يجلس على المنصة إلا إذا حدّث عن رسول الله ﷺ، وكان مالك إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل، فإن قالوا: المسائل، خرج إليهم، فأتاهم،

---

٨١ الحجرات، ٢.



وإن قالوا: الحديث، قال لهم: اجلسوا، ودخل مغتسله، فاغتسل، وتطيب، ولبس ثياباً جدداً، ولبس ساجه، وتعمم، ووضع على رأسه طويلة، وتلقى له المنصة، فيخرج إليهم وقد لبس وتطيّب، وعليه الخشوع، ويوضع عود فلا يزال يُبَخّر حتى يفرغ من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام.



يُعَدُّ عبيدة السلماني واحداً من أوائل فقيهي ومحدثي التابعين، وقد أسلم قبل وفاة النبي بسنتين إلا أنه لم يحظ برؤيته، وقوله:

«لأن يكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض».[٨٢] يذكرنا ويوضح لنا حب أوائل المسلمين لرسول الله ﷺ.

يقول الإمام الذهبي في قول عبيدة السلماني الذي مر آنفاً:

«هذا القول من عبيدة هو معيار كمال الحب، وهو أن يؤثر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس؛ ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسناد ثابت، أو شسع نعل كان له، أو قلامة ظفر، أو شقفة من إناء شرب فيه، فلو بذل الغني معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده أكنت تعده مبذرا أو سفيهاً؟ كلا فابذل مالك

٨٢ أحمد، ٣، ٢٥٦.



في زورة مسجده الذي بنى فيه بيده، والسلام عليه عند حجرته في بلده، والتذَّ بالنظر إلى أُحُدِه وأحبَّه، فقد كان نبيك ﷺ يحبه، وتملى بالحلول في روضته ومقعده، فلن تكون مؤمناً حتى يكون هذا السيد أحبَّ إليك من نفسك وولدك وأموالك والناس كلهم».[٨٣]



قال الربيع بن سليمان أحد تلامذة الإمام الشافعي:

«إن الشافعي خرج إلى مصر وأنا معه، فقال لي: يا ربيع، خذ كتابي هذا فامض به وسلمه إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل وائتني بالجواب، قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتاب، فلقيت أحمد بن حنبل صلاة الصبح فصليت معه الفجر، فلما انفتل من المحراب، سلمت إليه الكتاب وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال: أحمد: نظرتَ فيه؟ قلت: لا، فكسر أبو عبد الله الختم، وقرأ الكتاب وتغرغرت عيناه بالدموع، فقلت: إي شيء فيه يا أبا عبد الله؟، قال: يذكر أنه رأى النبي ﷺ في النوم، فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، واقرأ عليه مني السلام، وقل: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم، فسيرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت: البشارة، فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده ودفعه إلي، فأخذته وخرجت إلى مصر، وأخذت جواب

---

٨٣ الذهبي، السير، ٤، ٤٢ ـ ٤٣.



الكتاب فسلمته إلى الشافعي، فقال لي الشافعي: يا ربيع إي شيء الذي دفع إليك؟ قلت: القميص الذي يلي جلده، قال الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بلَّه وادفع إليَّ الماء حتى أشركك فيه». [٨٤]

وقد وقف الإمام النووي -عالم الحديث والمجتهد الكبير- حياته على اتباع النبي عليه الصلاة والسلام ونشر سنته، وقد بلغ به القرب الشديد من الرسول عليه الصلاة والسلام تقليده إياه إلى حدٍّ امتنع معه عن أكل البطيخ طوال حياته لعدم علمه أأكله النبي عليه الصلاة والسلام بكسره أو تقطيعه.



ومن الجدير بالذكر حب الإمام البوصيري لرسول الله ﷺ:

«لقي الإمامَ البوصيري -صاحب قصيدة البردة في مدح النبي ﷺ- شخصٌ مشرق الوجه في طريقه إلى بيته، فقال للشيخ: يا بوصيري، أرأيت رسول الله ﷺ في منامك الليلة، فأجاب الإمام: لا لم أر، فيفترق الشيخ عنه بعد هذه المحادثة القصيرة دون أن يقول شيئاً آخر، إلا أن كلماته تلك هيجت مشاعر العشق والمحبة لرسول الله ﷺ في قلب الإمام، وفي تلك الليلة يرى الإمام رسول الله في منامه، فيستيقظ وفؤاده طرب مطمئن، فيبدأ بنظم أشعار في مدح

---

٨٤ انظر: ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، (تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي)، القاهرة ١٤٠٩، ص: ٦٠٩ - ٦١٠.



النبي ﷺ، والكثير من قصائد الثناء على الرسول ﷺ التي أغرقت عاشقيه في بحار حبه.

ثم إنه قد أصيب بالشلل النصفي ولزم الفراش، فبدأ ينظم هذه القصيدة وفي منامه رأى الرسول ﷺ يطلب إليه أن يُنشِد ما نظمه، واستمع إليه ومنحه بردته -أي عباءته- وبسطها عليه، فأصبح وقد بَرِئَ من الشلل، يقول البوصيري: فلقيني أبو الرجا، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت: أيّها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولّها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تُنْشَد بين يدي رسول الله ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ أعجبته، وألقى على من أنشدها بردة، فدهش البوصيري لعلمه بأنه ما من أحد يعلم بأمر القصيدة بعد».



لما بلغ الولي الكبير سيد أحمد يسوي -الذي تسبب بتفتح نور الإسلام وفيضه في الأفئدة من آسيا الوسطى وحتى البلقان- الثالثة والستين من عمره، حفر لنفسه مكاناً كالقبر تحت الأرض، وقال: «لا يلزمني العيش فوق التراب بعدما بلغ مني العمر ما بلغ»، وأمضى حسب ما روي السنوات العشر المتبقية من عمر العبادة والإرشاد بأمل اتباع النبي عليه الصلاة والسلام ومماثلته في كل أموره في ذلك القبر الذي جعله تحت الأرض.



كان لفاتح الهند محمود الغزنوي خادماً يُكِنُّ له شديد الحب اسمه "محمود"، فكان يناديه باسمه دائماً، فناداه مرة باسم أبيه، فحزن الخادم من تصرف السلطان محمود وانكسر قلبه، ولما سأله عن السبب في مخاطبته بذلك، أجابه محمود الغزنوي بما يلي:

«يا بني، كنت أناديك باسمك كل يوم، إذ أكون متوضئاً، إلا أنني الآن لست كذلك، فاستحييت أن أخاطبك باسمك، وناديتك باسم أبيك».



لقد كانت الدولة العثمانية دولة متميزة بحب شعبها للنبي عليه الصلاة والسلام من حاكمها إلى راعيها، إذ إنها جعلت صور الاحترام غير المحصاة من وضع اليد على القلب يرافقه إظهار الاحترام كلما ذكر اسمه عليه الصلاة والسلام إضافة إلى الصلاة والسلام عليه، والقيام جميعاً أثناء الاستماع إلى الأبيات المتعلقة بلحظة ولادته عليه الصلاة والسلام في الاحتفال بمولده الشريف جعلته عرفاً لديها، ولا تجد سلطاناً عثمانياً يسمح بقراءة بريد المدينة المنورة، قبل أن يجدد وضوءه ويقبل الرسائل القادمة من هناك ويمسح بها عينيه، ويقف أثناء قراءتها.

إضافة إلى أن قدموا نموذجاً لا مثيل له في التأدب بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، برفع الحجارة في ترميم المسجد النبوي على وضوء والإتيان بالبسملة عند وضع كل حجر في مكانه، وفي الوقت



نفسه بربطهم الجوخ على مطارقهم حذراً من الإزعاج في روحانية رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وأيضاً فإن موكب «السُّرَّة» الذي كان يبعث إلى المدينة المنورة في عهد العثمانيين،[٨٥] لم يكن ليدخلها قبل المبيت في موضع قريب منها، ويهيؤون أنفسهم لجو المدينة المعنوي، وبعد الاستخارة يصِلُون إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام بإشارة معنوية، فيزورونه، وفي عودتهم يجلبون معهم إلى أوطانهم تراب المدينة المنورة المبارك للتبرك به.

ثم إن العَرف الموجود على طرف العمائم في المنمنمات «المصغرات» والتي كانت تعد صوراً في زمانهم، للسلاطنة العثمانية، لسيت إلا بقايا مقشات، وهم بذلك يشيرون إلى أنهم كانسي الحرمين الشريفين ويعتبرون أنهم كذلك، ويعطون نفقات وأجرة الأشخاص المتعهدين بخدمات نظافة الحرمين الشريفين من مالهم الخاص.



٨٥ وهو المال والذهب والهدايا المرسلة مِن قِبل السلطنة في موكب قبل موسم الحج في رجب من اسطنبول إلى المدينة، بقصد توزيعها على الأشراف والمحتاجين، من خلال تنظيم احتفال خاص. (انظر: منير أطالار، سرائي هومايون وسرا آلايلاري، أنقرة ١٩٩١، ص: ٢).



وكذلك فإن شعر وشعرات لحية النبي ﷺ، باعتبارها ذكرى ثمينة، حفظت داخل أربعين حزمة في منابر المسجد تحت اسم "اللحية الشريفة"، تبركاً بها ورحمة للأمة منذ عصور يا له من رمز محبة عظيمة.



فتح السلطان يافوز سليم مصر، وسلمت إدارة منطقة الحجاز إليه، ولما خاطبه خطيب مسجد الملك المؤيد في ٢٠ شباط، بقوله: «حاكم الحرمين الشريفين»، قاطعه السلطان على الفور بعيون دامعة قائلاً: لا، بل على العكس، قل: «خادم الحرمين الشريفين»، وبعدها شكر ربه تعالى بسجوده على تراب الأرض بعد إزاحته الحصير منها، ولكي يثبت أنه خادم الحرمين الشريفين وضع على عمامته تميمة على شكل مقشة.

وهذه الكلمات التي قالها لبيري باشا بعد توليته رئاسة حراس هذه البلاد المباركة، تعد صورة صادقة ومخلصة على حبه لرسول الله ﷺ:

«يا أيها الباشا، إن بين يديك سلطنة مكة والمدينة والأبناء الكرام لثروة العالم، لم أفتح تلك البلاد بالجيش، وإنما أطاعوني في سبيل الوحدة الإسلامية بكمالهم وحسن أدبهم وإحسانهم، ويلزمني مكافأة هذه العزة، وأنا على شكر دائم في الليل والنهار لله تعالى، على ذكر اسمي في الخطب المترددة في تلك البلاد، ولست



أبدل هذه السعادة بحكم العالم! وفي هذا الصدد فلا تحجب ما هو لازم لناس الحرمين الشريفين! واحذر من التدخل في شؤون تلك البلدتين المباركتين».



لقد أظهر أجدادنا المباركون على مدى العصور احتراماً وتعظيماً ومحبة يمتنع وصفها لأشيائه عليه الصلاة والسلام وأماناته المقدسة، وسيكون كافياً للاطلاع على بعض من هذه الأمثلة الرائعة إلقاءُ نظرة على تاريخ الأمانات المقدسة، والتي اعتبر ما قدمه أجدادنا لها من خدمة أعظم شرف.

كان السلاطين العثمانيون الذين لا يريدون مفارقة بردته الشريفة ﷺ ولا للحظة يصحبونها معهم أينما ذهبوا بأي وسيلة كانت، لذا تم إنشاء صالة بردة النبي عليه الصلاة والسلام في قصر إستافروز وقصر أدرنة القديم الموجودين في المكان الموجود فيه قصر بيلاربي، كم هو الحال أيضاً في قصر طوب كابي.

وقد يكون أخذها معه إلى الحروب، ومن الملفت للانتباه منمنمة تم تصوير إحدى المعارك فيها، تظهر إحداها حسب ما يفهم منها أن البردة الشريفة تُحمَل على رأس حراس مكلفين طوال الطريق.

كان محمد الثالث من سلاطنة العثمانيين، شخصية ممتلئة بحب الرسول عليه الصلاة والسلام، على الرغم من أنه كان سلطاناً



عصبياً ذا مزاج عصبي وطباع قاسية، فلو ذكرت أسماء الرسول ﷺ الشريفة سرعان ما يقوم مُبدياً بذلك محبة منه وإجلالاً وتعظيماً له عليه الصلاة والسلام، وقد كان أخذ عند ذهابه في حملة أغري، الراية الشريفة والبردة جنباً إلى جنب، ولما ظهرت أمارات الهزيمة في صفوف الجند المسلمين قال سعد الدين معلم السلطان: «يا مولاي! إنه لمن لحريٌّ بسلطان آل عثمان، وخليفة رسول الله ارتداء البردة الشريفة والالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء في وقت كهذا»، وهو بهذا أفتى بارتداء السلطان للبردة الشريفة، وبهذا يكون السلطان محمد الثالث قد هيَّج جند الإسلام بارتدائه للبردة الشريفة بالصلاة والسلام على النبي عليه الصلاة والسلام وأصوات التكبير، وبالنتيجة وُفِّقَ لظفرٍ أكيد.



وأما السلطان أحمد خان الأول فقد أتى بآثار قدم رسول الله ﷺ المباركة، المعروفة ب"نقش القدم" التي عثر عليها في مزار سلطان كاييت باي في مصر، ووضعها في مزار أيوب سلطان، وذلك أثناء قيامه بإنشاء مسجد باسمه، ولما فرغ بناء المسجد أحضرها إليه، إلا أنه وفي الليلة التي تم فيها هذا النقل رأى في منامه:

«مجلساً عظيماً قد أقيم اجتمع فيه جميع السلاطين، وكان النبي عليه الصلاة والسلام في موقع القاضي من المجلس، وثمة شبه محكمة قائمة، يدعي فيها السلطان كاييت باي على السلطان أحمد



خان لأخذه القدم الشريفة من مزاره والتي كانت سبباً في زيارته وإرسالها إلى اسطنبول، وقد حكم النبي عليه الصلاة والسلام بصفة القاضي برد القدم الشريفة فوراً ...»

فأفاق السلطان أحمد خان وهو حائر خائف، وأطلع بعض العلماء والشيوخ وفيهم عزيز محمود هُدائي على الرؤيا ليعبروها له، فقالوا له:

«يا مولاي، إن الرؤيا واضحة للغاية، ما من حاجة إلى التفسير فيها، لا بد من رد الأمانة على الفور...».

فما كان من السلطان أحمد خان الأول -عاشق النبي عليه الصلاة والسلام- إلا أن أطاع الحكم ورد الأمانة بكل اعتناء والحزنُ يعتصره، ثم إنه قام بصنع نموذج لآثار قدم النبي عليه الصلاة والسلام المباركة الموجودة على الرخام، ووضعه على عمامته محاولاً الحصول على البركة منها، وهذه الأبيات الخارجة من فؤاد مكتو تعكس لنا حالة عشقه على نحو رائع:

وما الذي كان سيحصل لو

أنني حملته في رأسي كتاج على الدوام

ولتكن قدم النبي الطاهرة

يا أحمد لا تنتظر

وامسح وجهك بقدم ذاك الورد





أرسل السلطان عبد العزيز خان الذي كان يحب الرسول الله ﷺ حباً جماً، رسالة صميمية إلى المدينة المنورة على أن توضع على الروضة الشريفة مخاطباً بالرسالة روحانية الرسول ﷺ، [٨٦] نعرض بعضاً من هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد

والصلاة والسلام عليك يا رسول الله

الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله

الصلاة والسلام عليك يا نبي الله

يا سيدي يا رسول الله الراعي لحق الصحبة، والشعار الأبدي للإحسان والكرم، وصاحب الكلام العظيم، ومنبع فخر الكائنات، سيد الأسياد، شفيعنا، وملجؤنا، يا من حسن كل فعله وكل ما فيه، حتى غبار قدميه يبرق ويلمع، أيها المربي الأعظم لعالم المخلوقات، صاحب الآثار الممتلئة بالفيض الذي ينثر عطره، والكافي حبه جميع المخلوقات، إمام الأنبياء وملجأهم، سيد يوم الدين، وشفيع المذنبين من أمته، وزينة مجلس الوحدة، وزينة إيوان النبوة، وحاكم عرش النبوة، نبي كل حليم سالك طريق الله تعالى، حبيب الله تعالى الرحيم!

سيدي محمد ﷺ المقصود بكل هذه الصفات...

٨٦ وهذه الرسالة موجودة اليوم في دائرة البردة الشريفة في قصر طوب كابي.



لقد تجرأت بترغيم وجهي المسْوَدِّ العاجز بشبكة نوره، وقبره المتألق، وترابه البراق الطاهر كالماء، في توسل وأدب بالكثير من مشاعر الخجل والحياء، وقد تجرّأت بتقديم هذا الالتماس الذي يعبّر عن الحزن المرصوف والذي كتبته بمشاعر الحياء والاحترام، على عتبته التي تنثر الروائح الزكية، بجبيني المذنب الذي يستحق العقاب...

والحمد لله أن وفقني لأن أكون من أمة كاملة، بالولاء والإخلاص والشرف والوفاء لبدر الأقمار في عالم الملكوت، والشمس التي تستمد شمس الدنيا منها نورها وفيضها، وحبيب الله تعالى الذي يهب الدنيا كلها من كرمه وبركته، وخليل الله الرحيم الوهاب، وسطان المتقين المستحق لأكمل الحسن والخير.

وآمل بإذن الله أن أحصل على شفاعته عليه الصلاة والسلام العظيمة ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون**﴾ (الشعراء، ٨٨)، وسأقر وأعترف بكل ما ارتكبه هذا المذنب العاصي عبد العزيز خان غازي بن محمود خان من ذنوب ومعاص، والذي لم يكتسب شيئاً سوى العصيان في يوم الحساب، لأجل لقائك في جنة النعيم مع أول الداخلين، مع أمتكم التي لا تنفك تدعو متضرعةً، وقد سمحت لنفسي بتقديم هذا الالتماس المليء بالحزن إلى بابكم الذي يفيض بالرحمة، وطلباً لشفاعتكم يا رسول الله يوم الحساب والجزاء.

أستغفر الله من كل ذنوبي! أستغفر الله أستغفر الله !..

الأمان الأمان يا رسول الله! لا تردني محروماً !..

يا أبا الزهراء فاطمة ﵂، عليك صلاة الله وسلامه!

يا جد الحسنين عليك صلاة الله وسلامه!

يا سيد الأولين والآخرين! عليك صلاة الله وسلامه![٨٧]



وقد أمر السلطان عبد العزيز خان الثاني، الذي أنشأ خط السكك الحديدية، كي يسهل للمسلمين الذهاب للحج والعودة منه، ببناء محطات في الأماكن نفسها التي كان النبي عليه الصلاة والسلام قد استراح فيها في أسفاره، كي تكون السكة الحديدية هذه ملائمة للسنة السنية، وبهذا يكون قد أوصل السكك الحديدية إلى المدينة في إطار من تدفقات المحبة.



ثم إن النعوت والقصائد التي بين الشعراء فيها حبهم لرسول الله ﷺ، من الكثرة حيث كونت المجلدات، وكم هو جميل ما يقوله الشاعر نبي في هذا الشأن: إن تجرأت في مديحك فلأن الكثير من المخلوقات -حتى الجمادات منها كالشجر والحجر والنبات والجماد- تكلمت بين يدي حضرتك.



---

٨٧ حلمي آيدن، صالة البردة الشريفة والأمانات المقدسة، اسطنبول ٢٠٠٤، ص: ٢٧٢ ـ ٢٧٥.



وفي الحقيقة فإنه حتى الحيوانات والنباتات ظهر عليها حب النبي عليه الصلاة والسلام بين الحين والآخر، وإحدى الأمثلة على ذلك ما رواه لنا سفينة مولى النبي عليه الصلاة والسلام: قال:

«كنت في البحر فانكسرت سفينتنا فلم نعرف الطريق، فإذا أنا بالأسد قد عرض لنا، فتأخر أصحابي فدنوت منه، فقلت: أنا سفينة صاحب رسول الله ﷺ، وقد ضللنا الطريق، فمشى بين يدي حتى أوقعنا على الطريق، ثم تنحى ودفعني كأنه يريني الطريق، ثم جعل يهمهم فظننت أنه يودعنا».[٨٨]



وباختصار، فثمة الكثير من الكلام الذي يقال والأمثلة التي لا تنتهي حول محبة أمة رسول الله عليه الصلاة والسلام، نحن لم نعرض إلا بعض النماذج التي هي كقطرة في بحر.

وثمة شيء نعلمه حق المعرفة ألا وهو أن الروحانية في العبادات، والنزاهة في المعاملات، والسماح في الأخلاق، واللطف في القلوب، والملاحة النورانية في الوجوه، والسلاسة في الألسنة، والدقة في العواطف، والعمق في النظرات، وكل المحاسن، ما هي إلا بريق منعكس على القلوب من نور محبة خير الخلق سيدنا محمد ﷺ، فهو نبع الرحمة والمحبة الوحيد الذي سيوصلنا إلى

---

٨٨ الحاكم، ٣، ٧٠٢/ ٦٥٥٠؛ عبد الرزاق، ١١، ٢٨١ ـ ٢٨٢؛ الطبراني، ٧، ٩٤.



بحر محبة الله تعالى، وهذا بحيث يكون حب النبي حباً لربه تعالى، وطاعته طاعة لله تعالى، وعصيانه عصيان لله تعالى.

تفضل الحق تعالى على قلوبنا بحظ عَلِيٍّ من روح سيدنا محمد المرشد الوحيد للصراط المستقيم، وأكرمنا سبحانه بندى الفيض لقلوبنا من روحانيته الواسعة، وجعل قلوبنا منزلاً أبدياً لحب الله ورسوله، وأكرمنا الحق تعالى جميعاً بشفاعته العظيمة! آمين!..

عبد دخيلك على أعتابك يا رسول الله!..

يرجو مددك يا رسول الله!..

ويأمل شفاعتك يا رسول الله!..

ج . محبة المسلم لأخيه المسلم.

عندما يفيض قلب العبد بحب الله تعالى فإنه يحب كل من يحبُّه الله تعالى، فيحب خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ، ويحب أولياء الله تعالى، ويحب كل مخلوق بقدر حب الله تعالى له، من خلال اشتمال الحب لهم جميعا بتوسعه على مراحل، وحلقة حب كهذه في التوجه إلى الله تعالى تكون منبع شفاء ورحمة للأرواح، وعلى هذا فيلزم المؤمنين عدم الخروج عن حلقة الرحمة والمحبة في مناسباتهم فيما بينهم، إذ أن هذا هو طريق ونتيجة حب الله تعالى والتمكن من التقرب إليه.



يبين الحق تعالى في قرآنه الكريم أن المؤمنين إخوة،[٨٩] كما يعلمنا النبي عليه الصلاة والسلام أنه لن يكون هناك إيمان كامل دون أن يرتبط المؤمنون بإخوانهم في الدين برابط متين من المحبة، وقد أوصى عليه الصلاة والسلام أمته لتمكين هذه المحبة فيهم بإفشاء السلام بين بعضهم.[٩٠]

محبةُ المؤمنين فيما بينهم خصلة حميدة ترضي الله تعالى، وسعادة الدارين مرتبطة بهذا الحب، يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».[٩١]

ويقول تعالى أيضاً:

«المتحابون فيَّ جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيُّون والشهداء[٩٢]**».**[٩٣]

---

٨٩ الحجرات، ١٠.

٩٠ انظر: مسلم، الإيمان، ٩٣ ـ ٩٤.

٩١ مسلم، البر، ٣٧/ ٢٥٦٦.

٩٢ وحسب شروح الحديث فإن الغبطة هنا لا تعني أفضلية هذه الفئة على الأنبياء والشهداء، وإنما بيان فضل المتحابين فيه تعالى وعلو حالهم ومنزلتهم بأسلوب يفيد التأكيد.

٩٣ الترمذي، الزهد، ٥٣/ ٢٣٩٠.

وفي حديث آخر يخبرنا الحق تعالى أنه سيظل في ظله يوم القيامة إذ لا ظل إلا ظله يومها المتحابين في الله يلتقون فيه ويفترقون عليه، فيقول في الحديث:

«...ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه...»[٩٤]

ومما لا شك فيه أن الأخوة هنا تشمل الأوقات العصيبة الصعبة.

وأما خصام المؤمنين وهجر بعضهم بعضا فهو سلوك سيء لا يوصى به في أي حال من الأحوال، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يردَّ عليه فقد باء بالإثم».[٩٥]

«من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه».[٩٦]

«تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا».[٩٧]

---

٩٤ البخاري، الأذان، ٣٦/ ٦٦٠.

٩٥ أبو داوود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٢.

٩٦ أبو داوود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٥.

٩٧ مسلم، البر، ٣٥ـ ٣٦/ ٢٥٦٥؛ أبو داوود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٦.



صور الفضيلة

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

«أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: إني لأحبك يا معاذ، فقلت: وأنا أحبك يا رسول الله، فقال: فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». [٩٨]

يا لها من صورة حب رائعة!.. يحب النبي عليه الصلاة والسلام معاذاً أخاً في الدين رضي الله عنه، ويقدم له وصية تفيده علامة على حبه له.



قال عليه الصلاة والسلام:

«يا أيّها النَّاس، اسْمعوا واعْقلوا واعْلموا أَنَّ لِلَّه عِبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النَّبيُّونَ والشّهداء على مَجالِسهمْ وقُرْبهمْ مِنَ اللَّهِ»

فجثى رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله انعتهم لنا حلمهم لنا، يعني صفهم لنا، شكلهم لنا فَسُرَّ وجه رسول الله ﷺ، لسؤال الأعرابي فقال رسول الله ﷺ:

---

٩٨ أحمد، ٥، ٢٤٤-٢٤٥؛ أبو داوود، الوتر، ٢٦؛ النسائي، السهو، ٦٠؛ الترمذي، الزهد، ٣٠

«هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، ثم تلا هذه الآية:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس، ٦٢ ـ ٦٤) ».[٩٩]



وعن أبي إدريس الْخولانيِّ، أنّه قال:

«دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب براق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه، وصدروا عن قوله، فسألت عنه، فقيل هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال:

٩٩ أحمد، مسند، جـ٣٧، ص ٥٤١، أبو داوود، السحر، ٧٦/ ٣٥٢٧.



أالله؟ فقلت: أالله. قال: فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه، وقال: أبشر فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

"قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين فِيَّ"».[١٠٠]



وينقل لنا النبي ﷺ حديثاً في صدد بيان أن المحبة في الله تجعل صاحبها ينال محبة الله تعالى فيقول:

«أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه ».[١٠١]



وعَنْ أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كُنَّا جُلوسا مع رسول الله ﷺ فقال: **"يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة"** فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ، مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان اليوم الثالث،

١٠٠ الموطأ، الشعر، ١٦.

١٠١ مسلم، البر، ٣٨/ ٢٥٦٧؛ أحمد، ٢، ٢٩٢.



قال النبي ﷺ، مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت؟ قال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله ﷻ وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثم، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: "**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**" فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ، فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق».[١٠٢]

هذا هو فؤاد مؤمن ينظر إلى جميع المؤمنين بعين الأخوة الحقة، ويعاملهم بالفضيلة...



---

١٠٢ أحمد، ٣، ١٦٦/١٢٦٩٧.

ويوضح لنا الزبير بن العوام ﷺ صورة للأخوة في أحد يتعذر بلوغها فيقول:

«أنه لما كان يوم أحد أقبلت أمي صفية وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما، قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فعل به كما فعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفِّن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما فكفّنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له».[١٠٣]

يا لها من صورة رائعة تعرض لنا تجاوز الأخوة الإسلامية كل تعصب لقرابة أو نسب...



ثم إن ابن عمر ﷺ يبين لنا في كلماته التالية رقي أخلاق الصحابة في عصر النبوة إذ يقول:

«أتى علينا زمان وما يرى أحد منا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم، أتى علينا زمان الدينار والدرهم أحب إلينا من أخينا المسلم».[١٠٤]



---

١٠٣ أحمد، ١، ١٦٥.

١٠٤ الهيثمي، ١٠، ٢٨٥.



فعلى المؤمن أن يكون مهتماً بإخوانه المسلمين، يفكر فيهم، ويشاركهم همومهم، حتى إنه يلزمه التفكير بهم أولاً قبل نفسه، وقضاء حوائجهم، ويمكن مشاهدة إحدى أجمل صور ذلك في سلوك داوود الطائي، حيث قالت له جاريته يومًا: يا داود، لو طبخت لك دسمًا؟ فقال لها: افعلي، فطبخت له طعامًا شهيًا، ثم جاءته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: هم على حالهم، قال: اذهبي بهذا الطعام إليهم، لأنني اذا أكلته استحال قمامة، أما اذا أكله هؤلاء الأيتام فيكون عند الله مذخورًا.



فمن كان صاحباً لله تعالى يكون صاحباً لجميع المخلوقات، وبالأخص إخوانه في الدين، فعلى المؤمن النظر إلى إخوانه بعين الشفقة والرحمة الإلهية، حيث يقدم لهم حباً عميقاً، ويعظم هذا الحب في قلوبهم حتى إنه يوقعهم في همّ إنقاذ البشرية جمعاء، وقد كان المثل الأعلى للصحبة فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام، يدعو لأهل الطائف بالخير وهم يرمونه بالحجارة.

وقد قال حبيب النجار الذي تتحدث عنه سورة يس في الصفحة الثانية منها، بعدما رفعت له الحجب الإلهية وأغلقت دونه الحجب الدنيوية، مشفقاً على الذين يرجمونه بالحجارة:



﴿...قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١٠٥)

وهذا يعرض لنا شفقة ورحمة مؤمن يريد الخلاص حتى لقومه الذين قتلوه.



يقول أبو الحسن الخرقاني، من قبيل التحدث بالنعمة أثناء التعبير عن شعوره حيال الأخوة الإسلامية:

«لو وغزت شوكة أحد في الأرض الواقعة بين تركمنستان والشام فكأنها وخزت إصبعي أنا، ولو أصاب حجرٌ قدمَه فكأنه أصاب قدمي، إذ أشعر بألمه فيّ، وأي قلب حزن فهو قلبي».



وقال سهل بن إبراهيم:

«صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضت فأنفق عَلِي نفقته، فاشتهيت شهوة، فباع حماره، وأنفق عليَّ ثمنه، فلما تماثلت، قُلْت: يا إبراهيم، أين الحمار؟ فَقَال: بعناه، فقلت: فعلى ماذا أركب؟ فقال: يا أخي على عنقي، فحملني ثلاث منازل».



---

١٠٥ يس، ٢٦ ـ ٢٧.

سأل السلطان محمد الفاتح بعد فتح اسطنبول بعض رجال دين المسيحية النزهاء المحتجزين في السجون منذ حكم البيزنطيين، عن رأيهم وملاحظاتهم في الدولة العثمانية، فأفادوه أنهم سيعلموه بآرائهم بعد فترة من التحقق والبحث.

فتجول رجال الدين أينما شاؤوا بالفرمان المعطى إليهم، وقصدوا في الصباح الباكر بائع خضرة لشراء بعض الحاجيات، فقال لهم:

«يا أيها السادة، لقد استفتحت، اشتروا من جاري الذي لم يستفتح بعد».

فأوقعتهم صورة الأخوة الإسلامية في حيرة شديدة ... ومهما غُبِطَ هذا الفؤاد العليُّ الخالي من المصلحة الشخصية، المهتم لأخيه بقدر اهتمامه بنفسه فإنه قليل.



والحاصل، يرغب الإسلام من المتآخين في الإسلام أن يكونوا كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، فالصداقة الحقيقية التي تكون لله تعالى، تعني أن يحيا المؤمنان روحا واحدة في جسدين، وهكذا تستمر حياة الذين يحرصون على إيفاء مسؤولية الأخوة في الدين من خلال خدمة دقيقة وتضحية بعد حياتهم الفانية في الدنيا، وهم يذكرون بالرحمة على الدوام، كالمهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين جعلوا عوالم قلوبهم وقفاً ...



ثم إن إظهار شفقتنا ورحمتنا ضمن إطار أخوة إيمانية مفعمة بالمحبة، للباحثين عن سبل الهداية في ظروف عصرنا، وللضعاف واليتامى لَمِن أهمِّ وظائف الأخوة الدينية التي تستجلب رضا الله تعالى.

د . حب جميع المخلوقات

لقد وجدت المخلوقات كلها خدمةً للإنسان وعبرة له، إضافة لكونها أمانة بين يديه في حياة الدنيا هذه، ولذا فإن معاملة الإنسان للمخلوقات كلها بحب ليس إلا وفاء لدين الوجدان والضمير.

فيعيش النحل لكي يقدم للإنسان العسل، ويفني الغنم حياته في سبيل إعطاء الإنسان اللحم والحليب والجلد وولدها، وكذا الكلب والقطة كلاهما مسخران للإنسان طوع أمره، ثم إن مخلوقات كالحية التي هي صورة لتجلي جلال الحق تعالى، ودودة الحريش، والعقرب، هي من جملة النعم التي أكرم بها الإنسان، لتذكيره بالعذاب الإلهي ولما تقوم به من شتى الوظائف المكلفة بها في الطبيعة، وقد وجد كل من الحجر والتراب والشجر والسحاب والجبل والسهل ومازال لأجل الإنسان...

تقول الآية الكريمة تذكر ما تفضل به الله تعالى على الخلق:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٠٦]

١٠٦ الجاثية، ١٣.

وظلم المخلوقات المستعدة لخدمتنا حمقٌ سيلحقنا ضرره، وإيذاء الحيوانات على وجه الظلم وبالٌ ثقيل يلحقنا في الآخرة، يقول في الآية الكريمة:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[١٠٧]

ومن ناحية أخرى فمن إحدى وظائف العبودية محبة المخلوقات لأجل الخالق، فلسائر المخلوقات حق في الدنيا ونعمها، وغصبها حقها يستوجب حساباً عظيماً يوم القيامة.

وكم هو جميل ما يقوله الشاعر الفردوسي في أثره «شيهنامه»:

«لا تؤذ حتى نملة تسحب حبة قوت، لأنها ذات روح أيضاً، وأما الروح فإنه حلو ثمين».

وقد حظر النبي عليه الصلاة والسلام قتل الحيوان عبثاً لغير فائدة، لأنه ذو روح، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث:

«من قتل عصفورا عبثاً عَجَّ إلى الله ﷻ يوم القيامة يقول: يا رَبِّ، إنّ فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة».[١٠٨]

---

١٠٧ الأنعام، ٣٨.

١٠٨ النسائي، الضحايا، / ٤٤٤٦٤٢.



صور الفضيلة

عن ابن مسعود ﵁ قال:

«كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَةً معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، وفي رواية ترفرف على رأس رسول الله ورأس أصحابه، فقال ﷺ:

"من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها"». [١٠٩]



وفي الحديث:

«كان عليه الصلاة والسلام جالساً، وقد اجتمع إليه أصحابه فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله إني لما رأيتك أقبلت إليك، فمررت بغيضة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي، قال: ضعهن عنك فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **"أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها؟"**، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: **"فوالذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها،**

---

١٠٩ أبو داوود، الجهاد ١١٢/ ٢٦٧٥؛ الأدب ١٦٣ ـ ١٦٤.



ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن"، فرجع بهن».[110]



ركبت عائشة رضي الله عنها بعيراً، فكانت فيه صعوبة، فجعلت تردده، فقال لها رسول اللَّه ﷺ:

«عليك بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».[111]



ويبين عليه الصلاة والسلام في المثال الآتي أنه بالإمكان اكتساب رضا الله تعالى بأمور صغيرة نفعلها:

«بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرا؟ **فقال: «نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر»**.[112]



---

١١٠ أبو داوود، الجنائز، ١/ ٣٠٨٩.

١١١ مسلم، البر، ٧٨ ـ ٧٩؛ أحمد، ٢٤٩٣٨.

١١٢ البخاري، الشرب، ٩/ ٦٠٠٩؛ مسلم، السلام، ١٥٣/ ٢٢٤٤.



وعن عبد الله بن جعفر، قال:

«أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسر إلي حديثا لا أحدث به أحدا الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفا، أو حائش نخل، قال: فدخل حائطا لرجل الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال:

"من رب هذا الجمل؟، لمن هذا الجمل؟"

فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال:

"أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه"». [١١٣]



ثم إنه عليه الصلاة والسلام يحذر من إيذاء الحيوانات بالتكلم لهواً بلا فائدة أثناء الجلوس عليها، فيقول:

«إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم». [١١٤]



---

١١٣ أبو داوود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٩.

١١٤ أبو داوود، الجهاد، ٥٥/ ٢٥٦٧.

وقد روي:

«أن رسول الله ﷺ صلى الظهر فوجد ناقة معقولة، فقال:

"أين صاحب هذه الراحلة؟"

فلم يستجيب له أحد، فدخل المسجد فصلى حتى فرغ، وخرج فوجد الراحلة كما هي، فقال:

"أين صاحب هذه الراحلة؟"

فاستجاب له، فقال: أنا يا نبى الله، فقال:

"ألا تتقى الله ﷻ فيها؟ إما أن تعقلها، وإما أن ترسلها حتى تبتغى لنفسها"».[115]

وفي رواية:

«**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**».[116]



وعن سهل بن الحنظلية بن عمرو قال:

«مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهرُه ببطنه، فقال:

"اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة"».[117]



---

١١٥ الطبراني، ١٣٧٤٦.

١١٦ أحمد،٤، ١٨١.

١١٧ أبو داوود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٨.



وروي أن رجلاً أضجع شاةً وهو يحدّ شفرته، فقال له النبي ﷺ:

«أتريد أن تميتها موتات؟ هل حددت شفرتك قبل أن تضجعها».[١١٨]



عن جابر، أن النبي ﷺ مرّ عليه حمار قد وسم في وجهه فقال: **«لعن اللّه الذي وسمه»**[١١٩]، فنهى عنْ ذلك.



«خرج رسول اللّه ﷺ يريد مكة، وهو محرم. حتى إذا كان بالروحاء، إذا حمار وحشي عقير. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال:

"دعوه، فإنه يوشك أن يأتي صاحبه"

فجاء البهزي، وهو صاحبه، إلى النبي ﷺ. فقال يا رسول الله: شأنكم بهذا الحمار؟، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر فقسمه بين الرفاق، ثم مضى، حتى إذا كان بالأثابة بين الرويثة والعرج إذا ظبي حاقف في ظل فيه سهم. فزعم أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس، حتى يجاوزه».[١٢٠]



١١٨ الحاكم، المستدرك، ٤، ٢٥٧، ٢٦٠/ ٢٥٧٠/ ٧٥٧٠.

١١٩ مسلم، اللباس، ١٠٧/ ٢١١٧

١٢٠ الموطأ، الحج، ٧٩؛ النسائي، الحج، ٧٨/ ٢٨١٨.



يقدم النبي عليه الصلاة والسلام لنا صورة رائعة عن معاملة الحيوان بالرفق، وهذا السلوك ليس إلا عبارة عن نمط لمشاهدة المخلوقات بعين الخالق، فيروى أنه لما سار رسول الله عليه الصلاة والسلام بجيشه العظيم -والبالغ عشرة آلاف- من المدينة إلى مكة في عام الفتح، نظر في منتصف الطريق كلبة تهر على أولادها، وهم حولها يرضعون منها، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام رجلا من أصحابه، يقال له جعيل بن سراقة، أن يقوم عندها، حتى لا يتعرض لها ولجرائها أحدٌ من الجيش.[١٢١]



وثمة مثال آخر على الاهتمام بالحيوانات والرفق بها، فيقول أنس بن مالك ﵁ الذي نشأ بتربية رسول الله ﷺ:

«كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبح حتى نحل الرحال».[١٢٢]

ويفيد علماء المسلمين أنه من المستحب إعطاء الحيوانات علفها وطعامها في السفر إن أقام المرء قبل أن يطعم هو إذ يلزمه ذلك.[١٢٣]



---

١٢١ الواقدي، ٢، ٨٠٤.

١٢٢ أبو داوود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٥١.

١٢٣ أبو داوود، السنن، ٣، ٥١.



مر ابن عمر ﷺ بنفر قد نصبوا دجاجة يترامونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر:

«من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا».[١٢٤]



كانت روح أبي يزيد البسطامي تدق وتَرِقُّ من شدة حب الله تعالى، إلى درجة أنه يشعر بألم ومعاناة كل مخلوق مما سوى الله تعالى في قلبه، ويتألم لذلك. فرأى ولي الله هذا يوماً حماراً قد أدميت مؤخرته من الضرب، فبدأ الدم يتسرب من ساقي أبي يزيد البسطامي.

وذات مرة استراح هذا الولي العظيم تحت شجرة أثناء سفره ثم ما لبث أن واصل مسيره، فانتبه لبعض النمل الماشية في الأكياس علقت بها من المكان الذي جلس فيه للاستراحة، فعاد إلى حيث جلس كيلا يفرقها عن موطنها، فوصل المكان ووضع النملات فيه.



يبين نقشبندي الشاه لنا معاملة للحيوانات لا مثيل لها تعتبر المثل الأعلى على النحو التالي:

«لقيت في أيامي الأولى التي كنت في بحث فيها، أمير كول آل وهو من أحباء الله تعالى، وقد كانت حالة الجذب لدي متقدمة، فقال لي: احرص على كسب القلب، واسع في خدمة من الضعفاء، واحم

١٢٤ البخاري، الذبائح، ٢٥؛ مسلم، الصيد، ٥٩/ ١٩٥٨.



الضعاف ومكسوري القلب، فإنه ليس لهم أي دخل من الخلق، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يعيشون ضمن حالة من الطمأنينة القلبية، والتواضع، والضيق، فابحث عنهم وجِدْهُم. فامتثلت لأمر هذه الذات عالية المقام، وعملت لفترة طويلة في الطريق الذي تكلم عنه، ومن ثم أمرني ولي الله ذاك بالاعتناء بالحيوان، كما طلب مني معالجة أمراضها، ولف جراحها وتنظيفها لوحدي، إلى جانب توصيتي بإيجاد النية الحسنة والإخلاص في هذه الأعمال كلها.

وفيت بهذه الخدمة، كما طلب مني تماماً، وقد وصلت الذاتية عندي حداً صرت أقف معه في الطريق، فلو رأيت كلباً أقف حيث أنا، وأنتظر مروره، إذ لا أخطو ولا خطوة واحدة. وبعد هذا أمرني بالاعتناء بالحيوانات بكل محبة واحترام، ومحاولة البلوغ إلى العناية الإلهية من خلال وسيلة الخدمة هذه، إذ قال: ستشعر بسعادة كبيرة عندما تقضي حاجة إحدى تلك الكلاب.

فاتخذت أمره غنيمة لي، ولم أتخلَ عن أي جهد، وفهمت المعنى المتضمن في إشارته، وانتظرت البشرى التي قدمها، وذهبت إلى إحدى هذه الكلاب، وقد بدا عليَّ حال عظيم، فوقفت أمامه، وقد انفلتت عيناي في البكاء، وكأن ذاك الكلب، كقطمير الذي أخذ تأثّر بأصحاب الكهف.

وفيما أنا أبكي نام هو على ظهره، ومد رجليه قبل السماء، وبدأ بعدها بإظهار أصوات حزينة، يرافقه بكاء مع حزن وأنين، ففتحت يدي أنا، وقلت: "آمين"، وهو صمت وأدار وجهه.



وذات يوم من تلك الأيام، خرجت من البيت قاصداً بعض الأماكن، ورأيت في الطريق حيواناً يغير لونه حسب لون الشمس، وقد كان انطوى في حظ معنوي، فأتاني منه حالة من الوجد عظيمة، أوقفتني أمامه بكل أدب واحترام، وقد هممت برفع يدي، فإذا بذلك الحيوان المبارك، ينتقل من حال إلى حال في عالمه الذي غاص فيه، واستقبل بوجهه السماء مستلقياً على ظهره. فكنت أقول وهو على هذه الحالة: "آمين"». (١٢٥)

طلب السلطان سليمان القانوني يوماً من شيخ الإسلام أبي السعود أفندي فتوى في قتل النمل الذي يقضي على أشجار الكمثرى في حديقته، فرد أبو السعود أفندي على طلب الفتوى من قبل السلطان، ببيت واحد قائلاً:

غداً لما تحضر بين يدي الحق　　　تطالب النمل من السلطان بالحق

فرجل -كالسلطان سليمان القانوني القائد الفطن والسياسي المحنك والعالم والأديب- نشأ في تربية معنوية كاملة يفكر حتى في النملة خشية إيذائها.



١٢٥　عبد المجيد الخاني، الحدائق الوردية، ترجمة: عبد القادر آك جيجاك، اسطنبول ١٩٨٦، ص: ٥٤٥ ـ ٥٤٧.

لما توفيت زوجة السلطان برتونيال التي بنت مسجد الوالدة في آك صاراي في اسطنبول، رآها أحد الصالحين في منامه وقد نالت مقاماً حسناً، وسألها: أجعلك الله في هذا المقام لإعمارك بيتاً لله؟ فأجابته: لا، فقال الصالح مندهشا: فأي عمل بلّغك هذا المقام؟ فأجابت والدة السلطان بهذه الكلمات المعبرة: كان يوما ماطراً حين قصدنا مسجد السلطان أيوب للزيارة، فرأيتُ هرّة صغيرة ضعيفة ترتجف في بركة ماء صغيرة أحدثتها الأمطار على حافّة الرصيف، فأوقفت العربة وقلت للأخت التي بجانبي[١٢٦]: اذهبي وهاتي هذه الهرّة المسكينة وإلّا فستختنق، لكن الخادمة لم ترد إحضار الهرة وقالت: لا يا مولاتي، ستتسخ ملابسنا، فنزلتُ من العربة، ودخلت في الطين وأنقذت الهرة، وكانت ترتجف، فآلمني حالها وضممتها إليّ أدفئها، فلم يكد يمضي وقت كثير حتى عادت إلى طبيعتها، فأكرمني الله تعالى بهذا المقام الرفيع لاعتنائي بتلك الهرة ورحمتي بها.

وهكذا فإن خيراً قد يبدو بسيطا وعاديا لكنه يستجلب رحمة الحق تعالى، ويكون سبباً في الكثير من الإكرام واللطائف، ولذا فعلى الإنسان أن لا يرى نفسه مستغنياً عن عمل الخير ولو كان

---

١٢٦ كانت نساء زنجيات تخدمن زوجات السلطان، فيقال لهن: « أخت»، وبما أن السودانيات كن معروفات بالنظافة والشرف والعفة فكن يُطْلَبن خاصة للخدمة في القصر من قِبل العثمانيين.



ضئيلاً ظناً منه عدم أهميته، إذ إنه بحاجة مساعدة معنوية من كل خير كبيراً كان أو صغيراً في الدنيا والآخرة...



ويذكر لنا والدنا موسى أفندي هذه الحادثة التي عايشها فيما يتعلق بصحبة المخلوقات فيقول:

«كنا قد استأجرنا -والأستاذ المحترم سامي أفندي قُدّس سرّه- بيتاً في المدينة المنورة قبل أربعين سنة تقريباً، وكانت البيوت حينها من اللَّبِن، وقد رأينا في الغرفة التي أعددناها له حية ملتوية في زاوية البيت فأصابنا الهلع من غير اختيار منا، لكنه قال في سكون وطمأنينة: دعوا هذه الحية وشأنها، ولا تلمسوها، وبعد حين ذهبت الحية في سبيلها واختفت».



ويقول موسى أفندي رحمه الله تعالى أيضاً:

«كان الوقت موسم حج، وكنا مع الأستاذ المحترم سامي أفندي وأولادِه في منزل عبد الستار أفندي التركمنستاني في منطقة أجياد القريبة من بيت الله الحرام في مكّة المكرمة، وكانت غرفة سامي أفندي تطلّ على الشارع، وأما نحن -رفقاءه- فغرفنا واقعة في القسم الداخلي، وفي وقت صلاة الظهر قصد حضرته باب غرفتنا وقال: يبدو أن ثمة منْ بحاجة إلى الطعام في الخارج، فجهّزت من فوري بعض الطعام وخرجت فلم ألق أحداً، فعدت



إلى الداخل ظناً مني أنه ذهب ولم ينتظر، ولم تمض سوى ثمان إلى عشر دقائق حتى رأينا حضْرته واقفاً على الباب ثانية، وقال: جاء ذاك المحتاج مرة أخرى، وهو ينظر إلى الداخل، فأخذت الطعام مجدداً وخرجت أمام الباب فإذا أنا بكلب جائع مسكين قد مد لسانه من فمه يلتمس منا الطعام، فوضعت الأطعمة أمامه على الفور، فأتى عليها كلّها من شدة جوعه.

هذا ما كان عليه تواضع ولطف الكبار، إذ لم يتحدث حضرة سامي أفندي عن الكلب الجائع باسم جنسه وإنما عبّر بكلمة الشخص، حتى إنه كان في كثير من الأحيان يطلق على الحيوانات اسم عباد الله عوضاً عن المخلوقات، لأنّ المعاملة الحسنة لخلق الله هي في الأصل للحق تعالى، وهذا من حسن القلب السليم».



لقد طلب منّا إسلامنا العظيم -في كل فرصة سانحة وبطرق شتى- معاملة جميع المخلوقات الحيّة وغير الحيّة منها بالحسنى، ومن جملة هذا تحريمه بعض الأمور من قطع للشجر وقلع للعشب والصيد، بل حتى الإشارة إلى الصيد لأجل الصيّاد في منطقة الحرم من مكة، وأثناء الإحرام، حتى إنه قدّر بعض العقوبات المختلفة لمن يخالف ويرتكب المحظورات، وبهذا أراد أن يصل المؤمنون إلى حالة ومكانة روحية ورهافة في الشعور تمنعهم من إلحاق الأذى بالغير، من خلال اجتنابهم الذنوب الصغيرة في منطقة الحرم، فلا يلحقون الضرر بأي عشبة وذي روح.



يكتسب الإنسان بالعبادات في موسم الحج حساسية تسمو به إلى حدٍّ يزول معه الرفث والفسوق والجدال، فلن يقطع حتى عشبة، وسيكون محمياً من الرفث أثناء الطواف والسعي رجالاً ونساءً، ويكون بريئاً من الفسق والجدال بنظره الدائم إلى أمامه حيث يغضّ من بصره ...

واعتناء الإسلام بهذا الأمر غير مختص بمنطقة الحرم وحالة الإحرام، إذ إن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

«**من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار**».[١٢٧]

ولما سئل أبو داود عن هذا الحديث أجاب بقوله:

«هو حديث مختصر، ومعناه: من قطع سدرة في فلاة -يستظل بها ابن السبيل- عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوّب الله رأسه في النار، أي: نكسه».



وفيما يلي حادثة مليئة بالعبرة تصلح مثالاً على اعتناء الإسلام بالمحبة الشاملة للإنسان والحيوان وحتى النباتات:

«عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رجلا، مر به وهو يغرس غرسا بدمشق فقال له: أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟، فقال: لا تعجل علي سمعت رسول الله ﷺ يقول:

١٢٧ أبو داوود، الأدب، ١٥٨-١٥٩/ ٥٢٣٩.



"مَنْ غرس غرسا لم يأكل منه آدمي، ولا خلق من خلق الله ﷻ إلا كان له صدقة"». [128]

ومما لا شك فيه أن عكس هذا الأمر من إيذاء النباتات وسائر المخلوقات تصرّفٌ يستلزم وَبالاً، وقد قال أجدادنا: «من قطع رطباً فكأنما قطع رأساً».



وقد كان عليه الصلاة والسلام يحثّ الناس على غرس الأشجار والمساهمة في نقاء البيئة واخضرارها، وكان قدوة لأصحابه في هذا الشأن هو بذاته، إذ ينقل لنا ابن عباس رضي الله عنه ما يلي:

«مرّ النبي ﷺ على قبرين فقال:

"إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله"

قال: فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحدا، وعلى هذا واحدا، ثم قال:

"لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا"». [129]

فما من شيء إلا ويسبح له سبحانه، حتى الورقة الخضراء تذكر الله تعالى إلا أننا لا نفقه تسبيحها، تقول الآية الكريمة:

---

١٢٨ أحمد، ٦، ٤٤٤/ ٢٧٥٠٦.

١٢٩ مسلم، الطهارة، ١١١/ ٢٩٢.



﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١٣٠)



وباختصار فإن رضا الله تعالى قد يكون في عمل عظيم أو ضئيل، والأمر نفسه في العقاب، وبناء عليه يلزم معاملة جميع المخلوقات بالشفقة والرحمة والمحبة، والمسارعة إلى خدمتها وقضاء حوائجها إن لزم ذلك. فالإسلام يأمر الإنسان بمعاملة جميع الأحياء والناس والحيوانات حتى النباتات بالرحمة والمحبة، إذ على ابن آدم وظائف لكل تلك المخلوقات، فإذاً جمال الإسلام مكنوز في مفهوم هذه المحبة الشاملة للمخلوقات بأسرها والرحمة بها، فَمَثَلُ المسلم كنَهْرٍ جار فياضٍ بالبركة، بخدمته لآلاف المخلوقات من حيوانات وشجر وزهر وطيرٍ، ولن يكون المقام الذي يناله آخرَ المطاف إلا منبع اللقاء والوصال الأبدي.

وكما أنه من المستحيل خلوّ الشمس عن الدفء والنور، فكذا من المستحيل خلو القلوب الكبيرة عن الرحمة للمخلوقات جميعها، فالرحمة درّة إلهية محيطة بالعالم بأسره، والحق تعالى هو مصدر تلك المحبة والشفقة، ومَن حُرِم الرحمة خسر أعظم الخزائن أي مفتاح باب السعادة.

١٣٠ الإسراء، ٤٤.



إنّ أولياء الحق تعالى الواصلين إلى منبع المحبة -بفضل الله تعالى وباتباع رسوله عليه الصلاة والسلام- سيبقون أصحاباً لسائر المخلوقات إلى الأبد، إذ لا يغدون شيئاً من الماضي، فحياتهم ماضية حتى بعد وفاتهم، ويعبّر وليّ الله تعالى يونس إِمْرَه عن هذا بكلام رائع، فيقول:

يُنَادَى أن يونس قد مات   لا يموت العاشق بل الحي مات



٢ . الخوف والرجاء من الله ﷻ

إن إحدى الأوصاف الفارقة للمؤمنين الكُمَّل الخوف من الله ﷻ، والذي ينشأ عن تعظيمهم لله ﷻ ومحبتهم له، وفي الأصل فإن الخوف من الله تعالى هو القلق والحذر من فقداننا -نحن العباد- محبته الأبدية لنا ورضاه علينا، ولذا فإن قلوب المؤمنين اليَقِظَة ترتعد وترتجف خشية منه تعالى عند ذكره، وهذه الحال تستلزم الأحوال العليّة كالأدب والإخلاص والتقوى، يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[١٣١]

١٣١ الأنفال، ٢.



ويقول الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم:

﴿...وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [١٣٢]

والخوف من الله تعالى يزيد كلما ازدادت معرفة العبد بربه تعالى ومحبته له، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«أنا أعرفكم بالله، وأخوفكم منه».[١٣٣]

إن الخائفين من الله تعالى بحق لا يخشون شيئاً غيره، إذ إن خوف الله تعالى هو نور سعادة قلوبهم.

والمؤمنون الذين يخشون ربهم هم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه،[١٣٤] فوعدهم الحق تعالى بجنتين.[١٣٥]

يقول عليه الصلاة والسلام:

«ما من مؤمن يخرج من عينيه مثل رأس الذبابة من الدموع، فيصيب حرَّ وجهه إلا حرّم الله عليه النار».[١٣٦]

---

١٣٢ الحج، ٣٤_٣٥.

١٣٣ البخاري، الأدب، ٧٢؛ مسلم، الفضائل، ١٢٧.

١٣٤ انظر: البينة، ٨.

١٣٥ انظر: الرحمن، ٤٦.

١٣٦ ابن ماجة، الزهد، ١٩.

«لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنمَ».[١٣٧]

«ليس شيء أحبَّ إلى الله من قطرتين وأثرين، قطرةٌ من دموع في خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران، فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله».[١٣٨]

ثم إنّ دموع المؤمنين التي ذرفوها من خشية الله ، هي زينة في الليالي الفانية، ونور في القبور المظلمة، وندى في رياض الجنان.

حفظَنا الحق تعالى وإياكم من قلب لا يخشع أمام حكمة القرآن الكريم وأسراره، ومن عين لا تدمع من خشية الله تعالى.

ويقول الحق تعالى في ذمّ القاسية قلوبهم، المحرومة من الخشوع، فيقول:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١٣٩]

---

١٣٧ الترمذي، الزهد، ٨/ ٢٣١١.

١٣٨ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢٦/ ١٦٦٩.

١٣٩ البقرة، ٧٤.



يقول الحبيب الأكرم:

«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».[١٤٠]

إنّ من لا يخش الله تعالى أقل رتبة عن الحيوانات والجمادات، وقد قال أجدادنا: «خفْ ممن لا يخاف الله تعالى»، ومما لا يخفى أن عاقبتهم يخشى منها، إذ إن قسوة قلوبهم وظلمة غفلتهم ولامبالاتهم تنزهت عنها الجمادات.

وقد أوضح لنا البيان الإلهي تحوّل الكائنات التي نحسبها جامدة من حال إلى حال من جراء خشية الله تعالى، فيقول في إحدى الآيات التي تبين هذه الحقيقة:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٤١]

١٤٠ مسلم، الذكر، ٧٣/ ٢٧٢٢.

١٤١ الحشر، ٢١. والمقصود من التمثيل في هذه الآية، إبراز أهمية محتوى القرآن الكريم، والمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتق الإنسان المخاطب به، ثم إنه من الممكن فهم هذا المعنى أيضاً هنا: لو أعطي الجبل حساً كالإنسان، لانحنى مثال الهيبة والعظمة هذا من خشية نتيجة معرفة صفات الله تعالى والشعور بالمسؤولية، أمام عظمة الحق تعالى وقدرته وحاكميته المطلقة على الكائنات بخشية وتعظيم لا متناهيان. ولا يكتف عند

فيجب أن يجتمع في قلب المؤمنين الخوف من الحرمان من محبة الله تعالى والوقوع في عذابه، مع الأمل في الحصول على رحمته الدائمة، أي إن على قلب المؤمن أن يرتجف بين مشاعر الخوف والرجاء، وهذه الموازنة بين مشاعر الخوف والرجاء يعبَّر عنها بـ "**بين الخوف والرجاء**"، فعلى المؤمن المحافظة على هذا الانسجام القلبي حتى يأتي الموت، وذلك من خلال الدعاء الدائم والتضرع والالتجاء إليه سبحانه، تقول الآيات الكريمة:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٤٢]

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[١٤٣]

هذا القدر بل يتفتت ويتشقق في سبيل أن يكون عبداً لله تعالى، إلا أن الناس يقضون أعمارهم لكي لا يشعروا بالمسؤولية المهمة الملقاة على أكتافهم عموماً، وفي إفناء للعمر في الغفلة. ومن الضروري للإنسان كي يتمكن من أخذ نصيب من خشية الله ومحبته، تجنيب عالمه الداخلي من الفجور وتزيينه بحياة التقوى.

١٤٢ الأعراف، ٥٦.

١٤٣ الإسراء، ٥٧.



يقول نبينا عليه الصلاة والسلام:

«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد».[١٤٤]

«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك».[١٤٥]

ومن هذا المنظور فإنّ طريق السعادة والسلامة الأبدية يمرُّ عبر المحافظة على توازن مشاعر الخوف من الله والرجاء له متناسقةً في القلب، كما أن المحبّ يعيش في خوف دائم من الإساءة لمحبوبه، وقلق مستمر من فقدان محبته له، فكذا المؤمن عليه أن يخشى من فقدان محبة الله تعالى، إلا أنه عليه ألا يقطع أمله في رحمته.

صور الفضيلة والعبر

يقول أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا، قال:

"نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء"».[١٤٦]



١٤٤ مسلم، التوبة، ٢٣/ ٢٧٥٥.

١٤٥ البخاري، الرقاق، ٢٩/ ٦٤٨٨.

١٤٦ الترمذي، القدر، ٧/ ٢١٤٠.



تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«لما نزلت آيات ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾(١٤٧)

قلت: يا رسول الله، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟

قال: **"لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم "**».(١٤٨)

على المؤمن أن لا يثق بأعماله وما قام به من الخير، فما من مَخْلَص ولا منجى إلا بالالتجاء إلى رحمة الله تعالى.



كان سهيل بن عمرو خطيب قريش، وكان يعادي ويسب الإسلام على الدوام، فأُسِر في غزوة بدر، فقال عمر رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم:

« يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبدا، فأجابه رسول الله:

"لا أمثِّل به، فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً"،

ثم أدنى عمر رضي الله عنه منه وقال صلى الله عليه وسلم:

"إنّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه"».(١٤٩)

---

١٤٧ المؤمنون، ٦٠-٦١.

١٤٨ الترمذي، التفسير، ٢٣/ ٣١٧٥؛ ابن ماجة، الزهد، ٢٠.

١٤٩ ابن هشام، ٢، ٢٩٣.



علّمنا النبي عليه الصلاة والسلام بفعله هذا أنه علينا الخوف من الله تعالى ومِنْ تصرُّفٍ يستجلب عذابه.

ولما توفي الرسول وقعت البلبلة في صفوف مسلمي مكة –لما رأت قريش من ارتداد العرب– فقام سهيل بن عمرو خطيباً ناصحاً لقومه ومذكراً لهم بوجوب الثبات على الإسلام، فقال:

«يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتدّ، واللهِ إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما في ظلام طويل....».

وبعدما فرغ من خطبته ثبتت قريش على الإسلام، ولما سمع عمر بن الخطاب ﵁ خطبة سهيل قال:

«أشهد مرة أخرى أنك رسول الله يا رسول الله يا رسول الله، (فلم يزل يرددها)» [١٥٠]



وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت:

«كان النبي ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم عُرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرَّ به وذهب عنه ذلك، فسألته، فقال:

"إني خشيت أن يكون عذاباً سُلّط على أمتي"». [١٥١]

---

١٥٠ ابن هشام، ٤، ٣٤٦؛ الواقدي، ١، ١٠٧؛ البلاذوري، ١، ٣٠٣ـ ٣٠٤؛ ابن عبد البر، ٢، ٦٦٩ ـ ٦٧١؛ الحاكم، ٣، ٣١٨/ ٥٢٢٨.

١٥١ مسلم، الاستسقاء، ١٤ ـ ١٦/ ٨٩٩.



إن رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بأمته أكبر من رحمة الوالدين بأولادهما، يقول الحق تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [١٥٢]

وقد بيّن النبي ﷺ أنه لم يتمّ تخويف أحد من الناس كمثله، ولم يتعرض أحدٌ إلى أذى ومشقة وجوع، [١٥٣] وقد تحمّل كل هذه المشاقّ في سبيل إرجاع عباد الله إلى طريق الله ﷻ، ولم يشتك النبي ﷺ من هذه الحال أبداً، بل إن خلاص إنسان واحد عنده كان خيرا له مما طلعت عليه الشمس وغربت، فلما رمي بالحجارة في الطائف وأدميت قدماه، حزن إلا أن بلوغ عبدٍ –وهو عداس– الهدايةَ أسرَّ قلبه.



يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«كنت عند رسول الله ﷺ فنزلت:

﴿... مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١٥٤]، فقال رسول الله ﷺ:

"يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت عليّ"

---

١٥٢ التوبة، ١٢٨.

١٥٣ انظر: الترمذي، القيامة، ٣٤/ ٢٤٧٢.

١٥٤ النساء، ١٢٣.



قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأقرأنيها، فلا أعلم إلا أني وجدت انقسامًا في ظهري فتمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ:

"ما شانك يا أبا بكر؟"

قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءًا! وإنا لمجزيون بأعمالنا؟ فقال رسول الله ﷺ:

"أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة"».[١٥٥]



وفيما يلي مثال مليء بالعبرة يعكس خشية أبي بكر لله تعالى، فقد خرج مرة رضي الله عنه يتنسم الهواء اللطيف، فكان يشاهد آلاف تدفقات القدرة الإلهية التي يقدمها الله تعالى لعباده كي يتعظوا، فلمّا وقع نظره على طائر على شجرة قال:

«طُوبَى لك يا طائر، تأكل الثمر، وتقعُ على الشّجر، وما من حساب ولا عقاب عليك، لوددتُ أنّي شجرة على جانب الطريق، مرّ عَلَيّ جَمَلٌ فَأكلني، وأخرجني في بَعْره، ولم أكُنْ مِنَ البَشَرِ».[١٥٦]



---

١٥٥ الترمذي، التفسير، ٤/ ٣٠٣٩.

١٥٦ ابن أبي شيبة، ٦٢، ١٤٤.



وقد روي أيضاً عن أبي بكر ﷺ أنه ذكر ذات يوم القيامة والموازين والجنة والنار، فقال:

«وددت أني كنت خضراء من هذه الخضر، تأتي على بهيمة تأكلني، وأني لم أخلق، فنزلت:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (١٥٧)». (١٥٨)



ذات يوم أمر أبو بكر الصديق ﷺ بصدقات الإبل أن تقسم على الناس، فلما حضرت قال: لا يدخل علينا أحد إلا بإذن، وبينما هم كذلك، قالت امرأة لزوجها: خذ هذا الحبل واذهب إلى أبي بكر ﷺ، لعل الله يرزقنا جملا، فأتى الرجلُ أبا بكر ﷺ، فوجده قد دخل إلى الإبل، وبدأ في تقسيمها، فدخل إلى أبي بكر ﷺ، فلما رأى أبو بكر ﷺ الرجلَ قال غاضباً: من أدخلك علينا؟ فأخذ منه الحبل وضربه به، وعندما فرغ أبو بكر ﷺ من تقسيم الإبل دعا بالرجل فأعطاه الحبل، وقال: اقتص مني، فقال عم: والله لا يقتص، لا تجعلها سنة، فقال أبو بكر ﷺ: فمن لي من الله يوم القيامة؟ فقال عمر: أرضه . فأعطاه أبو بكر ﷺ راحلة وقطيفة وخمسة دنانير، وأرضاه بها، ورجع إلى امرأته سعيداً راضياً .(١٥٩)

---

١٥٧ الرحمن، ٤٦

١٥٨ السيوطي، لباب النقول، ٢، ١٤٦؛ الآلوسي، ٢٧ ، ١١٧ .

١٥٩ علي المتقي،كنز العمال، ٥، ٥٩٥ _ ٥٩٦/ ١٤٠٥٨ .



وروي أنذ فتى من الأنصار دخلته خشية من النار، فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فجاءه في البيت، فلما دخل عليه اعتنقه الفتى وخر ميتاً، فقال النَّبِيُّ ﷺ:

«جَهِّزُوا صاحبكم فإن الْفَرَقَ من النّار فلذ كبده، والذي نفسي بيده لقد أعاذه الله منها، من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه» (١٦٠)



يقول القاسم رحمه الله:

«كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رضي الله عنها فأسلِّم عليها، فغدوت يوماً، فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ:

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (١٦١)

وتدعو وتبكي وترددها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي». (١٦٢)



---

١٦٠ علي المتقي، كنز العمال، ٣، ٧٠٨/ ٨٥٢٦؛ الحاكم، ٢، ٥٣٦/ ٣٨٢٨.

١٦١ الطور، ٢٧.

١٦٢ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢، ٣١.



يقول ابن أبي مليكة رحمه الله:

«أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى على نفسه من النفاق، لا يقول إنه على مثل إيمان جبريل أو ميكائيل». [١٦٣]



وعن حنظلة الأسيدي -وكان من كتاب رسول الله ﷺ- قال:

«لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **"وما ذاك؟"** قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ:

"والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكْرِ، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلَة ساعةً وساعةً" ثلاث مرات». [١٦٤]

---

١٦٣ البخاري، الإيمان، ٣٦.

١٦٤ مسلم، التوبة، ١٢/ ٢٧٥٠.



وكما اتضح فإن الصحابة الكرام كانوا على محاسبة دائمة للنفس، إذ كان قلقهم الأول -رغم مشاقّ الحياة كلها- أن يصيب قلوبهم مرض أو داء من أدواء الدنيا.



كان عمر رضي الله عنه يسير بجانب أحد بيوت الصحابة فسمع هذه الآية:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾[١٦٥]

فسقط، فحملوه إلى البيت يعودونه شهراً لا يعلمون مابه.[١٦٦]



قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة أجمعون إلا رجل واحد، لخفت أن أكون هو، ولو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون النار أجمعون إلا رجل واحد لرجوت أن أكون هو». [١٦٧]

إن حالة المؤمنين الروحية من التوازن بين الخوف والرجاء، هي ما تصف به الآية الكريمة المتقين بأنهم:

---

١٦٥ الطور،٧ـ٨.

١٦٦ ابن رجب الحنبلي، التخويف من النار، دمشق ١٩٧٩، ص: ٣٠.

١٦٧ علي المتقي، ١٢، ٦٢٠/ ٣٥٩١٦؛ إضافة إلى هذا يمكنكم الاطلاع. ابن رجب الحنبلي، التخويف، ص: ١٥.



﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (١٦٨)



وقد كان عمر ﵁ يندب نفسه، فقد روي أنه أخذَ ﵁ تِبْنَةً، فقال: «ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئا، ليتني كنت نسيا منسيا». (١٦٩)



وكان علي ﵁ إذا توضّأ ارتجف، فإذا سئل عن ذلك قال: «الآن أحمل الأمانة التي عرضت على السماء والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها .... وحملتها أنا».



وكان الحسن بن علي ﵄ إذا دخل في الصلاة -وفي رواية أثناء الوضوء- ارتعش واصفر لونه.. فإذا سُئل عن ذلك قال: أتدرون بين يدي من أقوم الآن؟.

وكان إذا أتى باب المسجد رفع رأسه، وقال: إلهي عبدُك ببابِك، يا محسنُ قد أتاك المسيء، وقد أمرتَ المحسنَ منّا أن يتجاوز عن

---

١٦٨ السجدة، ١٦.

١٦٩ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣، ٣٦٠ـ ٣٦١.



المسيء، فأنت المحسن وأنا المسيء، فتجاوَزْ عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم.



كان لأبي بكر الورّاق ولد صغير، يتلقى دروساً -عند أحد الشيوخ- في القرآن الكريم، وذات يوم رجع من الكُتَّاب باكراً يرتجف، ووجهه شاحب مصفَّر، فسأله أبو بكر الوراق وقد وقع في حيرة مما رأى: خيراً يا ولدي، ما الذي أصابك، ولِمَ عدت باكراً من الكتَّاب؟، فأجابه ولدُه بوجهٍ كورقة خريف من خشية الله التي عششت في قلبه الصغير: يا أبتي، لقد علّمني شيخي اليوم آية من القرآن الكريم، حين أدركت معناها أصابني ما ترى، فقال والده: يا بني، وما هي الآية الكريمة، فبدأ الولد الصغير بقراءتها:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧٠)

ثم ما لبث الفتى الصغير أن مرض من هيبة وعظمة هذه الآية الكريمة، ولازم الفراش، ولم يمض وقت كثير حتى فارق الحياة.

فتأثّر أبوه بهذه الحادثة أشدّ التأثر، حتى إنه كان كثيراً ما يذهب إلى قبر ولده ويحدث نفسه باكياً فيقول:

«يا أبا بكر، لقد تعلم ابنك آية من القرآن فارقت روحُه بعدها الحياة من خشية الله، وأنت منذ متى تقرأ القرآن لكن خوفك لم يبلغ خوف ولد صغير!».

---

١٧٠ المزمل، ١٧.



ما من شكٍّ في أن هذه الحادثة تعرض لنا الحساسية الإيمانية لطفل صغير تفضّلَ الحقُّ ﷻ عليه بأن أكرمه بشفافية ورقة في قلبه، إلا أنها تُشير إلى خشية الله ﷻ التي ينبغي علينا التحلّي بها أمام العظمة الإلهية مع وجوب تلاوتنا لكلام الله ﷻ بتفكر ورقّة قلبية، ويبين الحق ﷻ سبيل الوصول إلى هذه الحالة في القرآن الكريم بقوله:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١٧١]

وبناء على هذا فإن العلم الحقيقي عند الحق تعالى، هو الذي يجرّ صاحبه إلى مشاعر التقوى والخشية أمام الله تعالى، أي معرفة الله تعالى، وأما للوصول إلى هذا العلم فينبغي مراعاة الأمور التالية التي أوضحتها الآية الكريمة:

١. الخلوة مع الله تعالى في الليالي والأسحار بقيامها وكثرة السجود فيها.
٢. تذكر الموت والدار الآخرة والتفكر في أحوالهما وأهوالهما في كل لحظة.
٣. ملازمة الدعاء والالتجاء لله تعالى أملاً في رحمته، إذ إن الأرواح العظيمة لا تفتر عن الدعاء أبدا.

---

١٧١ الزمر، ٩.



قال منصور بن عمّار رحمه الله:

«خرجت ليلة من الليالي وظننت أن النهار قد أضاء فإذا الصبح علا فقعدت إلى دهليز يشرف، فإذا أنا بصوت شاب يدعو ويبكي وهو يقول: اللهم وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولكن عصيتك إذ عصيتك بجهلي وما أنا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض، ولا بنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي وأعانني عليها شقوتي وغرني سترك المرخي علي فقد عصيتك وخالفتك بجهلي فمن عذابك من يستنقذني، ومن أيدي زبانيتك من يخلصني، وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني، واسوأتاه إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا، فيا ليت شعري مع المثقلين أحط أم مع المخفين أجوز، ويحي كلما طال عمري كثرت ذنوبي ويحي كلما كبر سني كثرت خطاياي فيا ويلي كم أتوب وكم أعود ولا أستحي من ربي. قال منصور: فلما سمعت كلام الشاب وضعت فمي على باب داره وقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: إن الله هو السميع العليم: ﴿**نارا وقودها الناس والحجارة**﴾[١٧٢]. قال منصور: ثم سمعت للصوت اضطرابا شديدا وسكن الصوت. فقلت: إن هناك بلية فعلمت على الباب علامة ومضيت لحاجتي، فلما رجعت من الغداة إذ أنا بجنازة منصوبة وعجوز تدخل وتخرج باكية، فقلت لها: يا أمة الله من هذا الميت

١٧٢ التحريم: ٦.



منك؟ قالت: إليك عني لا تجدد علي أحزاني قلت: إني رجل غريب أخبريني. قالت: والله لولا أنك غريب ما خبرتك هذا ولدي من موالي رسول الله ﷺ، وكان إذا جن عليه الليل قام في محرابه يبكي على ذنوبه، وكان يعمل هذا الخوص فيقسم كسبه ثلاثا، فثلث يطعمني وثلث للمساكين وثلث يفطر عليه فمر علينا البارحة رجل لا جزاه الله خيرا فقرأ عند ولدي آيات فيها النار فلم يزل يضطرب ويبكي حتى مات رحمه الله. قال منصور: فهذه صفة الخائفين إذا خافوا السطوة، يقول منصور بن عمار فقلت: أيتها المرأة إن ولدك قد دخل الجنة، لأنه لا يدخل النار من يبكي من خشية الله تعالى، فهل يدخل النار من مات على هذه الحالة؟ احمدي الله تعالى».



كان السلطان يافوز سليم خان مشهورا بشدة غضبه إلى أقصى الحدود أمام الأخطاء، إلا أن جلاله هذا كما جماله يذوب في دائرة أوامر الله تعالى ويختفي، حيث كانت خشية الله لديه تطغى على كل شيء، وذات مرة أمر بقتل أربعين شخصا تقريباً بسبب السرقة التي حصلت نتيجة إهمالهم، فلما علم شيخ الإسلام زنبيللي علي أفندي بالأمر، قصد السلطان مسرعاً قبل تنفيذ القرار ومن دون طلب إذن الحضور بين يديه، بقصد أن يحوْل دون تنفيذ الأمر، واستمع إلى القصة من السلطان، فردّ عليه السلطان بجواب قاسٍ قائلاً:

«يا حضرة الأفندي، صحيح ما سمعتموه لكنٍ ليس لكم الحق في التدخل بأمور الدولة...»



وبنفس الحدّة أجابه شيخ الإسلام زنبيللي علي:

«يا مولاي، إنما أتيتكم لأبيّن لكم الأحكام الشرعية، فنحن مكلفون بحماية آخرتكم...».

فسأل السلطان يافوز سليم وقد هدأ أمام أحكام الإسلام التي هي أدق من الشعرة وأحدّ من السيف:

«أمَا مِن جوازٍ لموت البعض في سبيل إصلاح الأحوال العامة؟»، فأجابه الشيخ: ما من علاقة بين صلاح الناس وموت هؤلاء، وإنما يعاقبون حسب أخطائهم...».

فطأطأ السلطانُ -الذي أخضع الجيوش العظيمة- رأسَه، وتراجع عن قراره، وبينما كان زنبيللي الذي سعِد بهذا على وشك مفارقة مجلس السلطان إذا به يرجع ويقول للسلطان الذي ينظر إليه بفضول:

«يا مولاي، لم يكن طلبي الأول إلا تبليغ حكم ديننا، وثمة طلب ثان ليس إلا رجاء: مولاي! إن ذنوب هؤلاء المجرمين عليهم، فمن لعوائلهم المسكينة؟ ولذا لي رجاء منكم أن تجعلوا نفقةً لأسر هؤلاء المجرمين حتى ينقضي الجزاء الذي سيلاقونه بالحبس».[١٧٣]

وليس هناك أدنى شك في أن تحقيق السلطان للطلب الثاني أيضاً ما هو إلا القيام بموجب المسؤولية الإلهية التي كان مدركا لها.



١٧٣ انظر: مصطفى نوري باشا، نتائج الوقوعات، أنقرة ١٩٨٧، ج. ١-٢، ص: ٩٠-٩١.



وثمة حادثة أخرى حذّر فيها زنبيللي علي أفندي السلطانَ، فكان رد السلطان -الذي يعتقد أنه على صواب فيما قرره- على شيخ الإسلام أن قال له: «ليس من شأنكم التدخل في أمور الدولة»

فأجاب زنبيللي علي على هذا الخطاب المهدِّد بجرأة:

«مولاي! إن هذا من شؤون الآخرة، ولنا الحق في التدخل بها، وفي حال لم تتراجعوا عن القرار الخاطئ الذي اتخذتموه فاستعدّوا للعذاب الشديد في يوم المحشر!..».

وخرج شيخ الإسلام -بعدما قال ما قاله للسلطان- دون أن يسلّم عليه، فغضب السلطان يافوز سليم -وكان على أهبة السفر- من هذا التصرف الذي لم يلاقيه من أحد آخر، لكنه وبعد إدراكه الحقيقة قَبِل تنبيهَ شيخ الإسلام، ووضع قراره بما يتناسب وقولَ الشيخ، وترك رسالة يعتذر فيها للشيخ زنبيللي علي.

إن هذا الخوف من الله تعالى المكنون في قلب السلطان منَعه -حتى ولو كان سلطان العالم- من التصرف وفق رغباته، وأما خوف الشيخ من الله تعالى فقد أعطاه شجاعة كبيرة، جعلته يحذر سلطاناً عظيماً كيافوز سليم آخذاً بعين الاعتبار كل شيء.



لقي أحد الوزراء المتصوّفَ ذي النون المصري فقال له:

«أطلب عفوك، فأنا مشغول ليلاً ونهاراً بخدمة السلطان، أريد الخير له، إلا أنني أخشى أن يضيق بي ويوبخني»،فبكى ذو النون



وقال: «لو كنتُ أخشى الله كخشيتك من السلطان لكنتُ في زمرة الصدّيقين».



وباختصارٍ ...

فإن محبة الله تعالى رأس كل خير، ورأس الحكمة الخوف منه تعالى. إنّ مَن يحب الله تعالى ويعرفه حق المعرفة يتصرّف بحذر على الدوام، خوفاً من أن لا يكون مستحقاً لحبه تعالى أو أن يصيبه عذابه، ويعيش حياته في مرتبة الإحسان.

إنْ خاف العبد ربَّه كما يجب فإنه يكرمه باستقامة متناسبة والإسلام، ويأمن كلَّ ما قد يخيفه من الدنيا والآخرة، وقد قال سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«**ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن**».[١٧٤]

وللوصول إلى الطمـأنينة والسعادة في الدارين ينبغي علينا الخوف من الله تعالى، والتضرع بين يديه في ركوعنا وسجودنا ودعاءنا بدموع سخية حارة، كما علينا الالتجاء إلى الله تعالى على أملا في نيل رحمته وعفوه تعالى.

١٧٤ شعب الإيمان، ٩، ٣٩٦/ ٦٨٦٥؛ المناوي، ٣، ٤٠٤/ ٣٤٧١.



٣ . التعظيم

إن التعظيم هو ثمرة المشاعر المرهفة والحساسيات القلبية، كالتقوى والمحبة والتواضع والتقدير والتي تنشأ عن الإيمان، ثم إن جوهر الإسلام يعرَّف بشكل مختصر في إطار هذين القياسين:

أ. «**التعظيم لأمر الله تعالى**»، أي تأدية أوامر الله تعالى بدقة واهتمام بالغين مع الاحترام.

ب. «**الشفقة على خلق الله تعالى**»، أي إظهار الشفقة والرحمة بالمخلوقات جميعها.

وأعظم الأدب تعظيم الحق سبحانه وتعالى، وأحسن صور هذا التعظيم وأشدّها ما ينعكس على العبادات، ومِن ثم التقرّب من سائر المخلوقات بمشاعر الاحترام حسب درجات قربها من الله تعالى، تقول الآية الكريمة:

﴿... **ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [١٧٥]

وعليه فإن العبادات كالصلاة والقرآن الكريم والأذان والأضحية والمواضع المقدسة كالكعبة الشريفة والصفا والمروة كلها في حكم شعائر الله تعالى، فيلزم عدم التقصير في إظهار الاحترام لهذه الشعائر أثناء الحج والعمرة وإظهار التعظيم لها، ولا بدّ من اجتناب

---

١٧٥ الحج، ٣٢.



التصرفات غير اللائقة كالجلوس مادّاً رجليه في مواجهة الكعبة أو النوم أمامها، والتكلم بالكلام الفارغ واللهو في الأماكن المباركة، وبالأخص تلاوة القرآن الكريم أو الاستماع إليه على نحو فيه تقصير في الأدب والاحترام، أو القيام بما يُسيء إليه مِن وضْعه على الأرض.

لقد أكرم الله جل جلاله مَن يعظّم الذات الإلهية العليّة وأنبياءه وأولياءه وأماناته المقدسة، وأنزل عليهم رحمته دائماً، وكما نعلم فإنه تعالى لم يعذّب حتى مشركي مكة المكرمة طالما النبي عليه الصلاة والسلام فيهم.[١٧٦]

وقصة سحرة فرعون المليئة بالعبرة الموضحة في القرآن الكريم واحدة من أروع الأمثلة على آثار تعظيم شعائر الله تعالى في النفس، مع العلم أنّ فرعون لما عجز أمام معجزات موسى عليه السلام، جمع إليه سحرة مصر ووعدهم بمكافئات جزيلة، إلا أنّ السّحرة تركوا ترجيح الابتداء في المسابقة إلى نبي الله موسى عليه السلام لطفاً منهم مظهرين بذلك تعظيمه واحترامه، وهذا التّصرف اللّطيف لا بدّ وأنّه أرضى الحقّ تعالى حيث إن حبّ الهداية بدأ بالنشوء والنمو في أفئدة السحرة، والتجليات الإعجازية التي تلتها والتي عاينوها، كانت وسيلة لتذوقهم طعم شرف الإيمان على الصعيد القلبي، وهذا الإيمان من الكمال بحيث لا يقبل التنازل والتسوية حتى مقابل التضحية بالنفس...

---

١٧٦ انظر: الأنفال، ٣٣.

ويبيّن مولانا تجليات سرّ تعظيم مشاعر الله تعالى المعروضة في هذه القصة فيقول:

«وصل السحرة إلى عقيدة التوحيد بإظهارهم اللطف والالتفات والاحترام من خلال عرضهم على نبيٍّ كبيرٍ وعبدٍ عالِ المقام قريبٍ من الله تعالى الأولوية في المنافسة، إلا أنهم تعرضوا للجزاء لخروجهم في منافسة ذاك النبي العظيم».

وإن قصة رؤيا عثمان غازي نتيجة احترامه وتعظيمه للقرآن الكريم وتزويج الشيخ إدابالي الذي عبّر الرؤيا ابنته منه لَمشهورة، فيكون إذاً من الممكن القول بأن إظهار الاحترام والتعظيم والمحبة واللطف والخدمة للقرآن الكريم كان من شيم العثمانيين.

ثم إن هذه الدولة العليّة التي استمدت قوتَها من احترامها الأسطوري للقرآن الكريم، أظهرت احتراماً لا مثيل له في التاريخ للأمانات المقدسة لَمَّا امتلكتها فيما بعد، إلى جانب خدمتها للحرمين الشريفين على النحو الذي يستحقانه من الاحترام والتقديس على مدى عصور طويلة.

صور الفضيلة والعبرة

روي عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في قبلة المسجد، فأقبل على الناس، فقالَ:



«ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبل فيتنخع في وجهه؟...».[١٧٧]



سمع الإمام الجنيد البغدادي عن رجل أنه من أهل التقوى فقصد زيارته، فلما رآه وقد بصق في ناحية القبلة، قال:

«هذا رج لا يؤتمن على سنة رسول الله ﷺ فكيف يكون تقيا».

ثم رجع.



وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه:

«كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء وضع خاتمه»، تعظيماً لله تعالى، إذ كان مكتوباً عليه محمد رسول الله.[١٧٨]



وقال عليه الصلاة والسلام عندما رأى الكعبة أثناء الحج:

«اللهم زد هذا البيت تعظيماً وتشريفاً ومهابةً وبِرًّا، وزد مَن زاره -ممن حجّ أو اعتمر- تعظيماً وتشريفاً ومهابةً».[١٧٩]



١٧٧ مسلم، المساجد، ٥٣/ ٥٥٠.

١٧٨ أبو داوود، الطهارة، ١٠/ ١٩.

١٧٩ ابن سعد، ٢، ١٧٣.



وفي الآية الكريمة:

﴿والْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ...﴾ (١٨٠)

يبين لنا الحق ﷻ أن الأضاحي التي يراد تعظيم الله بها هي من شعائر الإسلام، ولذا وجب علينا احترام الأضحية والحيوانات المعَدة قرابين لأجل الله تعالى، فالأصل في الأضحية مشاعر التعظيم والتقوى كما هو الأمر بالنسبة لسائر العبادات، فإن الله تعالى يقول:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٨١)

وفيما يلي حادثة تصلح مثالاً على بيان تعظيم سيّد الكائنات لله تعالى بإهداء الأضحية:

خرج النبي ﷺ وخرج معه المسلمون حتى وصلوا إلى الحديبية قاصدين العمرة، إلا أن المشركين منعوهم من دخولهم مكة، وقد ساق الصحابة الكرام الهدي بين أيديهم، وكان جمل أبي جهل قد غنمه النبي ﷺ يوم بدر، فكان المسلمون يغزون عليه المغازي، وكان قد ضرب في لقاح النبي ﷺ التي استاق عيينة بن حصن ولقاحه التي كانت بذي الجدر التي كان ساقها العرنيون، وكان جمل أبي جهل نجيبا مهريا كان يرعى مع الهدي فشرد قبل القضية فلم يقف حتى

---

١٨٠ الحج، ٣٦.

١٨١ الحج، ٣٧.



انتهى إلى دار أبي جهل وعرفوه، وخرج في أثره عمرو بن عنمة السلمي فأبى أن يعطيه له سفهاء من سفهاء مكة، فقال سهيل بن عمرو: ادفعوه إليه، فأعطوا به مائة ناقة، فقال النبي ﷺ:

«لولا أنا سمّيناه في الهدي فعلنا».[١٨٢]

ونلاحظ هنا تعظيم النبي لله تعالى في حلمه وتسامحه، حيث كان عليه الصلاة والسلام ألطف الناس خلقاً، فلم يكن رَدُّ رغباتهم من شِيَمه، وقد كان سيلبّي طلب المشركين لولا حسّ التعظيم لله ولمشاعر دينه، والتي كانت تطغى على كل شيء كما تبين هنا.

ولذا لم يستخدم هذا الجمل الذي سمي من الهدي والتي ستذبح لله تعالى في أمر آخر.



ومن العبرة بمكان ما يُبديه أولياء الله تعالى من تعظيمٍ الله تعالى في شأن الأضحية:

كان كلٌّ من سامي أفندي ووالدنا موسى أفندي رحمه الله تعالى بالغي الحساسية فيما يتعلق بذبح الأضحية، فلا يذبحان قربانين في حفرة واحدة، ويأمران بربط عيني القربان، ولا يدفعونه بشدة نحو المكان الذي يذبحونها فيه، وإذا كان القربان من الغنم يطلبان أن يساق إلى مكان الذبح محمولاً على الأكف برفق ورقة،

١٨٢ الواقدي، ٢، ٦١٤.



وعلى السكين أن تكون حادة، بحيث لا تؤذي الحيوان، وأن يُترك الدم حتى يسيل عن آخره، ولا يجلسان أثناء ذبح الحيوان بل يظلّان واقفين إلى أن يسيل دمه كله.

فإنّ الأضحية عبادة ينبغي تأديتها بحسِّ العبادة كسائر العبادات، فهي عبارة عن تعظيم الله تعالى وشكره على نعمه التي مَنَّ بها والتضحية في سبيله، لقد خلق الله تعالى الحيوان لكي ينتفع منه الإنسان وسخره له، ثم إن هذه النعمة التي ينتفع من لحمها ولبنها وجلدها وصوفها وبكل ما فيها إنما هي إكرام كبير لعباده. والشكر للمتفضل بكوب من الماء تصرّفٌ تستلزمه الإنسانية، وعليه فلا بدّ مِن شكر الله تعالى على الدوام لإكرامه إيانا بنعم لا تحصى، والتصرّف بلطف ورحمة وشفقة أثناء نحر هذه الحيوانات التي وُهِبْنَاها لمنفعتنا رعاية منا للتعظيم.



روي عن سيدنا عمر وسيدنا عثمان ﵄ أنهما كانا يقبّلان المصحف الشريف كل غداة تعظيماً له.

وروي عن سيدنا عمر ﵁ أنّه:

«كان يأخذ المصحف كلّ غداة ويقبّله ويقول: عهد ربّي ومنشور ربّي ﷿». [183]

---

183 الكتاني، ٢، ١٩٦ ـ ١٩٧.



وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يأخذ المصحف فيضعه على وجهه ويبكي ويقول: «كلام ربي، كتاب ربي» معبراً بذلك عن تعظيمه لله تعالى ومحبته إياه.[١٨٤]



كان فيما سبق يتم مسح ما كتب بالحبر عن طريق غسله بالماء، فيذكر أنس رضي الله عنه أن الطلبة في عهد الخلفاء الراشدين كانوا يجمعون الماء الذي يُغسل به ما كتبوه من القرآن الكريم في أوعية ويلقوه على جوانب القبور، أو في الآبار النظيفة الموجودة في الأماكن النظيفة التي لا تطؤها الأقدام،وقد يستخدمون هذه المياه للشفاء في نفس الوقت.[١٨٥]



كان أهل مكة قبل نزول القرآن الكريم قد اعتادوا تعليق القصائد السبع المختارة -والتي يطلق عليها اسم المعلقات السبع على جدار الكعبة- وإحدى هذه القصائد تعود للبيد بن ربيعة، وقد بقيت هذه القصيدة معلّقة على جدار الكعبة زمناً طويلاً، ولَمَّا مَنَّ الله عليه بالإسلام، وأسلم ترك قول الشعر فلم يقل غير بيت واحد وهو قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً[١٨٦]



١٨٤ الحاكم، المستدرك، ٣، ٢٧٢/ ٥٠٦٢.

١٨٥ الكتاني، ٢، ٢٠٠.

١٨٦ ابن عبد البرّ، الاستيعاب، ٣، ١٣٣٥.



أرسل سليمان عليه السلام رسالة منه إلى بلقيس ملكة سبأ يدعوها فيها إلى الإيمان، وعندما قرأت بلقيس الرسالة وهي حينئذ وثنية قالت:

«يا أيها الملأ والأشراف، أُرْسلت إليَّ رسالة كريمة، وهي من سليمان، وتبدأ باسم الله الرحمن الرحيم». فقال بعض العلماء في تعظيمها: «أعز الله تعالى بلقيس بالإيمان لاحترامها وتقديرها رسالة سليمان عليه السلام».



«كان بشر الحافي في بداية حياته يعيش حياة اللهو والغفلة، وكان سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل في أتون حمام فأخذها ورفع طرفه إلى السماء، وقال: سيدي اسمك ههنا ملقى يداس! ثم ذهب إلى عطار وطيبها وحفظها، فأحيا الله قلبه، فرأى فيما يرى النائم كأنّ قائلا يقول: يقول لك ربك: يا بشر، طيبت اسمي، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة». (١٨٧)



نجد أجدادنا -الذين يعبّرون عن تعظيمهم واحترامهم لله تعالى ورسوله في كل فرصة، والذين جعلوا هذا الأمر دستوراً طبيعياً لهم في حياتهم- لا يكتبون لفظ الجلالة كما هو بل يرمزون إليها بحرفي «ا ه» خشية من أن تلقى على الأرض.

١٨٧ عطار، تذكرة الأولياء، طهران ١٣٧٢، ص: ١٢٨.



وقد مرَّ إبراهيم بن الأدهم يوماً بأبي حنيفة، فنظر تلامذة أبي حنيفة إليه باستصغار، فقال الإمام أبو حنيفة لما رآه: «تفضل يا سيدي، شرَّفت مجلسنا»، فسلم إبراهيم بن الأدهم وانصرف مستاء، ولما رحل قال تلامذة أبي حنيفة له:

«كيف لهذا الشخص أن يكون من أهل العلوّ؟ وكيف يخاطب واحدٌ مثلكم واحداً مثله بيا «سيدي»»،

فأجاب الإمام الأعظم أبو حنيفة مظهِراً مشاعر تعظيم أولياء الله تعالى وتواضعه السامي فقال:

«إنه منشغل بالله تعالى على الدوام، أما نحن فمشغولون بالقيل والقال...».

كان الإمام الأعظم أبو حنيفة قد خاط لنفسه ثوباً قيما من قماش جميل، وكان يلبسه لصلاة التهجد خاصة، وذلك أدبا واحتراما واهتماما بالعبادات، بسبب تعظيمه لله تعالى.



كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقصد الولي الكبير بشر الحافي على الدوام، ويقضي معه وقتا في صحبته، فقال له طلابه:

«يا إمام، كيف لمجتهد مثلك أن يجالس رجلا بسيطا كهذا»، فأجابهم الإمام الكبير:

«نعم، إنني أكثر علماً منه، لكنه أكثر معرفة بالله مني».



ويتضح من هذا أن الإمام الأعظم أبو حنيفة وأحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى كانا يكنّان الاحترام لعباد الله تعالى العارفين به، ويستفيدان منهم بزيارتهم إياهم.



كانت صحراء سيناء مكاناً رهيباً لم يتمكن أحد من اجتيازها، لكن الجيش العثماني للسلطان يافوز سليم تمكن من دخول الصحراء بعزم وقرار قطعي منه، وبمضيّ بعض الوقت نزل السلطان عن حصانه، وبدأ المشي، فنزل الجند مِن على خيولهم وبدؤوا المشي أيضا، وأخذوا يتناجون فيما بينهم وهم في دهشة وحيرة:

«لماذا نزل السلطان من على حصانه وبدأ المشي في هذه الصحراء التي يصْعب المشي فيها حتى على الخيول التي لا تحتمل حرَّ هذه الصحراء».

فقال قادة الجيش لحسن جان صديق السلطان المقرّب:

«نتوسل إليك أن تسأل السلطان عن هذا الأمر»

ولما سأل حسن جان السلطان وقد استبد به الفضول عن هذه الحال، أجابه السلطان:

«يا حسن، أما ترى فخر الكائنات رسول الله ﷺ يمشي أمامنا، فكيف لنا أن نكون فوق الخيول وسلطان العالمين يمشي».





لم يكن التاج علامة السلطنة لدى السلاطنة العثمانيين، رغم ورود كلمة "تاج دار" في النصوص الرسمية، فإن سلطة السلطان إنما تتحقق بالبيعة وتقلده السيف، وقد استمر الأمر على هذا النحو حتى السلطان وحيد الدين السلطان العثماني السادس والثلاثين.

وبعد فتح اسطنبول أصبح ضريح قبر أبي أيوب الأنصاري ﷺ مركز تقلّد السيوف، فكان يطلق على المراسم التي كانت تقام لأجل هذا "لواء السيوف".

كان السيف الذي يتقلّده السلطان يعود إلى سيف سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ المحفوظ في قصر طوب كابي، وكان هذا السيف يوضع للسلطان من قِبل أكثر العلماء اعتباراً، ومن ثم يبارَك السلطان بالدعاء جهراً، ولكي يبارِك للسلطان غير المسلمين تم إنشاء "أوتاغي هُومايون" "نصب خيم للسلطان لقيادة الجيش"، في القسم الداخلي لأسوار أدرنة كابي، لأنه وحتى صدور "قانون التنظيمات" ١٨٣٩ لم يكن بإمكان غير المسلمين وطء أطراف ومحيط أيوب بأقدامهم، إذ إنّ الكثير من الصحابة المعروفين والمجهولين مدفونون في هذا المحيط فَعُدَّ ترابه مباركاً كتراب الحرم الشريف، أي إن هذه الأراضي رويت بدماء الصحابة الكرام، وشهدت عليهم.



وفي عهد مراد الثاني حدث سيل عارم تسبب بانهيارات في طرفي الكعبة، فتم إرسال المعماري رضوان آغا على وجه السرعة



إلى مكة المكرمة للترميم، فأما رضوان آغا الذي حدد الأمور اللازمة فكان لا يذكر كلمتي "انهارت وسقطت" تأدّباً عند تحدثه عن الأماكن المنهارة في الكعبة المشرفة، بل يقول:

«سجدت الأقسام الفلانية من الكعبة..».

وعلاوة على ذلك فقد قدّم صوراً للاحترام تلفت الانتباه، حيث قام بالتدابير اللازمة للحيلولة دون تلويث الأماكن المباركة تلك، بدخول الحيوانات التي تحمل المواد اللازمة للبناء.

وأساساً فإن تعظيم العثمانيين للبلاد المقدسة تلك، تبدأ من "بايي تخت" "موضع عرش السلطان"، حتى سمي مكان من الأماكن التي يمر بها الحجاج من القارة الأوروبية إلى الآسيوية حرماً، وكان يتم الانطلاق من هذا المكان إلى الحرمين الشريفين بالتحلي بالمعنويات والأدب التي تليق بهما، ولا يمكن الصفح في هذا الطريق عن أي حركة فيها غفلة.



يخرج الشاعر نابع إلى الحج عام ١٦٧٨ مع رجال من الدولة، ومع اقتراب القافلة من المدينة لا ترى عينا نابع النوم من الاشتياق والهيجان، فيرى أن واحداً من رجال الدولة في القافلة قد مدّ رجليه غافلاً نحو المدينة، فيبدأ بكتابة نعته المشهور متأثراً بالذي رآه.

وعندما تقترب القافلة من المدينة المنورة قريباً من الصبح، يسمع نابع شعره الذي كتبه يُقرأ من على منابر المسجد النبوي:



«إياك والتقصير في الأدب في هذا المكان الذي هو موضع تنزلات رحمة الحق تعالى، ومقام نبيه الحبيب سيدنا محمد ﷺ...».

« يا نابع، ادخل إلى هذا المكان بالأدب، فهذه الأماكن مقامات مباركة طافت فيها الأرواح المقدسة، وقبّل عتباتها الأنبياء».

فيبحث الشاعر نابع من فوره عن المؤذن، وقد بلغ منه الهيجان كل مبلَغ أمام هذه الحال، فيسأله:

«ممن أخذت هذا النعت وكيف تعلمته؟»

فقال المؤذن: «قال لنا رسول الله ﷺ هذه الليلة في منامنا: «يأتي لزيارتي شاعر من أمتي اسمه نابع، وهذا امرؤ مفعم بالعشق والمحبة والاحترام لي، فاستقبلوه بنعته من المنابر مكافأة لعشقه هذا... »، وقد قمنا نحن بتنفيذ هذا الأمر النبوي...

فبدأ نابع بالبكاء وهو ينتحب، يبكي ويقول:

«إذاً فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام عليَّ "من أمتي"، أي إن شمس الكونين تقبّلني في أمته..» .



كان عبد العزيز خان -من آخر سلاطين العثمانيين- سلطاناً متعلقاً بسيدنا النبي ﷺ مع الأدب معه والاحترام له إلى أقصى الحدود، فقيل له ذاتَ يوم وهو مريضٌ طريحُ الفراش، فاقداً وعيه شاحباً: «ثمّة التماس من نواحي المدينة المنورة!»، فجمع السلطان -حين سمع هذا- كل قوته وقال لمعاونيه:



«أوقفوني على قدمي في الحال! كي نقرأ الطلبات الآتية من المدينة المنورة واقفين! فلا تُسمع طلبات جيران رسول الله على نحو مغاير للأدب من مدّ الرجلين والاستلقاء!..»، وهو بهذا أظهر محبته وتعظيمه للنبي عليه الصلاة والسلام.

وقد كان أيضاً يتوضأ كلما جاء بريدُ المدينة المنورة، ويقول في الرسائل: «فيها غبار المدينة المنورة»، ثم يقبّلها ويضعها على جبينه، ثم يناولها للأمين الأول قائلاً له: «افتحها واقرأها».



ومن الجدير بالذكر احترام أجدادنا للعلماء وأرباب الفضائل، وقد أوصى غازي أرطغرل لابنه غازي عثمان ولغيره ممن سيخلفه متوجهاً بالخطاب إليه، فيما يتعلق بالاهتمام بأولياء الله تعالى قائلاً:

«انظر يا بني، فلتؤذني لكن حذار من أن يستاء منك الشيخ أدابالي، فهو شمس معنويات عشيرتنا، لا يخطئ ميزانه درهماً، عارِضْني، لكن إياك أن تعارضه، فإنك إن عارضتني أستاءُ وأحزنُ، إلا أنك إن عارضته فلن تنظر عيناي إليك، ولو نظرت لا تراك، وقولي هذا ليس موجهاً لأدابالي وإنما لك، واعتبرْ أقوالي هذه وصية لك..».



وقد نصح عثمان غازي ابنه أورهان غازي بهذه النصيحة:

«... أكرم وأحسن واحترم العلماء الربانيين الصالحين، الذين يمدون الدولة بقوة معنوية، وإذا سمعت بعالم أو عارف أو وليّ في



بمدينة ما فلتدعه إلى بلدك بلطف وتعظيم، وبهذا تستقيم أمور الدين والدولة ببركتهم وهمتهم!..».



استقرّ وليّ الله المشهور بغاييكلي بابا في جبل أولو داغ، في عهد عثمان غازي، وقد أمر أورهان غازي بمجيئه حين سمع شهرته، إلا أن وليّ الله هذا الذي يتجول مع الأيائل في الجبل لم يقبل الدعوة، إضافة إلى إرساله خبراً بأن لا يأتيه أورهان غازي، ولما سأل أورهان غازي عن السبب -في حيرة وفضول- لقي هذا الجواب:

«الدراويش أهل بصيرة وقلب، وهم لا يتصرفون إلا وفق ما يتوجب عليهم، وفي حال ضلّوا عن الاستقامة لا تُقبل أدعيتهم، إلا أنّكم -أيها السلطان- مُؤْتَمَنون على الأمة، وفي هذه الحال فأنتم جند الثغور، ونحن جند الدعاء، والنصر يأتي حين تجتمع جهود جند الثغور وجند الدعاء، وكما أنه على جند الثغور التجهز بفنون الحرب والشجاعة للوصول إلى هذا التوفيق على سبيل الاستقامة، فإنه مما لا بد منه لجند الدعاء الابتعاد عن الميل إلى الدنيا ومحبتها، ولذا فإني أخشى أن تُدخِل العطيةُ والإكرام -الذي ستفعله بمجيئي إليكم- حبَّ الدنيا في قلوب الدراويش وتُقلّل من تعلقهم بالآخرة، وبهذا يلحق الضرر بكم وبنا... مولاي! لكن لِتعلموا أنه عندما يحين الوقت فسيكون من المقدّر تقابلنا».



وبعد فترة من الزمن أتى غاييكلي بابا إلى بورصة، وزرع شجرة سينار في فسحة دار أورهان غازي، فأُعلِم السلطان بالأمر، فأتى على الفور إلى هناك، فقال له غاييكلي بابا:

«زرعناه للتبرك، ولتكن أدعية الدراويش مقبولة لك ولذريتك ما بَقِيَتْ».

وقد قدّم أورهان غازي لغاييكلي بابا محافظة إيناغول وما حولها، عطاءاً من قلبه، على الرغم من الخبر الذي أرسل إليه من قَبل، إلا أن غاييكلي بابا القنوع رفض قائلاً: «الملك لله، أعطوها لأهلها، فلسنا بأهلها»، وأصرّ السلطان، فقال غاييكلي بابا وقد خشي من أن يكون الرفض تكبّراً: «فليكن هذا الوادي أمام التلّ فسحةً للدراويش».

إن أورهان غازي –الذي أقام أسس الدولة على وصايا أهل الله تعالى– انكبّ على يديّ غاييكلي بابا بسرورٍ كبير بعد قبول عطائه ثم قبّل يديه وقبّل فقبّل. و إن التاريخ ليشهد على أن تعظيم السلاطين العثمانيين لأولياء الله تعالى من الأسباب الرئيسية للتأييد الإلهي المتفضَّل به عليهم.



إن التعظيم الذي أبداه محمد الفاتح لسيدنا آكْ شمسِ الدّين كان مشهورا ومعروفا ومثيرا للاهتمام، حتى إنه قال لمن حوله يوم فتح إسطنبول:



«إن هذا الفرح والاطمئنان الذي ترونه بادياً عليَّ، ليس لفتح هذه القلعة فحسب، بل لوجود وليٍّ عزيز ومبارك من أولياء الله تعالى كآك شمس الدين في زمني ومعي...».



لقد وهب المشهورك مال باشازاده من علماء العثمانين نفسه كلياً للعلم بعد أن تخلى عن مسلكه، حيث كان ضابطاً فيما سبق، وثمة رواية تُنقل عنه قالها فيما يتعلق بهذا الأمر:

«كنا في سفر مع الوِلي السلطان بيازيد خان، وكان مع السلطان الوزيرُ إبراهيم باشا وأَورانوس أوغلو من قادته المشهورين، وأما أَورانوس أوغلو فلم يكن يتجرأ أحدٌ من القادة على التقدم عليه وتجاوزه في المجالس، لكن وفي ذلك الوقت جاء عالم يرتدي ثياباً قديمة ورثّة، وجلس في الطرف الأمامي من القائد، فتعجبتُ أشد العجب من هذا الأمر الذي لم يَحُلْ دونه أحد، ولم يُقُل فيه شيءٌ، فسألت من بجانبي: « من هو هذا الشخص الذي استطاع الجلوس أمام قائد كأورانوس وتجاوزه؟»، فأجابوني: «إنه شخص فاضل يدعى بملّاً لطفي». فقلت: «كم يأخذ من المعاش»، فقالوا: « ثلاثين درهم»، فتعجبت وقلت: « كيف لرجل في هذا المنصب البسيط أن يتقدم على قائد لا مثيل له»، فقالوا لي عندئذ: «إن العلماء يُعَظَّمون بهذا الشكل بسبب سموّ العلوم الدينية التي يحملونها، فإن الباشاوات والقادة الذين تخلقوا بالإيمان والمعرفة والأدب لا ترضى قلوبهم على العكس من هذا...».



وإثر ذلك تركت الخدمة العسكرية، وكان عندي ميل إلى الانقطاع بالعلم استناداً على الشعور بأن استحقاقي لهذا الأمر غير كاف كباقي القادة، وأني سأبرز في ميدان العلم بروزاً بيّناً».

وبعد هذا الترجيح بلغ كمال باشازاده مكانة يقال له فيها: «فريد عصره» في العلم، وغدا شيخ الإسلام التاسع في الدولة العثمانية بعد وفاة زنبيللي علي أفندي.



التقى السلطان أحمد خان الأول بعزيز محمود هدائي في يوم ذهب فيه إلى أُسْكودار، فنزل عن حصانه على الفور وأركب الشيخ مكانه ومشى وراءه، فلم يرض قلب الشيخ هدائي لسير السلطان العظيم على قدميه، فنزل عن الحصان قائلاً:

«ما ركبت إلا لتحقيق دعاء شيخي وتنفيذ أمر سلطاني»، وبذلك قد تحقق دعاء شيخه الشيخ أُفتادة، وهو على النحو التالي: «يا بني، فليمش السلطان وراءك».



كان السلطان أحمد خان الأول يحترم الشيخ عزيز محمود هدائي، احتراماً لا مثيل له، ولا يقصّر في الإكرام، وذات يوم كان يجالس الشيخ عزيز محمود هدائي، فأحضروا إبريقاً وطِسْتاً لكي يتوضأ الشيخ، فأخذ السلطان الإبريق بيده احتراماً لشيخه، وصبّ



ماء الوضوء على يدي الشيخ، وأمُّ السلطان قد كانت حضَّرت المنشفة له، وقد حدثت نفسها للحظة قائلة: لو أني أرى كرامة الشيخ عزيز محمود هدائي، وأدرك الشيخ ما يجول في خاطرها بإذن الله تعالى، فقال:

«يا للعجب، يتأمّل البعض الكرامات منّا، مع أني أرى أنّه ما من كرامة أعظم من صبّ خليفة الأرض الماء على يدي وإحضار والدته المنشفة لي».



كان العميد جواد باشا قائدا متحكما في موقع في جاناك كاله، وكان قد غلبه النوم بسبب التعب الشديد، حين كان حزيناً، في مواجهة قصف أسطول البحرية التابعة للعدو المتمركزة على المضيق، فسمع في منامه همساً، يقول له:

«يا جواد، إنكم تعظّمون كلام الله تعالى وتحترمونه، ولذا فلكم البشرى بنصر الله تعالى، فلتنظر إلى سطح البحر»، وحين نظر جواد باشا إلى الخليج الأسود، رأى بين الأنوار حرفي الكاف والواو، ثم استيقظ.

وفي اليوم التالي سمع جواد باشا الصوت نفسه الذي أتاه في المنام، وهو قائم على قبر يقرأ الفاتحة، يقول له:

«يا جواد! ضع الألغام ٢٦ الموجودة في المستودعات على البحر».



فأصابه الهلع، إذ كان وجهاً لوجه مع لغز معنوي، وعندما كان مستغرقاً في التفكير في كيفية حلّه لهذا، صادف شخصاً منوّرا، واقترب ذلك الشخص من الباشا، وسأله: ألَك حاجة؟، فحكى له الباشا كل شيء، وبيّن وليّ الله تعالى ذلك اللغز الذي أخبره به، بعلم عميق:

«يا بني! إن النور الذي رأيته على سطح البحر علامة على الظفر، ويرينا أنه لن يكون بإمكان الكافرين أن يسيطروا على هذه الأراضي، وأما حرفي الكاف والواو فإنها وفق حساب أبجد تكون ٢٦، وفي هذه الحالة فسيكون وضع الألغام ٢٦ الموجودة في مستودعاتكم، على خليج البحر المظلم، من أكبر حملات النصر».

وبعد كلماته هذه، ابتعد ذلك الشخص المنوَّر عن العين ورحل.

وقد طلب أن توضع الألغام على الخليج المظلم بخط أفقي في حين كان يلزم وضعها على نحو طولي، وفقاً لهذه الرؤيا، ولم يكن هذا المكان ذا أهمية، وكذلك ليس بموقع استراتيجي لزرع الألغام، وعلى الرغم من كل هذا فإن جواد باشا المذعن لهذه الرؤيا المعنوية أمر بزرع الألغام على الفور، فأدّت سفينة الألغام "نصرت" بإمرة النقيب حقي بيك وظيفتها على أحسن وجه، فتم تثبيت كل واحدة من الألغام منتصف الليل في البحر، وفي صباح تلك الليلة استشهد النقيب حقي بيك إثر سكتة قلبية بعد تأديته وظيفته.



وبعد يوم بدأت الألغام مهمتها، حين دخلت أساطيل العدو المدرّعة، حيث غرقت بعض السفن المدرعة من أسطول العدو في المياه بهذه الألغام.

يحلل ونستون تشرشل هذه الحادثة في جريدة «ريو دي باريس» عام ١٩٣٠، فيقول:

«إن السبب الرئيسي في موت هذا الكمّ الهائل من الناس، والتكاليف الباهظة ، وغرْق خمسة آلاف سفينة تجارية وحربية في الحرب العالمية الأولى إنما كان بالألغام البالغة ٢٦ الملقاة والمربوطة بطرف حبل من الفولاذ رقيق، من قِبل الأتراك في البحر قبل ليلة».

هذه هي البركة الاستثنائية لتعظيم واحترام كلام الله تعالى.[١٨٨]



وباختصار، فإن الأمر الأكثر أهمية في القرآن الكريم بعد الإيمان هو العمل الصالح، وهو المطلوب أيضاً بعد الاستغفار، أي إن علوّ مقام العباد عند الله تعالى وقبول استغفارهم مرهون بالقيام بالأعمال الصالحة. وأما العمل الصالح والرفق والرحمة بمخلوقات الله تعالى فإنه تعظيم لأوامر الله تعالى.

---

١٨٨ إضافة إلى هذا يمكنكم الاطلاع. الشعراء، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨، الدخان، ١٨.

٤ . الأمانة والوفاء بالعهد

الأمانة والإيمان مشتقان من الجذر نفسه، فكلمة "**المؤمن**" التي هي اسم عام للمؤمنين بالله تعالى، هي في الوقت نفسه اسم من أسماء الله الحسنى، والتي تعني أنه منبع الأمان، وأنه مانح الأمان لعباده، وجاعلهم أمناء، وهو الذي وصف أنبياءه بصفة "**الأمانة**"، أي إنه هو من جعلهم مؤتمنين، وفي هذا الصدد فإن المؤمن هو من آمن و اؤتمن وأُمن ووُثق به. يقول أبو موسى رضي الله عنه قلت:

«يا رسول الله أي المسلمين خير؟

قَالَ : "**من سلم المسلمون من لسانه ويده**"».[١٨٩]

إن الأمانة والوفاء بالعهد هي إحدى الأسس الرئيسية لحياة الفرد والمجتمع، فسلام المجتمع واطمئنانه مرتبط بأمانة الناس والتزامهم بعهودهم، وصدقهم في أقوالهم وأفعالهم، فإن لم تتحقق هذه الخصلة فلا يعود التفكير بصلاح الدنيا ولا الآخرة ممكناً.

تقول الآيات الكريمة المتعلقة بخصوص الأمانة عند الأنبياء:

﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾[١٩٠]

﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾[١٩١]

---

١٨٩ البخاري، الإيمان ٤، ٥، الرقاق ٢٦؛ مسلم، الإيمان ٦٤، ٦٥.

١٩٠ الأعراف، ٦٨.

١٩١ الشعراء، ١٠٧.



ومن ناحية أخرى فإن هذه الأوصاف هي شعار الأمة المحمدية، لأن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام كان يُعرف بوصف "**الأمين**" ويُدعى به حتى قبل النبوة.

والوفاء بالعهد مع الأمانة وصف مهم، ويقول الحق تعالى آمراً بالوفاء بالعهد:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ (١٩٢)

﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (١٩٣)

ويقول الحق تعالى مبيناً إحدى أهم أوصاف المؤمنين الذين نالوا الخلاص:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (١٩٤)

وعلينا ألا ننسى أن العهود وكل أنواع الاتفاقيات التي نعقدها مع الناس هي في الوقت نفسه تعني إعطاء عهد لله تعالى، ولا بد من الوفاء بالعهود الموثوقة والأقوال الموعود بها في حضرة الله تعالى، والاعتناء بتنفيذها.

---

١٩٢ المائدة، ١.

١٩٣ الإسراء، ٣٤.

١٩٤ المؤمنون، ٨.

يُكرم الحق تعالى إبراهيم عليه السلام بعبارات التقدير حين وصفه أنه يفي بعهوده فقال:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ (١٩٥)

ويقول عليه الصلاة والسلام للتجّار الأمناء والشرفاء:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء».(١٩٦)

وبمقابل هذا ثمة تحذيرات رهيبة لمن لا يفي بعهده، فعلى سبيل المثال يقول عليه الصلاة والسلام:

«لا إيمان لمن لا أمانة له».(١٩٧)

ومن لا يبعث حاله على الثقة في محيطه يكون ذلك إشارة إلى ضعف إيمانه وفقدانه كرامته، وتضييعه الحساسيات الإسلامية، فلا يَحمل من الإيمان إلا اسمه، ولا من العبادة إلا شكلها، ولا من الإخلاص إلا صورة لا تغني ولا تسمن من جوع، ويبين سيدنا عمر رضي الله عنه هذا الأمر على نحو رائع فيقول:

«لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه ولكن انظروا إلى من إذا حدث صدق وإذا اؤتمن أدى وإذا أشفى ورع».(١٩٨)

١٩٥ النجم، ٣٧.

١٩٦ الترمذي، السحر، ٤/ ١٢٠٩؛ ابن ماجة، التجارة، ١.

١٩٧ أحمد، مسند، جـ٣، ص١٣٥/ ١٢٤٠٦.

١٩٨ ابن هشام، ١، ١٩١؛ ابن سعد، ١، ١٢١.



وفي حال لم تعالج حالة خيانة العهد والاستخفاف بالوعود، فإنها تؤدي أخيراً إلى النفاق والذي هو أسوأ وصف.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في أحاديثه الشريفة:

«أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصْلَةٌ منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».[١٩٩]

و عن النبي ﷺ، قال:

«قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعط أجره».[٢٠٠]

وهذا يعني أن كلاً من الأمانة والوفاء بالعهد من شعار الانتساب إلى الإسلام، فإنَّ عدم ثقة المؤمن بكلامه، ورجوعه عن قوله، وصفٌ يُغضب الله تعالى ويجرّ صاحبه إلى أسفل السافلين.

صور الفضيلة

كان رسول الله ﷺ أكرم قومه حسبا، وأشرفهم نسبا، وأحسنهم خلقا، وأكثرهم أمانة، أرعاهم لحقّ الجار، وأعظمهم حلما على

١٩٩ البخاري، الإيمان، ٣٤، المظالم، ١٧؛ مسلم، الإيمان، ١٠٦/ ٥٨.

٢٠٠ البخاري، السحر، ١٠٦، الإجارة، ١٠/ ٢٢٢٧/ ٢٢٧٠.

المخطئين، وأبعدهم عن أذى الناس، فلم تُحص عليه زَّلة، أو عُرف عنه أنه عاب أحداً من غير حق، ولذلك كله استحقّ بين قومه لقب الأمين، لأن الحق تعالى جمع فيه كل الخصال الحميدة والميزات الحسنة. (٢٠١)

وقد أضحى وصْفُ **"الأمين"** الاسم الثاني للنبي عليه الصلاة والسلام، فقد كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يُدعى باسم **"الأمين"** فقط في مكة عندما بلغ ٢٥ من عمره. حتى إنه أثناء التحكيم في أمر الكعبة، قالوا لما رأوه: «جاء الأمين»، مُظهرين رضاهم به حكماً، وطالبين مشورته، معتمدين عليه في حل الخلاف بينهم، ولم يقدر أحدٌ من خصومه -ممن أرادوا قتله- شيئاً يطعن في أمانته وصدقه.

كما أن كلمة **"الصادق الأمين"** التي لُقِّب بها النبي عليه الصلاة والسلام كانت لا تفارق ألسنة المشركين، فكانوا لا يسلمون ودائعهم لأصحابهم بل لسيدنا عليه الصلاة والسلام مع شديد خصومتهم له، حتى إنه عليه الصلاة والسلام لما أراد الهجرة كانت عنده بعض ودائع المشركين، وقد طلب من عليٍّ رضي الله عنه تسليمها لأصحابها في مكة على الرغم من خطر الموت المحدق به.



٢٠١ ابن سعد، ١، ١٢١، ١٥٦.

وإحدى الحوادث المثالية التي كانت سبباً في إعطاء النبي ﷺ وصف الأمين والصادق، ما يبينه عبد الله بن أبي الحمساء رضي الله عنه فيقول:

«بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال:

"يا فتى، لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك"».[٢٠٢]

إن انتظار النبي ﷺ -الذي يبلغ مكانة في الأمانة والوفاء بالعهد يتعذر الوصول إليها- ليست مسألة أخذ مال بسيط، وإنما الأمر الرئيسي القابع وراء تكلفه انتظار ثلاثة أيام هو حساسيته العالية للوفاء بالقول.



ويقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

«ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال:

"انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم"».[٢٠٣]



---

٢٠٢ أبو داوود، الأدب، ٨٢/ ٤٩٩٦.

٢٠٣ مسلم، الجهاد، ٩٨/ ١٧٨٧.



تمّت معاهدة الحديبية، وكُتبت شروط المعاهدة، وفي هذه الأثناء طلع أبو جندل بن سهيل بن عمرو ممثّل قريش يرسف في الحديد، وهو من السابقين إلى الإسلام، وممن عُذِّب بسبب إسلامه، وكان أبوه حبسه فأفلت، فلما رآه أبوه سهيل بن عمرو قام إليه فضرب وجهه، وقال: هذا يا محمد أوّل من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: "**إنا لم نقض الكتاب بعد**"، قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً، قال النبي ﷺ: "**فأجزه لي**"، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: "**بلى، فافعل**"، قال: ما أنا بفاعل، وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا! فصاح أبو جندل بأعلى صوته:

«يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني!»،

فلما صنع أبو جندل ما صنع زاد الناس شرًّا على ما بهم، فقال رسول الله ﷺ لأبي جندل:

"**إنا عقدنا بيننا وبين القوم عهدا، وإنا لا نغدر بهم، أبا جندل، اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**"».[٢٠٤]



٢٠٤ أحمد، ٤، ٣٢٥؛ الواقدي، ٢، ٦٠٧ ـ ٦٠٨؛ ابن هشام، ٣، ٣٦٧؛ البلاذوري، ١، ٢٢٠.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير -رجل من قريش- وهو مسلم، وقد التجأ إلى المدينة، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا؟، فدفعه إلى الرجلين.. وقال لأبي بصير -الذي لم يدرك ما قام به النبي عليه الصلاة والسلام-:

"يا أبا بصير، إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت، وإنا لا نغدر، فالحق بقومك"

فقال: يا رسول الله، تردّني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ:

"اصبر يا أبا بصير واحتسب، سيجعل الله لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجا ومخرجا".

وبعد هذا لم يقل أبو بصير شيئاً، وخضع لأمر النبي عليه الصلاة والسلام، وسُلِّم للمشركين كعامة المسلمين، إلا أنه كان مُساقاً إلى الموت لا إلى مكة، فخرج الرجلان -اللذان يأخذانه إلى مكة- به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا فاستلّه الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفر الآخر، وأخذ أبو بصير سلب خنيس الذي قتله وثيابه وسيفه، وأتى بها إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: يا رسول الله لك خمسها، فقال عليه الصلاة والسلام:

"إنني لو أخذت خمسها لنقضت العهد الذي بيني وبينهم، إلا أن شأنك مختلف، فما فعلته وسلبته من الذي قتلته أمر متعلق بك" [٢٠٥]

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم؛ فخرج حتى أتى سيف البحر. وينفلت من قريش أبو جندل بن سهيل ليلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق بـأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن .. فأرسل النبي إليه، وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أملته تعنتًا وقبله المسلمون كارهين، وهذا هو أول الفتح على المسلمين. [٢٠٦]

وكما نرى فإن وفاء النبي عليه الصلاة والسلام بعهده، غدا رحمة وبركة لجميع المؤمنين.



وأثناء فتح خيبر كان يسار الحبشي -عبدٌ أسود لعامر اليهودي- في غَنَم مولاه خارج القلعة، فلقي النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد كلام جرى بينهما أسلم، فغيّر النبي عليه الصلاة والسلام اسمه من يسار إلى أسلم، فأراد أن يقاتل معهم، فقال للنبي: إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ فقال له:

---

٢٠٥ انظر: البخاري، الشروط، ١٥؛ ابن هشام، ٣، ٣٧٢.

٢٠٦ ابن هشام، ٣، ٣٩٧، ٣٩٨.



«أخرجها من المعسكر، ثم صِحْ بها وارمها بحصيات، فإن الله ﷻ سيؤدي عنك أمانتك»

ففعل ذلك، فخرجت الغنم مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن، وقد شارك في الجهاد بعد أن أسلم مباشرة، فقاتل حتى وقع شهيداً. [٢٠٧]

قد أرسل النبي ﷺ غنم أعدائه التي أتت إليه، في وقتٍ تكون الحاجة فيه أشد ما تكون إلى القوت في الحرب، وكذلك الراعي لم يخن مستأجره الذي بينه وبينه اتفاق، إذ إن هذا هو ما يليق بالنبي الأمين وأمته المؤمنة.



«وقد طلب النبي ﷺ من عثمان بن طلحة -الذي يملك مفتاح الكعبة- يوم فتح مكة المفتاح، وفتح الباب، فدخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنـزل الله هذه الآية:

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [٢٠٨]

---

٢٠٧ أبو داوود، الخراج، ٢٤ ـ ٢٥/ ٣٠٢٣.

٢٠٨ النساء، ٥٨.

فقال رسول الله ﷺ: **"أين عثمان بن طلحة؟"**

فدعي له فقال: **"هاك مفتاحك يا عثمان"**،

وقال: **"خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم -يعني حجابة الكعبة- اليوم يوم وفاء وبرّ"**».[٢٠٩]

مع أن الكثير من أشراف الصحابة الكرام الذين يرون أن خدمة بيت الله تعالى أسمى وأشرف وظيفة، كانوا يأملون أن ينالوا شرف حيازة مفتاح الكعبة، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام رد الأمانة لأهلها، وقد وقع الكثير في دهشة أمام حسّ الأمانة هذا حتى إن بعضهم مُنِحوا الهداية.



لما فُتحت مكة سِلماً لم يؤخذ أي شيء غنيمة،[٢١٠] وقد أخذ نور الخلق عليه الصلاة والسلام من أغنياء مكة دَيناً ودروعاً ليلبي الاحتياجات الهائلة لجيش الإسلام، ثم رد ما أخذه بغنيمة هوازن كلها وقال:

«على اليد ما أخذت حتى تؤدي».[٢١١]

---

٢٠٩ ابن هشام، ٤، ٣١ـ٣٢؛ الواقدي، ٢، ٨٣٧ـ٨٣٨؛ ابن سعد، ٢، ١٣٧.

٢١٠ انظر: البقرة، ٨٠؛ آل عمران، ٩، ١٦٤؛ الرعد، ٣١؛ الحج، ٤٧؛ المؤمنون، ٢٧؛ الروم، ٦؛ السجدة، ١٣؛ الزمر، ٢٠؛ ق، ٢٩.

٢١١ أبو داوود، البيوع، ٣٥٦١.



أصاب الأغنياء الذين أدانوا النبي عليه الصلاة والسلام القلق ظناً منهم أن القائد المنتصر سيضع يده عليها، إلا أنهم -وقبل مضيِّ الكثير من الوقت- صدقوا أمانته عليه الصلاة والسلام مرة أخرى.



لما أتى موسى عليه السلام مدين، رأى كثيراً من الناس يسقون مواشيهم، وثمة بنتان تنتظران في موضع دون الناس تنتظران كي تسقيا غنمهما، حيث كانتا لا تقدران على الاقتراب قبل أن يفرغ الرعاة وينصرفوا، فأعانهم موسى عليه السلام، وهما ذكرتا ذلك لأبيهما شعيب عليه السلام، وطلبتا منه مكافأة الشاب الذي ساعداهما، وأما الصغيرة فقالت:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [٢١٢]

يقول عليه الصلاة والسلام:

«قال شعيب عليه السلام لابنته: ما رأيتِ من قوته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه على البر، وما الذي رأيتِ من أمانته؟ قالت: قال لي: امشي خلفي، ولا تمشي أمامي». [٢١٣]



---

٢١٢ القصص، ٢٦.

٢١٣ الهيثمي، ٨، ٢٠٣ ، ٢٠٤.

استشهد أبو جابر بن عبد الله في أُحد وخلَّف عائلة كبيرة وديناً كثيراً. قال جابر بن عبد اللَّه ﷺ، يقول:

«قال لي رسول اللَّه ﷺ:

"لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا". ثلاثا

فلم يقدم مال البحرين حتى قبض رسول الله ﷺ، فلما قدم على أبي بكر ﷺ أمر مناديا فنادى: من كان له عند النبي ﷺ دين أو عدة فليأتني، قال: جابر: فجئت أبا بكر فأخبرته: أن النبي ﷺ قال:

"لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا" ثلاثا، قال: فأعطاني، قال جابر: فلقيت أبا بكر بعد ذلك فسألته فلم يعطني، ثم أتيته، فلم يعطني، ثم أتيته الثالثة فلم يعطني، فقلت له: قد أتيتك فلم تعطني، ثم أتيتك فلم تعطني، ثم أتيتك فلم تعطني، فإما أن تعطيني وإما أن تبخل عني، فقال: أقلت تبخل عني؟ وأي داء أدوأ من البخل، قالها ثلاثا، ما منعتك من مرة إلا وأنا أريد أن أعطيك، وعن عمرو، عن محمد بن علي سمعت جابر بن عبد الله يقول:

«جئته، فقال لي أبو بكر: عدها، فعددتها، فوجدتها خمس مائة، فقال: خذ مثلها مرتين».[٢١٤]

وقد أظهر أبو بكر وفاءه للنبي ﷺ مجدداً بأدائه عهده بدلاً عنه.



٢١٤ البخاري، الكفالة، ٣/ ٤٣٨٣.

وعن أنس ﷺ قال:

«غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال:

«يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع»، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، - يعني المشركين - ثم تقدم»، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد»، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس: «كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾ [٢١٥]». [٢١٦]



٢١٥ الأحزاب، ٢٣

٢١٦ البخاري، الجهاد، ١٢/ ٢٨٠٥.



روي: أن البراء بن معرور ﷺ مات قبل الهجرة، فوجه قبره إلى الكعبة، وكان أوصى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام بثلث ماله يصرف حيث شاء، فقبل وصيته ثم ردها على ولده، ولما قدم النبي عليه الصلاة والسلام وقد مات سأل عن قبره فأتاه، فصف عليه وكبر، وقال:

«**اللهم اغفر له وارحمه، وأدخله الجنة، وقد فعلت**».[٢١٧]



وعن حنش قال :

«رأيت علياً ﷺ يضحي بكبشين، فقلت له: ما هذا؟ فقال: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام أوصاني أن أضحي عنه، فأنا أضحي عنه».[٢١٨]



كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، وفي رواية:

«فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة ﷺ، فأرسل إليه معاوية فسأله؟ فقال: سمعت

٢١٧ ابن عبد البر، ١، ١٥٣؛ ابن سعد، ٣، ٦١٩ ـ ٦٢٠.

٢١٨ أبو داوود، الضحايا، ١ ـ ٢/ ٢٧٩٠؛ أحمد، ١، ١٠٧.



رسول الله ﷺ يقول: "**من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء**"، فرجع معاوية بالناس».[219]

فلا بدّ للمسلم أن يفي بالعهد الذي قطعه على نفسه، سواء كان العهد لمسلم أو غيره.



إن الفضائل السامية كالشجاعة والوفاء بالعهد والإيثار لدى العثمانيين كانت شعاراً ورمزاً يزين تاريخهم، وجزءاً أصيلا من شيمهم وفضائلهم، حتى كان الأوروبيون يستعملون كلمة «تركي ومسلم» للمعنى نفسه، لذلك قالوا: «معنى كلمة الترك، الشخص الموثوق بقوله»، وأفادوا أن العثمانيين لم يكذبوا ويحلفوا بالله كذباً خلافا لبعض الأمم.

ويفيد اللواء الفرنسي القديم كومت دي بونيفيل -والذي التجأ إلى الدولة العثمانية في عهد أحمد الثالث- ما شاهده في هذه الناحية على النحو التالي:

«يُظهر الأتراك وفاء وإخلاصاً دينياً لعهودهم».



---

٢١٩ أبو داوود، الجهاد، ١٥٢/ ٢٧٥٩؛ أحمد، ٤، ١١١، ١١٣، ٣٨٥ـ٣٨٦.



وأما سفير السويد مرادغيا دي أوهسّون فيقول:

«إن الأتراك المسلمين صادقون ومخلصون في أيمانهم وعهودهم إلى أقصى الحدود، ويبذلون قصارى جهدهم في استمرار ذكر اسم الله على ألسنتهم، وليسوا بحاجة إلى أي دليل آخر غير إشهاد الله على أقوالهم».

ثم إن مؤلفاً فرنسياً معروف بعدائه للأتراك في آثاره، وهو هنري ماثيو يرى نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأمر، فيقول:

«إنه من الإجحاف إنكار شجية الشرف ورفعة الخلق لدى الأتراك، والتي هي بمثابة ثروة لا مثيل لا، فهم أناس يرون الصدق أساس الفضيلة، ويعلمون أن الوعد أمر مقدس».



وخلاصة القول، إن الحق تعالى يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٢٠)

٢٢٠ الفتح، ١٠.



فالمسلم هو الذي يُشهد الله تعالى على ما يعِد به، فيكون كل وعْد يقطعه للناس إنما هو وعد لله تعالى، وعندها يتوجب على المؤمن الالتزام بعهده، وأن يكون مؤتمن اليد واللسان لدى الناس، وفِيًّا موثوقا.

يبين الحق تعالى في كثير من آياته أنه «لا مبدل لكلماته» على الرغم من كونه مالك كل شيء، وأن حكم كل شيء يعود إليه، [٢٢١] وعلى المسلم أن يتخلّق بأخلاق الله تعالى، فيكون أميناً وصادقاً، إذا قطع على نفسه وعدا لم يخلفه أبدا..

وأما الإخلاص –الذي امتاز به الأنبياء والأولياء والصديقون– فصفةٌ معنوية تأتي في أعلى المراتب، وتتوّج الحياة البشرية، وعلى هذا فقد عرَّف بعضُ المفسرين الإسلامَ بأنه: الاستسلام لله تعالى والوفاء له إلى جانب التصديق بالقلب والإقرار باللسان.



---

٢٢١ انظر: الكهف، ١٨، إضافة إلى أن المفسر البورسوي يقول بأن إحدى الحيوانات المعدودة التي ستدخل الجنة هو كلب أصحاب الكهف لكونه مع الصادقين، (وللمعلومات التفصيلية انظر: حقي بورسوي، روح البيان، اسطنبول ١٩٦٩، ٥، ٢٢٦).



٥ . الصدق والإخلاص

إحدى أهمّ أوصاف الأنبياء الصدق قولا وعملا، والإخلاص ظاهرا وباطنا، ولقد كان الأنبياء عليه الصلاة والسلام في تبليغ دائم للصدق والإخلاص بأحوالهم وأقوالهم المبنية على الاستقامة الإلهية، وقد ذُكرت في بعض آيات القرآن الكريم أثناء تحدثها عن شخصية بعض الأنبياء، فيقول:

﴿... إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٢٢٢)

ويقول أيضاً في القرآن الكريم:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ...﴾ (٢٢٣)

وللتمكن من الحصول على هذا اللقب المهمّ يلزم بذل بعض الجهود في الدنيا، ويبين الحق تعالى لنا أكثرها أهمية فيما يلي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢٤)

أي إن الإكثار من صحبة الصادقين وسيلة للتحلي بأحوالهم واكتساب صفة الإخلاص.

ويوضح الشيخ سعدي الشيرازي فضيلة صحبة الصادقين، والعاقبة المأساوية لمن يفارقهم فيقول: «لقد فاز قطمير كلب

---

٢٢٢ مريم، ٤١، ٥٦.

٢٢٣ الأحزاب، ٢٤.

٢٢٤ التوبة، ١١٩.

أصحاب الكهف بشرف عظيم -إذ ذكر اسمه في القرآن الكريم- لتواجده مع الصادقين وإخلاصه لهم». [٢٢٥]

وأما زوجات نوح ولوط -عليهما السلام- فقد دخلوا جهنم لأنهم كانوا بصحبة الفاسقين. [٢٢٦]

سيغدو الإخلاص والوفاء رأس المال الأعظم قيمة يوم القيامة الوقتُ الذي يكون الناس فيه أكثر ما يكونون حاجة إلى المساعدة يوم لا ينفع أحدٌ أحداً، فمن عاش بهذا الوصف في الدنيا سيلقى جزاءه الحقيقي في الآخرة، حيث يصلون إلى السلامة بمساعدة الإخلاص والوفاء لهم في أصعب لحظاتهم، يصف لنا الحق تعالى ذلك اليوم بقوله:

﴿...هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾ [٢٢٧]

وكذا فإن ذلك اليوم وفق ما جاءت به الآية:

﴿...أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٢٢٨]

أي للصادقين والصادقات.

---

٢٢٥ انظر: التحريم، ١٠.

٢٢٦ البخاري، بدء الوحي، ٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤؛ الطبري، التفسير، ٦، ٢٤٠؛ ابن كثير، البداية، ٣، ١١٣.

٢٢٧ المائدة، ١١٩.

٢٢٨ الأحزاب، ٣٥.

ويوضح لنا فخر الكائنات ﷺ أهمية الصدق والإخلاص فيقول:

«إنّ الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». [٢٢٩]

صور الفضيلة

كان عليه الصلاة والسلام قمّة الصدق والإخلاص، حتى اعترف بذلك أعتى أعدائه كأبي جهل والأخنس بن شريق والنضر بن الحارث وأبي سفيان -الذي اعتنق الإسلام فيما بعد-، فلم يتكلم النبي عليه الصلاة والسلام بكلمة كذب أبداً، ولم يترك الصدق في جميع قوله حتى في مزاحه.



روي عن أبي سفيان بن حرب بن أمية:

«أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام -في المدة التي هادن فيها رسول الله ﷺ أبا سفيان وكفار قريش- فأتوه بإيليا، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعا ترجمانه، فقال: قل لهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم

٢٢٩ البخاري، الأدب، ٦٩/ ٦٠٩٤؛ مسلم، البر، ١٠٣ ـ ١٠٥/ ٢٦٠٧.



أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم به نسباً، فقال: ادن مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء أن يأثروا علي الكذب لكذبته، ثم قال: أول شيء سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ فقلت: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: يزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل منهم أحد يرتد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في هدنة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكني كلمة أدخل فيها غير هذه الكلمة، قال: فماذا يأمركم به؟ قال: قلت: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمر بالصلاة والصدقة، وبالعفاف وبالصلة، قال: فإن كان ما تقول حقاً فإنه يوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، وهو نبي...». [٢٣٠]



٢٣٠ البخاري، بدء الوحي، ٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤.



وقد قال رسول اللّه ﷺ:

«اكفَلوا لي بستٍّ أَكفَلْ لكم بالجنّةِ:

1. **إذا حدثَ أَحدُكم فلا يَكذبْ،**
2. **وإذا ائتُمِنَ فلا يَخُنْ،**
3. **وإذا وَعَدَ فلا يُخلِفْ،**
4. **غُضُّوا أَبصارَكم،**
5. **وكُفُّوا أَيديَكم،**
6. **واحفَظوا فُروجَكم».** [٢٣١]



وعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال:

«دعتني أمي يوماً ورسول اللّه ﷺ قاعدٌ في بيتنا، فقالت: تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ:

"ما أردت أن تعطيه؟"

قالت: أردت أن أعطيه تمراً، فقال: رسول الله ﷺ:

"أما إنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة"». [٢٣٢]



---

٢٣١ المعجم الأوسط، جـ ٣، ص٧٧/ ٢٥٣٩، أحمد، مسند، ٥، ٣٢٣.

٢٣٢ أبو داوود، الأدب، ٨٠/ ٤٩٩١؛ أحمد، ٣، ٤٤٧.



وعن أبي هريرة رضي الله عنه:

«أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبْرَة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: "**ما هذا يا صاحب الطعام؟**"،

قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال:

"**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشّ فليس مني**"».[٢٣٣]

فعلى المسلم ألا يفارق الصدق في كل أحواله وتصرفاته، وألا يخون أحداً.



كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وتابعيهم بإحسان، يسافرون شهروا ويقطعون الفيافي البعيدة في سبيل الحصول على حديث من أحاديث رسول الله ﷺ، وقد وصلوا في التربية النبوية إلى حدٍّ من الفضيلة جعل أحدهم لا يعتمد حديث شخص رآه يُري حيوانه كيس التبن الفارغ كي يجرّه نحوه لأنه رأى في تصرفه هذا ضعف الشخصية، فكانوا لا يعتمدون على أخلاق من هم كذلك، أي إنهم لا يرون من يحمل في طيات نفسه مشاعر خداع وتضليل -حتى لحيوان- لائقاً لنقل حديث رسول الله ﷺ، لأنه لا يعيش بمقتضى أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام.



---

٢٣٣ مسلم، الإيمان، ١٦٤.

وعن مالك أنه بلغه أنه قيل للقمان:

«ما بلغ بك ما نرى يريدون الفضل فقال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني».[٢٣٤]



لما أراد نور الخلق سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام إخبار مشركي قريش عن الإسراء والمعراج، قال:

«**يا جبريل! إن قومي لا يصدقونني**»، فرد جبريل عليه السلام: «سيصدقك أبو بكر، فهو الصدِّيق».[٢٣٥]

وقد ذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له:

«هل لك يا أبا بكر في صاحبك!!، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيتَ المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة!...»

فقال لهم أبو بكر: «إنكم تكذبون عليه...»

فقالوا: «بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس».

فقال أبو بكر:

«والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجّبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه! فهذا أبعد مما تعجبون منه».

٢٣٤ الموطأ، الكلام، ١٧.

٢٣٥ ابن سعد، ١، ٢١٥.



ثم أقبل حتى انتهى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: «يا نبي الله، أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟»... قال: "**نعم**"... قال: «يا نبي الله فَصِفْه لي، فإني قد جئته»... فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "**فرُفِعَ لي حتى نظرت إليه**"... فجعل الرسول الكريم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر: «صدقت، أشهد أنك رسول الله»... حتى إذا انتهى قال الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي بكر: "**وأنت يا أبا بكر الصديق**"... فيومئذ سماه الصديق».[٢٣٦]

واشتهر أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك اليوم بلقب «الصديق».

هذا هو الصدق في الإيمان... فكل ما في الأمر البحث عن الحقيقة والالتزام بها...



روي «أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه على الفرس، ولا يعلمون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسولَ الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: "**أوليس قد ابتعته منك؟**" فقال الأعرابي: لا والله، ما بعتُكه، فقال النبي ﷺ: "**بلى، قد ابتعته منك**"، فطفق الأعرابي يقول:

---

٢٣٦ ابن هشام، ٢، ٥.



هلم شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت ﵁: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي عليه الصلاة والسلام على خزيمة فقال: "**بم تشهد؟**" فقال: بتصديقك يا رسول الله! فجعل النبي عليه الصلاة والسلام شهادة خزيمة بشهادة رجلين».[٢٣٧]



وفي رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لخزيمة: "**لِمَ تشهد ولم تكن معنا؟**" قال: يا رسول الله أنا أصدّقك بخبر السماء، أفلا أصدّقك بما تقول؟ فقال رسول الله : "**من شهد له خزيمة أو عليه فحسبه**".

وهذه إحدى الأمثلة التي تعتبر ممجدة في الصدق لله ورسوله عليه الصلاة والسلام...



لم يتخلف كعب بن مالك عن غزوات النبي عليه الصلاة والسلام، وأما غزوة تبوك، فقد فاتته بمماطلته، يقول أتجهز اليوم أو غداً، وهكذا إلى أن ارتحل رسول الله ﷺ ومن معه، وبقي كعب في المدينة، ولما رجع النبي ﷺ من غزوته، طلب كعبٌ وبعض من معه العفوَ من الله ورسوله بقولهم الحقيقة في حين وجد غيرهم لأنفسهم أعذاراً قدموها للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد نزلت الآية

٢٣٧ أبو داوود، العقود، ٢٠/ ٣٦٠٧؛ النسائي، السحر، ٩١؛ أحمد، ٥، ٢١٥_٢١٦.



الكريمة التي بينت قبول توبتهم بعد خمسين يوم، وقد لاقوا في هذه المدة الكثير من الشدائد، حيث ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، إلا أنهم غدوا صورة لعفو الله تعالى لصدق توبتهم، ويذكر لنا كعب الذي تمسك بالصدق واعترف بتقصيره الفائدة التي وجدها للصدق بما يلي: «فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته، فأهلِك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه؛ فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما يقال لأحد؛ فقال الله ﷻ:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة، ٩٥-٩٦)».[٢٣٨]



«بعد غزوة أحد كانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت في نسوة تستروح الخبر، حتى كانت بمنقطع الحرة، لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام، تسوق بعيراً لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام، فقالت لها

٢٣٨ البخاري، المغازي، ٧٩.



عائشة ﵂: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خير، أما رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، فقالت لها عائشة ﵂: فمن هؤلاء؟ قالت: أخي وابني وزوجي قتلى، قالت فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم بها، (حل حل)، تزجر بعيرها، فبرك البعير، فقالت عائشة ﵂: لثقل ما حمل، قالت هند: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمله البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته فقام، فلما وجهت به إلى المدينة برك، فوجهته راجعة إلى أحد، فأسرع، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فقال ﷺ: "**إن الجمل لمأمور، هل قال عمرو شيئا**"، قالت: نعم، إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة، ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي، وارزقني الشهادة، فقال ﷺ: "**فلذلك الجمل لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قُتل إلى الساعة، ينظرون أين يُدفن**"، ثم مكث رسول الله ﷺ في قبرهم، ثم قال: "**يا هند، قد ترافقوا في الجنة**"، قالت هند: يا رسول الله، ادع الله، عسى أن يجعلني معهم».[٢٣٩]



٢٣٩ الواقدي، ١، ٢٦٥ ـ ٢٦٦؛ ابن حجر، فتح الباري، ٣، ٢١٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣، ١١٦٨.



لما نزل الرسول ﷺ بالحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى قريش وقال له: "**أخبرهم أنّا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عِمَاراً**"، فانطلق عثمان، فأتى قريشاً، فقالوا: إلى أين؟ فقال: بعثني رسول الله أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ويخبركم: أنه لم يأت لقتال، وإنما جئنا عُمَّاراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ إلى حاجتك، ولكن عثمان احتبسته قريش فتأخر في الرجوع إلى المسلمين، وقد قالت له قريش: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.[٢٤٠]

وقد شقّ على المسلمين جميعهم فكانوا يكتوون بنار حسرة الطواف، بل إن بعضهم غبط عثمان رضي الله عنه لظنهم أنه سيطوف بالبيت، وكان البعض الآخر متردداً، فقد يُظهر عثمان رضي الله عنه إخلاصاً عظيماً ومثالاً في الإيثار ولا يطوف بالكعبة ما لم يؤذن لكل المسلمين.

وقد كان الأمر كما توقعته الفئة الثانية،[٢٤١] حيث قال عثمان حين رجع وقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، بئس ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولو دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت.[٢٤٢]

---

٢٤٠ أحمد، ٤، ٣٢٤.

٢٤١ حديث مقطوع.

٢٤٢ أحمد، ٤، ٣٢٤.

كان السلطان يافوز سليم خان -على جلادته المعروفة والمشهورة- إنساناً شديد الحساسية ورقيق القلب، إلا أن توحيد الدولة واستمرارها اضطر سلاطنة العثمانيين إلى اتخاذ قرارات صعبة، علما أن السلطان يافوز سليم خان أيضاً تخلّص من أخيه كوركوت نتيجة لهذا الإلزام، ثم خرج في جنازته، وحمل تابوته وبكى قائلاً:

«يا أخي! ليتك لم تفعل ذلك ولم أضطر إلى فعل ذلك...».

وكان قد قال لصاحب ولي العهد -والذي يدعى بياله- مظهراً تقديره له:

«إني أصفح عنك بسبب فضيلتك العظيمة وهي صدقك! ومكافأة لإخلاصك أودّ تعيينك في المقام الذي تريد، وإذا رغبت جعلتك وزيري».

وأما هو فقدْ شكرَه وقال مضاعفاً في إخلاصه وصدقه:

«مولاي! إن وظيفتي -بعد الآن- أن أكون خادم قبر وليّ العهد...».



وفحوى الكلام أن على المؤمن أن يسجل اسمه في مقام الصادقين، وأن ينتسب إليهم في قوله وفعله ونيّته، وبذلك يرى فائدة صدقه في الدنيا والآخرة، وما أجمل ما يقوله ضياء باشا:

«لا يليق بالإنسان إلا أن يكون صادقاً حتى لو أكره، فإنّ الحق تعالى سيعينه!»



٦ . الرضا عن الله ﷻ

إن السرور والضيق -المبالغ فيهما- فخٌّ كبير لنفس الإنسان، وأما «**الرضا بالحال التي قدرها الله تعالى**» وما ينجم عنه من «**الصبر والتوكل**»، صفة فارقة للمؤمنين الكاملين.

إنَّ قاعدة السعادة التي لا تخطئ أبداً، هي جعلُ العقل منقادا للوحي، وتزيينُ القلب بالأخلاق الحسنة وإظهارُ الرضا بمفاجآت الحياة غير المنتظرة بفضل ذلك، والسعادة الحقيقية إنما تتحقق أيضاً بتقبل المد والجزر على ما هما عليه في الحياة، وتحمل مشقاتها، وصرف الجهود لإصلاحها، والنظر إلى كل الأمور من حولنا بإيجابية والتوكل على الله تعالى.

وكم هي حسنة نصيحة لقمان الحكيم التالية:

«يا بني! لا تشغل فؤادك بالمآسي والأحزان! واحذر الطمع، وارض بالقدر، واقنع بما أعطاك الله تعالى كي تحلو حياتك، ويمتلأ قلبُك بالسرور، وتجد حلاوة الحياة».

ثم إنه ثمة تنافٍ بين إظهار الرضا أمام التجليات والحوادث التي تبعث المسرة في القلب، وبالمقابل إبداء السخط في الحوادث الجالبة للحزن والغم، إلا أنه ليس بمقدور الإنسان التخلص بسهولة من هذا الضعف البشري طالما أنه لم يبلغ قمة النضج المعنوي، وإن هو زكَّى نفسه وبلغ بها مرتبة «**الراضية**»، يُذعن ويظهر الرضا بكل أحكام القضاء للإرادة الإلهية التي تظهر على شكل خير أو شر من



دون أي تردد، ولا يكون شاكياً على الإطلاق، ويالعظمة البشرى الإلهية لمثل هؤلاء:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٢٤٣]

فيسهل على الإنسان القيام بالشيء المحبوب وتحمّله، فيؤدَّى بسرور، والمؤمن المحب لربه تعالى يسهل عليه كل ما يأتيه من ربه تعالى، ويتلذذ به ويسرّ.

إن الصالحين –راسخي الإيمان– يُظهرون الرضا بقضاء الله تعالى، لأنهم يعلمون أنه لا يصيبهم إلا ما قدره الحق تعالى، وبفضل هذا يرون أن كل ما يصيبهم في دنياهم لا يبدو شيئاً أمام عذاب الآخرة، ولذلك يمنُّ الله تعالى على قلوب هؤلاء الراضين بالطمأنينة والسكينة، فهم يرون تجليات الحق تعالى عليهم أولَى ألف مرة من مسرات هذا العالم الفاني ومُتَعِه بعد أن ارتقوا بفهم عن الله ولم يتابعوا العوام في ظنونهم وأوهامهم.

يقول نبينا الأكرم عليه الصلاة والسلام:

«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».[٢٤٤]

---

٢٤٣ الفجر، ٢٧ ـ ٣٠.

٢٤٤ الترمذي، الزهد، ٥٧/ ٢٣٩٦؛ ابن ماجة، الفتن، ٢٣.



وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ:

«**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنّ "لو" تفتح عمل الشيطان**».[٢٤٥]

وهكذا يقع الإنسان المتذمر في هاوية الاعتراض على الله تعالى قائلاً: «يا ليتني فعلت هذا وهذا» فيتلبس أحوالا تنافي الإيمان كعدم الرضا والاعتراض على القدر والنفور من إرادة الله تعالى، والإنسان بهذا الحال يسعد الشيطان و يسلم قياده إيه حتى يهوي به في مهاوي الخسران، في حين أن الرضا بالحال يبلِّغ الإنسان رضا الله تعالى، فبعد أن أحصى في القرآن الكريم كل ما يسعد مما في الدنيا والآخرة قال:

﴿... **وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٢٤٦]

صور الفضيلة

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنهما:

«كنا عند النبي ﷺ فأرسلتْ إليه إحدى بناته تدعوه، وتخبره أن صبياً لها أو ابناً لها في الموت، فقال النبي ﷺ للرسول:

٢٤٥ مسلم، القدر، ٣٤/ ٢٦٦٤؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٠/ ٤١٦٨.

٢٤٦ التوبة، ٧٢.

"ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمُرْها فلتصبر ولتحتسب"

فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينَّها، قال: فقام النبي عليه الصلاة والسلام وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، وانطلقت معهم، فرُفِعَ إليه الصبي ونفسُه تقعقع كأنها في شنة، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام:

"هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم اللهُ من عباده الرحماءَ"».[٢٤٧]

كان السلام الأول الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى ابنته، ووصاياه التي أوصاها بها، إظهارَ الرضا التام على المصيبة، والمعرفة الحقيقية تكمن في الخضوع والاستسلام بإظهار الرضا في تلك اللحظة المؤلمة، وأما حاله الثانية فلم تكن كما ظنّ بعض الصحابة -للوهلة الأولى- عصيانا للقدر -الذي كان ينهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام من البكاء بصراخ وعويل وتمزيق للباس- وإنما صورة من مشاعر الرحمة التي تفضّل الله تعالى بها على عباده.



٢٤٧ البخاري، الجنائز ٣٣، الأيمان ٩، المرضى ٩؛ مسلم، الجنائز ٩، ١١.



يقول عليه الصلاة والسلام مبيّناً جزاء المؤمن الراضي:

«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم .فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد».[٢٤٨]



وعن رسول الله ﷺ قال:

«إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين، فقال: انظرا ماذا يقول لعواده، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله ﷻ، وهو أعلم، فيقول: لعبدي عليَّ إن توفيتُه أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيتُه أن أبدله لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، وأن أكفِّر عنه سيئاته».[٢٤٩]



وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«قال رسول الله ﷺ:

"من يأخذ عني هؤلاء الكلمات، فيعملُ بهن أو يعلِّم من يعمل بهن؟"

---

٢٤٨ الترمذي، الجنائز، ٣٦/ ١٠٢١.

٢٤٩ الموطأ، العين، ٥.



فقال أبو هريرة رضي الله عنه: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي، فعد خمساً، وقال ﷺ:

١. **اتق المحارم تكن أعبدَ الناس،**

٢. **وارضَ بما قسم اللهُ لك تكن أغنى الناس،**

٣. **وأحسِن إلى جارك تكن مؤمناً،**

٤. **وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً،**

٥. **ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».**[٢٥٠]



«بينما النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال: يا محمد، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟

فقال: **"يا جبريل، أنفقَ ماله قبل الفتح عليَّ"،**

قال: فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام، وقل له: يقول لك ربك: أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر فقال:

٢٥٠ الترمذي، الزهد، ٢/ ٢٣٠٥؛ ابن ماجة، الزهد، ٢٤.



"يا أبا بكر، هذا جبريل يقرئك من الله سبحانه السلام، يقول لك ربك: أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟".

فبكى أبو بكر ﵁ وقال: على ربي أغضب؟ أنا عن ربي راض، أنا عن ربي راض».(٢٥١)



وروي أنه «الْتَقَى يُونُسُ وَجِبْرِيلُ عليهما السلام، (ذات مرة) فقال يونس يا جبريل: دلَّني على أَعبد أهل الأرض؟ قال: فأتى به على رجل قد قطع الجذام على يديه، ورجليه، وهو يقول: متعني بهما حيث شئت، واسلبنيهما حيث شئت، فأبقيت لي فيك الأمل، يا بار بي يا وصول...».(٢٥٢)



كان أيوب ﵇ يعيش أشدّ أيام مرضه:

«فقالت له زوجته يوماً: إنك نبي، فلو دعوت الله ليفرج عنك فقال: كم لبثنا بالرخاء قالت: ٨٠ سنة، قال: إني لأستحي من الله أن لا أمكث في البلاء ما مكثت في الرخاء، وكما شكرته على نعمه التي توالت علي كثيرا، فلأصبرن على ما ابتلاني به من مصائب».

٢٥١ أبو نعيم، الحلية، ٦، ١٠٥؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

٢٥٢ عبد القادر الجيلاني، الفتوح الربانية، (مجالس عبد القادر الجيلاني)، اسطنبول ١٩٨٧، ص: ٤٢١.



موقف أيوب ﷺ هذا يقدم لنا أروع مثال على الرضا، حيث إن أيوب ﷺ وعلى كل ما نزل به من مصائب وعناء استحى أن يشتكي من مرضه أو يعترض على الله تعالى، أو حتى أن يطلب الصحة والشفاء منه تعالى، كل ذلك حتى يكون معترضا أو مشتكيا على الله تعالى، وأخيراً وتحت وطأة إصرار زوجه تضرع إلى ربه كما جاء في القرآن الكريم:

﴿... ربِّ إنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢٥٣)

وبعد هذا الدعاء أذهبَ الله تعالى ما به من البلاء لتكون ذكرى رحمة للمستمرّين في العبودية، فشفاه من دائه وأكرمه بالمال والبنين مجدداً، وقد قال الحق تعالى في أيوب ﷺ -الذي بلغ الذروة في مقام الصبر والشكر والرضا بالحال- مثنياً عليه: ﴿نِعْمَ الْعَبْد...﴾(٢٥٤)



ويوضح مولانا أن الصحبة والمحبة الحقيقية إنما تتحقق بتحمل أذى الصديق وجفائه برحابة صدر، وإظهار الرضا عنه دائما، حيث يبين ذلك في الحادثة التالية:

«كان لأحد السادة (أفندي) أصحاب مقربون زاروه وأحضروا معهم شمّاماً هدية منهم، وهو بدوره دعا خادمه الصادق لقمان -صاحب المشاعر العميقة والذي يحبه ويعدّه صاحبه-.

---

٢٥٣ الأنبياء، ٨٣.

٢٥٤ ص، ٤٤.



ولما أتى لقمان أكرمه سيده بقطعة من الشمام كان قد اقتطعها له، فتناول لقمانُ القطعةَ بشهية وكأنها عسل بالقشدة، فأعطاه سيده قطعة ثانية، إذ كان يشعر بالسرور لاستمتاع خادمه المخلص لقمان بلذة الشمام، وهكذا إلى أن بقي من الشمام قطعة أخيرة، فقال سيده:

«وأما هذه فلآكلها أنا، وأرى مدى لذتها»، إلا أنه بمجرد تناوله لتلك القطعة، قذف بها من فمه لشدة مرارتها، واِلْتوى لسانه، واحترق حلقه، حتى إنه فقد صوابه من شدة مرارة الشمام، وقال عقب هذا للقمان:

«يا خادمي الغالي، يا ثروتي، كيف تناولت سمّاً كهذا بكل لذة وتمتع؟ وكيف وجدت هذا القهر لطفاً؟ من يدري، كم تحمّلت من الآلام حتى الآن ولم يتمعّض وجهك؟ أو أنك عدوّ روحك الحلوة، لِمَ لَمْ تقل شيئاً؟ لماذا لم تقل اعذروني لا يمكنني تناوله الآن؟».

فقال لقمان: «كيف أرد شيئا ولو كان مرا من يدي مولاي، وأنا الذي طالما أكلت من يدكم أشهى الأطعمة وألذّها، فأنّى لي أن أقول لشيء قدمتموه لي «إنه مرٌّ، لا يؤكل ؟»، ثم إن كل مرارة تصير حلوة من يدكم، لأن كل خلية في جسدي غدت تنبض بالشكر لنعمكم».

وتابع لقمان يُفيض مما في قلبه من محبة ووفاء قائلاً:

«يا مولاي! رغم أنفي مئات المرات إنْ أنا توجعت من ألم يأتي من قِبلكم، كيف لطعم يدك المتفضلة أن تترك في الشمامَ

مرارة؟ فإن المرارة تحلو بالطيب، ويغدو النحاس ذهباً بالمحبة، وبالمحبة تصفى الرواسب وتنقى، وبالمحبة تجد العلل المعضلة الشفاء، وبالمحبة تُبعث الأموات، ويتحول السلاطنة عبيداً، وتصبح الزنزانات رياض ورد، وبالمحبة تضاء البيوت المظلمة، وبالمحبة يصير النار نوراً، وبها أيضاً يغدو الدميم كالحور، وبالمحبة ترتد الأحزان والهموم سعادة وسروراً، ويتحول الضالين عن الطريق وقطّاعه بفضل المحبة مرشدو سعادة يهدون إلى الطريق السّوي، وبفضلها تتحول الأسقام صحة وعافية، وبالمحبة يصير الأسى رحمة».

هذه هي أبرز علامات محبة الله تعالى، وهذا هو حال الرضا الحقيقي.



سئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

«ما الذي تحبه: فقال: أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر...».



وفيما يلي محادثة بين عبد ومولاه ذات عبرة:

«اشترى رجل عبداً، وكان العبد مؤمنا صالحا تقيا، فأخذه سيده إلى بيته، وقد جرت بينهما هذه المحادثة:



السيد: «ما الذي ترغب في تناوله في بيتي؟»

العبد: «الذي تقدمه».

السيد: «ما هي الملابس التي تريد ارتداءها».

العبد: «ما تجعلني ارتديه».

السيد: «أي غرف منزلي تودّ البقاء فيها؟».

العبد: «في الغرفة التي تريدني أن أبقى فيها».

السيد: «أي الأعمال التي تريد القيام بها عندي؟» .

العبد: «الأعمال التي تريدني القيام بها».

وبعد هذا الجواب الأخير صمت السيد برهة يفكّر، ثم قال وهو يمسح عن عينيه الدموع المنهمرة:

«ليتني كنت أنا أيضاً مستسلماً لربي على هذا النحو، لغدوت سعيداً جداً حينها! ...».

فقال العبد في هذه الأثناء:

«يا سيدي! أللعبد إرادة واختيار أمام إرادة سيده؟،

فقال السيد معقباً على هذا:

«إني أُعتقك، أنت حرٌّ لوجه الله، لكني أتمنى أن تبقى بصحبتي، كي أخدمك بنفسي ومالي...».

إن من يعرف الله حق قدره ويذعن إليه بمحبة حقيقية، ويظهر الرضا بما قدره له، لا تبقى لديه إرادة ولا اختيار، فهو يقول بعد ذلك: «وما لي أن أطلب من الله!؟». [٢٥٥]



سأل سنبل سنان أفندي يوماً مريديه:

«لنفرض مثلاً أن الله تعالى سلم تنظيم وإدارة هذه الكائنات لكم، ماذا كنتم فاعلين؟ فسرد المريدون -الذين لم يخطر لهم قبلاً مثل هذا السؤال- مختلف الآراء، حذراً من الوقوع في عدم اللّباقة بالامتناع عن الجواب: فأجابوا بأجوبة كالتالي:

«يا سيدي كنت لا أدع على وجه الأرض أي كافر»، «كنت قضيت على كل شر» ، «كنت أهلكت شاربي الخمر».

وكان من بينهم واحد يصمت لا يعطي أي جواب، فلفت انتباه الشيخ، وقال له وهو ينظر إليه: «وأنت يا بني، ماذا كنت فاعلاً؟ ، فقال المريد وقد احمّر وجهه من الحياء، مع ظهور العجز الكبير: «سيدي! أفي تدبير وإدارة الله تعالى هذه الكائنات -حاشاه- نقص، كي أقوم أنا بغير ذلك؟ ثم إنه وباستمرار التنظيم الإلهي في الكائنات ضمن تدفّق قدرة تفوق التصور كيف لي بعقلي وإرادتي العاجزتين

٢٥٥ الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، بيروت ١٩٩٠، ص: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.



والمحدودتين أن أقول: «كنت قمت بهذا على هذا النحو، وذاك على هذا الشكل». ووجّه نظره إلى الأرض من حيائه.

وأما الشيخ فقد رضي إلى أقصى الحدود بهذا الجواب الحكيم، وقال بوجهٍ متبسمٍ مشرقٍ رامقاً مريده بنظرات عميقة: «لقد وجد العمل الآن مركزه!..».

وبعدها بقي اسم ذلك المريد «مركز أفندي» ونُسي اسمه الأصلي والذي هو موسى مصلح الدين.



وباختصار فإن الرضا بالحال مظهر من مظاهر محبة الله تعالى والتوكل عليه، والرضا بما جاء من عند الله تعالى مرتبة سامية يتعذر اكتسابها إلا من قبل عباد الله تعالى الواصلين إلى المعرفة بعد التخلص من الحسد والغيرة.

الله تعالى أعلم بما يصلح لعبده وما فيه خيره، ولذا فإن الطريق الأقوم الرضا بالقضاء الإلهي والتمكن من الشكر في كل حال، وقد نبّه الحق تعالى فقال:

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٥٦]

---

٢٥٦ البقرة، ٢١٦.



٧ . التوكل والاستسلام

إن التوكل يعني «التحمل، الاعتماد، الثقة بالوكيل»، أي الثقةُ بالله والِالْتجاء إليه ممن كان فؤاده ممتلئا حبه وطاعة له. ثم إن إحدى أسمائه تعالى «**الوكيل**»، وهذا الاسم الشريف يأت لمعان منها:

«واضع الأمور المحوّلة إليه على ما ينبغي في مكانها، وتحقيقها على نحو أحسن مما سيقوم به أصحابها، والمتوكَّل عليه وجاعل كل شيء تحت تصرفه وحكمه».

ومن الضروري كونه المرجع الموثوق الوحيد في كل شأن، والخالد والأبدي، على الإطلاق، وإلا فلا يكون ثمة معنى للاعتماد، يقول الحق تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾[٢٥٧]

يأمل الله تعالى من عباده أن يثقوا به وحده ويعتمدوا عليه، يقول في الآيات الكريمة:

﴿...وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٢٥٨]

﴿... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٢٥٩]

---

٢٥٧ الفرقان، ٥٨.

٢٥٨ إبراهيم، ١١.

٢٥٩ الطلاق، ٣.



ويقول عليه الصلاة والسلام:

«لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».[٢٦٠]

وأما الاستسلام، فهو يأتي بمعنى الخضوع وقَبول الحوادث من غير اعتراض، والاستسلام لمراد الله تعالى، فالتسليم عمل من أعمال القلب وهو خلاصٌ من الريب المتعلق بالأمور المخبرة من قبل الله تعالى، والشهوات النفسية المعارضة للأوامر الإلهية والرغبات المتنافية مع الإخلاص وعلة رد التقدير الإلهي وشريعته الشريفة، تقول الآية الكريمة:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢٦١]

والتسليم والإسلام مشتقان من الجذر نفسه، ولذا فإنه يتعذر عيش الإسلام بحقّ والاتصاف بالعبودية الحقّة، إلا بالاستسلام، لأن الله جل جلاله لا يرضى أن يكون عبده عبداً لغيره.

إن التسليم طاعة مستندة إلى المحبة، وببركة هذه الطاعة والتسليم لم تُشكّل نفس إبراهيم عليه السلام ولا ماله ولا ولده أي مانع في طريق ربه العليّ، وبالمقابل من ذلك أصبحت عبادة الحج أروع

---

٢٦٠ الترمذي، الزهد، ٣٣/ ٢٣٤٤؛ ابن ماجة، الزهد، ١٤.

٢٦١ النساء، ٦٥.

رمز -سيدوم حتى القيامة- لتوكله واستسلامه لله تعالى، لأن لسان إبراهيم عليه السلام كان يتحدث عن قلبه على الدوام قائلاً:

﴿... أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٦٢]

إن التصوف -الذي هو جوهر الإسلام- يتخذ المحبة أساساً ويهدف إلى تثبيت شعور الرضا والاستسلام لله تعالى في الأفئدة، لكي يتمكن العبد من العيش باستقامة يتقرب في كل نَفَس من ربه أكثر فأكثر، لأن تأثير آلاف الآلام والمآسي والأحزان المحيطة بهذا العالم الفاني وكثافة الخدع النفسية لا تقلُّ إلا بالرضا بالحق والاستسلام، وكم هو جميل ما يقوله إبراهيم حقي أرضرومي:

«أنت توكل على الله، واستسلم لتلقى الراحة، وارض بكل شيء، لنر ما يصنع المولى، فإن كل ما يفعله يكون حسناً!..».

صور الفضيلة

جاء بدويٌّ إِلَى النّبي ﷺ، فَقال:

«يا رسول اللّه أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟

قَالَ: "أعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ"». [٢٦٣]



٢٦٢ البقرة، ١٣١.

٢٦٣ الترمذي، القيامة، ٦٠/ ٢٥١٧.



وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت:

«ما خرج النبي ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء، فقال: **"اللهم، أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علي"**».[٢٦٤]



روى جابر بْن عبد الله رضي الله عنهما:

«أنه غزا مع النبي ﷺ، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة، فعلق بها سيفه، ثم نام، فاستيقظ وعنده رجل وهو لا يشعر به، فقال النبي ﷺ:

"إن هذا اخترط سيفي، فقال: من يمنعك؟ قلت: الله، فشام السيف، فها هو ذا جالس"، ثم لم يعاقبه».[٢٦٥]

لم يشعر سيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام -حتى عندما بقي وجهاً لوجه مع الموت- بأي خوف بفضل توكله على الله تعالى، وأجاب بقوله: «الله يحميني»، وفي هذه الأثناء كان السيف قد وقع من يد البدوي، واستسلم، ولم يعاقب سيدُ العالمين عليه الصلاة والسلام هذا البدوي الذي قصد قتله، بل بيّن له

---

٢٦٤ أبو داوود، الأدب، ١٠٢-١٠٣/ ٥٠٩٤؛ الترمذي، الدعوات، ٣٥.

٢٦٥ البخاري، الجهاد، ٨٤، ٨٧/ ٢٩١٣؛ مسلم، الفضائل، ١٣..



الإسلامَ ودعاه إليه، فقال البدوي –الذي استحيا أمام هذا التصرف الإنساني الرفيع– لقومه يصف النبي ﷺ: «لقد جئتكم من عند خير الناس».[٢٦٦]



يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«لما كنت مع النبي ﷺ في الغار أثناء الهجرة، نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرَنا تحت قدميه، فقال:

"يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما"».[٢٦٧]



وقد روي أنه عليه الصلاة السلام:

«كان يُحرَس حتى نزلت هذه الآية: ﴿... **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**...﴾ (المائدة، ٦٧)».[٢٦٨]

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقلت: يا رسول الله، ما شأنك؟ قال: **"ألا رجل صالح يحرسنا الليلة؟"** فقالت: بينما نحن في ذلك

---

٢٦٦ ابن كثير، البداية، ٤، ٨٧

٢٦٧ البخاري، التفسير، ٩/ ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١.

٢٦٨ السيوطي، لباب النقول، ١، ١٤٨.



سمعت صوت السلاح، فقال: "**من هذا؟**" قال: سعد، وحذيفة، جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه، ونزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة أدم، وقال:

"**انصرفوا أيها الناس، فقد عصمني الله**"». (٢٦٩)

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يتوكّل على ربه بعد أن يأخذ حيطته وحذره، ثم بعد أن وعد الله بعصمته توكل على الله تعالى من دون أي قلق.

وحسبما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

«جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله ﷺ: "**اسقه عسلاً**"، فسقاه، ثم جاءه، فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة، فقال: "**اسقه عسلاً**"، فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال: رسول الله ﷺ: "**صدق الله، وكذب بطن أخيك**" فسقاه فبرأ». (٢٧٠)

وبقوله هذا نرى توكل رسول الله ﷺ واستسلامه للّه من خلال إشارته إلى الحقيقة المبينة في الآية ٦٩، من سورة النحل: ﴿**فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾ ومن ثم بلغ الصحابي مراده بالتجائه إلى التوكل والتسليم.



---

٢٦٩ انظر: البخاري، التفسير، ٣/ ١٣.

٢٧٠ البخاري، الطب، ٤؛ مسلم، السلام، ٩١.

وحسب رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه فإن عبارة «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام، قبل إلقائه في النار، وقد قالها سيدنا عليه الصلاة والسلام عندما قيل له: «إن الناس قد جمعوا لكم، فانظروا ما أنتم فاعلين»، وزاد إيمان المسلمين وقدموا نموذجاً كبيراً في التسليم لله قائلين جميعاً: «حسبنا الله ونعم الوكيل». [٢٧١]

ويثني الحق تعالى على أهل التوكل هؤلاء بقوله:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [٢٧٢]» [٢٧٣]



ويبيّن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما يلي من الأحاديث التالية -بشكل جليٍّ- حفظَ الحقِّ تعالى لأهل التوكل في الدنيا والآخرة، وأنه سيدخلهم جنته دون حساب أو عقاب: فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

---

٢٧١ ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، عمان ١٩٩٠، ص: ٦٥٠.

٢٧٢ آل عمران، ١٧٣ ـ ١٧٤.

٢٧٣ الواحدي، ص: ١٣٥.



«عُرِضَتْ عليَّ الأممُ، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه، ولكن انظرْ إلى الأفق فنظرتُ، فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: ما الذي تخوضون فيه، فأخبَروه، فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم...».[٢٧٤]



لقد امتحن الحق تعالى سيدنا إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليهما السلام بكثير من الابتلاء العظيم، ما جعلهم في نهاية المطاف يُسَجَّلون واحداً تلو الآخر في التاريخ نماذجَ للتسليم، حيث أبَّد الحق تعالى إخلاصهم في التسليم بعبادات العمرة والحج مكافأة لهم.

---

٢٧٤ مسلم، الإيمان، ٣٧٤؛ البخاري، الرقاق، ٥٠.



لما اتخذ الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام خليلاً قالت الملائكة: «له زوج وولد، فقال الله تعالى: ما في قلبه غيري اذهبوا فجربوه...»، فشهدوا كلهم على هذه الصور ذات العبرة والاختبارات الشديدة لإبراهيم عليه السلام، وحين جيء به إلى النَّار، قالت الملائكةُ في السماء لِخَالق الأرض والسماء: يا ربَّنا، ما في الأرض أَحَدٌ يعبدك سوى إبراهيم، فأْذَنْ لنا في نُصْرته! فقال سبحانه: «إنِ استغاث بأحدٍ منكم فلْيَنصُره، وإن لم يَدْعُ غيري، فأنا وليُّه، والله وليُّ الصالحين»، ورمَوْه من مكان بعيدٍ نحو النار، وهو في طريقه إليها أتاه جبريل عليه السلام قال له: يا إبراهيم، ألك حاجَة؟ فقال: أمَّا إليك، فلا، وأمَّا إلى الله، فنعَم! فقال له جبريل: فلم لا تَسأله؟ فقال إبراهيم عليه السلام: «حَسْبِي الله ونعم الوكيل».

ثم وبناء على هذا التسليم العظيم من خليل الله تعالى وتوكله عليه لا غير أمر الله تعالى قبل وقوع إبراهيم عليه السلام فيها:

﴿... يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢٧٥)

وبهذا الأمر تحول المكان الذي وقع فيه إبراهيم عليه السلام روضة غنّاء، وبدأ يجري فيها نبع عذب.



---

٢٧٥ الأنبياء، ٦٩.



ويقول عليه الصلاة والسلام:

«جاء إبراهيم بالسيدة هاجر وبابنها إسماعيل وهي ترضعه إلى مكة... ، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [٢٧٦]». [٢٧٧]



ولما كبُر اسماعيل عليه السلام وصار في سنٍّ يسمح له باللعب والركض، حيث كان في أكثر مراحل العمر محبة، كان على أبيه إبراهيم عليه السلام أن يوفّي بما وعد الله تعالى وذلك بأن يضحي بولده سيدنا إسماعيل، فلما كان في الطريق لذبح ولده قالت الملائكة وقد

---

٢٧٦ إبراهيم، ٣٧.

٢٧٧ البخاري، الأنبياء، ٩.



ثارت: «يذهب نبي بنبي كي يضحي به!»، فقال إسماعيل عليه السلام: «يأبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين» ، يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكففْ عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء، فتراه أمي فتحزن، وأَسْرِعْ مرّ السكين على حَلْقي؛ ليكون أهون للموت عليّ، فإذا أتيت أمي فاقرأ عليها مني السلام».

وبينما يسبح الأب وابنه في بحار التسليم، إذ أتاهم جبريل عليه السلام، وجعل السكين لا تقطع، وأنزل من الجنة الكبش الذي سيكون فداءً.[٢٧٨]



ويبين لنا الحقُّ تعالى توكّل سيدنا موسى عليه السلام وتسليمه على النحو التالي:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ: يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢٧٩]

يقدم موسى عليه السلام بموقفه هذا التوكل على النحو الذي ينبغي أن يكون عليه:

---

٢٧٨ انظر: الطبري، التاريخ، ١، ٢٧٥؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ١١٢؛ الحاكم، ٢، ٦٠٦/ ٤٠٤٠.

٢٧٩ القصص، ٢٠ ـ ٢١.



فأولاً الاستشارة، وبعدها العزم والقرار، ومن ثَمَّ التدبير، وفي النتيجة إحالة الأمر إلى الله تعالى، أي إن التوكل الحقيقي أن نكون في حالة الدعاء والتسليم والرضا دوما!..



كان اليمنيون لا يصطحبون معهم زاداً للطريق عند ذهابهم إلى الحج، ظناً منهم أن ما يفعلونه توكلٌ قائلين:

«نحن ذاهبون لزيارة بيت الله تعالى، أفلا يشبعنا؟»، وعند بلوغهم مكة يضطرون إلى السؤال، فنزلت الآية: ﴿... **وَتَزَوَّدُوا**...﴾ [٢٨٠] »

«وقد لقي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناساً من أهل اليمن، (تقاعسوا فلم يعملوا ويبذلوا جهداً) فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، فقال: أنتم المتّواكلون، إنما المتوكل الذي يُلقي حبَّه في الأرض ويتوكل على الله». [٢٨١]



---

٢٨٠ البقرة، ١٩٧.

٢٨١ وحسب رواية أخرى فإن بدل قوله(أن تلد الأمة ربتها) قال (أن تلد الأمة سيدها)، تم توضيحه بولادة الأمهات أولاداً عاقين سيعاملونهن معاملة الجارية، وأما تطاول (الحفاة العراة العالة رعاء الشاء في البنيان)، فدليل على زيادة الرفاه والسعة، فحتى من كان فقيراً فيما سبق سيغدو غنياً إلى حد يتباهى في إنشاء أبنية عظيمة ومرفهة، سيُقَدَم كل الغنى والثراء العالم إلى الناس، وسيصبح الثراء والغنى المقياس الوحيد للقيمة، وسوف يولع الناس بالاستهلاك والمباهاة .



وفيما يلي حادثة ذات عبرة يرويها لنا أبو هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ:

«أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألفَ دينار، فقال: ائتني بالشهداء أُشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم، إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلا، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له، فلم أقدر وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء، قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل



الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشداً».[٢٨٢]

إنْ تكفّل الله تعالى أمراً تحقق حتى لو ظنه بعض الغافلين مستحيلا، فعلى العبد الإخلاص والصدق في التوكل عليه...



يروي لنا ابن عباس رضي الله عنه:

«أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أهل الأجناد، أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابه فأخبروه: أن الوباء قد وقع بالشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين فدعوتهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجتَ لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم له، فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم: فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح:

٢٨٢ البخاري، الكفالة، ١، البيوع ١٠.



أفراراً من قدر الله، فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، وكان عمر يكره خلافه، نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيتَ لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف -وكان متغيبا في بعض حاجته- فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إذا سمعتم به(أي الطاعون) بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه"،

قال: فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف».[٢٨٣]

تعكس لنا هذه الحادثة مفهوم الإسلام للتوكل والقدر على أكمل وجه، وعلى هذا فإن جرّ النفس والمؤمنين إلى الهلاك يتنافى ومفهوم التوكل الحقيقي.



كان العالم العثماني الكبير ميّت زاده الذي عاش في عهد السلطان أحمد خان الأول، معروفاً بفضيلته وعرفانه، وأما إطلاق اسم «ميت زاده» أي «ابن الميت» عليه، فبسبب هذا التجلي الإلهي الذي تعرض له حسب الرواية:

٢٨٣ البخاري، الطب، ٣٠/ ٥٧٢٨/ ٥٧٣٠؛ مسلم، السلام، ٩٨/ ٢٢١٩.



كان والد ميت زاده جندياً شجاعاً، دعي كغيره من المحاربين، من قبل السلطان محمد الثالث للالتحاق بنفير «أغري» العام الذي حدث عام ١٥٩٦، لكنه وفي تلك الأثناء كانت امرأته حاملا وهي على وشك الولادة، ومع هذا فقد قام الأب المحارب -الذي يقدم الجهاد في سبيل الله على كل شيء- باستعدادات السفر، وطلب الإذن من زوجه، وفتح يديه بكل أدب في حضرة الله تعالى العليّة وتضرّع إليه بعيون امتلأت بدموع الرحمة قائلاً:

«يا إلهي! إني ذاهب للغزو في سبيلك، وليس لي أحد سواك، أستودعك ولدي الذي ستلده زوجي الوفيّة الصبورة، فاحفظه بلطفك وكرمك» .

ثم ما لبث أن غاب الأب المحارب عن الأعين بعد أن امتطى حصانه، وتمضي الحرب وتنتهي، وينتصر الجيش العثماني بعناية الله تعالى وعونه.

وفي العودة توجّه الأب المحارب -وقد استأذن قائده- مباشرة إلى بيته، إلا أنه وعند وصوله إليه لم ير في بيته أحدا، بينما كان يتوقع أن تكون زوجته بانتظاره في المنزل، حيث إن خبر انتصار الجيش قد ذاع وانتشر في كل مكان، فركض مسرعاً وقد أحاط به الفضول والقلق إلى الجيران وسأل عن زوجته، فقال الجيران عندما رأوا الأب المحارب أمامهم وقد بدا عليهم الحزن:



«ليبارك الله لك غزوتك، وبارك الله في عمرك وأحسن إليك فيه»، فتمتم الأب -وقد فهم المراد من هذه الجملة- في عجز وألم: «لا، لا يمكن!»، ثم قال بصوت منخفض:

«لا يمكن أن يحدث هذا! كنت قد استودعت ولدي الذي سيولد لرب الكائنات، وهو خير من تُستودع لديه الودائع».

وبعد أن استغرق الأب المهموم في صمت عميق برهة من الزمن، نظر إلى من حوله ثم قال نتيجة إلهامٍ شعرَ به في قلبه:

«من المؤكد أن الله تعالى الرحيم خير من يحفظ الودائع! أروني قبر زوجتي الآن».

فذهبوا سوية إلى المقبرة، ولما أروه القبر، وضع أذنه على تراب القبر وهو متحمّس واستمع، وبعد مدة صرخ:

«ها أنا ذا أسمع صوت ولدي» .

فأخذ مجرفة ومحفرة وبدأ بنبش القبر من فوره، ولما بدأ من جاء معه يسمع صوت الولد ينبعث رويداً رويداً من القبر أخذوا يساعدون هذا الأب الحزين، ولما فتح القبر كله كان ما رأوه باعثاً عجبا إلى حدٍّ أفلست معه الإرادات:

فكان في القبر طفل مشرق الوجه وُلِد من الأمّ الميتة وقد التصق بصدر أمه، سرعان ما ضمّ الأب الغازي ولده إلى صدره، وقبّل وجنتيه الموردتين، ثم لفه في قماط دافئ، ثم أغلق القبر



المفتوح بكل اعتناء بعد أن قرأ فاتحة الوداع على زوجته، وأمام هذا المشهد استغرق الجميع في تسبيح وتقديس لله تعالى في تعظيم كبير في مقام الحيرة والعدم أمام هذا التجلي الإعجازي، وكان الأب قد خرّ ساجداً -بعينين مغرورقتين بالدموع وقلب حزينٍ لموت زوجته ومسرورٍ بنجاة ولده- يحمد ربه تعالى.

وقد كبر هذا الطفل ورُبِّيَ تربية حسنة، وأصبح عالماً زاهداً ذاع صيته في كل أرجاء الدولة العثمانية، وعرف بعد ذلك -بسبب هذه الحادثة العجيبة- بابن الميت، فكانت قصته عبرة وحكمة للتسليم الصادق والمطلَق على الله تعالى.



وجوهر الكلام يكمن في أن الحصول على الطمأنينة القلبية في الدنيا والسعادة الأبدية إنما يتحقق بالرضا على ما قدر الله تعالى، بإظهار التوكل والتسليم لمرادات القدرة والعظمة الإلهية، فالقلوب المستسلمة والمطيعة لأمر الله تعالى والراضية بقضائه تغدو منابع حكمة وخير وبركة، ولا يكون المرء في مقام الاستسلام التامّ للحق والتوكل عليه مالم يكن صاحب قلب مفعم بنشوة الإيمان وحلاوته، ونتيجة لبلوغ القلب هذا المقام من الحب فإن الإنسان يتوجّه لربه بكل وجوده ويستعلي بقلبه على الدنيا وما فيها.

إن تسليم العبد لله تعالى يتناسب ومعرفته بالله وإيمانه به سبحانه، والاستسلام -والذي هو جوهر العبودية- يكوِّن أهم توجه



للقلب إلى الله تعالى، وهذا التوجه يبدأ بالإيمان بالله تعالى ويزداد كلما زادت معرفة الله تعالى، ويبين مولانا قُدِّسَ سرُّه أن السرّ في بلوغ مرتبة الفناء في الله تعالى يكمن في التسليم المطلق، موضحاً ذلك على النحو التالي:

«يحمل ماءُ البحر الميتَ -الذي يسلّم نفسه إليه تسليماً تاماً- على رأسه، أما الحيُّ ومن فيه نفس يتردد فكيف يمكنه التخلص من البحر؟ وكذا في حال متّ بالتجرد من الصفات البشرية -على أساس نموت قبل الموت- يحملك سرُّ البحر على رأسه».

٨ . حال الإحسان والمراقبة

إن حال الإحسان -التي يشعر المؤمن فيها بقلبه أنه تحت أنظار المراقبة الإلهية على الدوام- هي معراج روح عباد الله المقربين.

وتبين لنا الآيات الكريمة الآتية أن الحق تعالى يرى كل حركات عباده لا يخفى عليه منها شيء أبدا، وأنّه سيحاسبهم عندما يحين الوقت:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[٢٨٤]

أي إننا معهم نسمع ونرى كل شيء، وسنعرض عليهم كل ما حدث دون أن يغيب عنا شيء أبدا، فنحن شاهدون على كل شيء.

---

٢٨٤ الأعراف، ٧.



﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٢٨٥)

كان لقمان ينصح ابنه:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٨٦)

إن من يستشعر عينا تراقبه في حياتنا اليومية، يتخلّى عن كثير من فضول القول والعمل بله الأخطاء و المعاصي، وكذلك المؤمن -الذي يعيش في حالة الإحسان- يدرك أن الله تعالى يراه ويطلع عليه ويعلم حتى أدق ما يفكر ويتكلم به ويفعله.

وأما المعنى الآخر للإحسان فهو أداء العمل -أيّاً كان- على أحسن وجه. وإنه لمن أهم الأمور المطلوبة في الاستعداد للحظة الموت تثبيت شعور الإحسان في القلب، أي توفير التواصل القلبي مع الحق تعالى في كل آن، وأن يستشعر نفسه تحت المراقبة الإلهية، وهذا الشعور لا يتحقق إلا بالذكر الدائم والكثير لله تعالى.

وأما الخطوة الثانية من مراحل بلوغ حال الإحسان والمراقبة فالتفكّر فيما بيّنه الحق تعالى في الآيات التالية:

---

٢٨٥ التوبة، ٧٨.

٢٨٦ لقمان، ١٦.

﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾[287]

﴿... وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[288]

﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...﴾[289]

وقد قال عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن:

«أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت».[290]

ما من شكٍّ أبدا في أن رسول الله ﷺ كان على حالة من الإحسان دائمة، ليلاً ونهاراً، في الضرّاء والسرّاء، في الحرب والسّلم، وأقوى دليل على عمق شعوره بالإحسان ما كان عليه من فضائل، فكان على ذكر دائم ودعاء وتضرع في كل حركاته، ولم ينقطع لحظة عن عبادات التطوع وقيام الليل حتى تورمت قدماه، وكان يعتني بتأدية الحقوق إلى أهلها، ويحرص على نشر العدالة والحقّ بين الناس.

وينقل لنا عمر رضي الله عنه هذه الحادثة -التي علم فيها جبريل الصحابة الكرام مقام الإحسان- والمشهورة بحديث جبريل عليه السلام:

٢٨٧ الحديد، ٤.

٢٨٨ ق، ١٦.

٢٨٩ الأنفال، ٢٤.

٢٩٠ الهيثمي، ١، ٦٠.



«بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ:

"الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً"،

قال: صدقت،

قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه،

قال: فأخبرني عن الإيمان،

قال ﷺ: **"أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"**،

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان،

قال ﷺ: **"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"**،

قال: فأخبرني عن الساعة؟،

قال ﷺ: **"ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"**،

قال: فأخبرني عن أماراتها؟،



قال ﷺ: **"أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان"**،

ثم انطلق، فلبثتُ مليا، ثم قال لي رسول الله ﷺ :

"يا عمر، أتدري من السائل؟"،

قلتُ: الله ورسوله أعلم،

قال ﷺ: **"هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"**».[٢٩١]

لقد قال علماؤنا أن هذا الحديث الشريف هو أحد أسس الإسلام العظيمة، ما يعني أن التمكّن من بلوغ الكمال في الإسلام والإيمان مرتبط بالوصول إلى مقام الإحسان، ولذلك رأى الصوفية أنه ثمّة نقصٌ في دين المؤمن الذي لم يصل إلى حال الإحسان، وإيمان كهذا أشبه بشجرة غير مثمرة، عاجزة عن مواصلة حياتها، إذ إن احتمال جفافها بعد فترةٍ قويٌّ.

وهذا الحديث الشريف هو أبرز حقيقة من الحقائق على أن التصوف -الذي يهدف إلى تثبيت شعور الإحسان في أفئدة المؤمنين- جوهر الإسلام والإيمان، إذ إنه يتعذر تلقيه مختلفاً عنهما.

---

٢٩١ مسلم، الإيمان، ١، ٥؛ البخاري، الإيمان ٣٧؛ الترمذي، الإيمان، ٤؛ أبو داوود، السنة، ١٦.



وفي الحقيقة فإن أعظم سعادة العبد أن يكون مع ربه تعالى، إذ إن خالق الكائنات يريد من عبده أن يكون معه في كل أوقاته، حيث يقول:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٩٢)

إلا أن عقلاً انفصل عن القلب واستبدت به الشهوات النفسية عاجزٌ عن إدراك لذة معية الله تعالى، أي إنه غافل ومحروم من أعظم فضيلة وسعادة.

إن الشعور بلذة العبادات وحلاوتها، وعدم الكلل منها لا يتحقق إلا بمشاعر الإحسان، فمن لا وجود لشعور الإحسان في قلبه يتعب إن صلى، فتثقل الصلاة عليه، وتنقبض كفه عن الإنفاق على الفقراء والمحتاجين إن كان غنياً، وذلك لعدم تذوقه حلاوة الإيمان بسبب بعده عن المراقبة الإلهية، وفي هذا الصدد يمكن القول بأن الصلاة حين تُقام كما يجب، والزكاة حين تُنفق عن رضا قلب، والصوم حين يُؤدى بمحبة، والحجّ حين تملؤه معاني العشق، والقلب السليم المتردد بين مقامي الخوف والرجاء، والخلق الحسن وسائر المحاسن، كلها من بركة حال الإحسان.

---

٢٩٢ آل عمران، ١٩١.



صور الفضيلة

عن عبد الله بن عباس ﵄ قال:

«كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال:

"يا غلام، إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سأَلت فاسأَل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله..."».[٢٩٣]

وورد في رواية أخرى:

«احفظ الله تجده تجاهك، وتعرَّف إلى الله في الرخاء يَعْرِفْك في الشدة...».[٢٩٤]

فمن أقام حدود الله وطبق أوامره في حال الراحة حفظه الله من الشرور و نجاه منها في حال الضيق.

ويا لروعة هذه الكلمات الموجزة في بيان مقام الإحسان و مراقبة العبد لربه.



«ذات يوم كان عبد الله بن عمر ﵁ ومعه بعض أصحابه يسيرون في الصحراء قريبا من المدينة، فجلسوا يأكلون، فأقبل عليهم شاب

٢٩٣ الترمذي، القيامة، ٥٩/ ٢٥١٦.

٢٩٤ أحمد، ١، ٣٠٧.



صغير يرعى غنمًا، وسلَّم عليهم، فدعاه ابن عمر إلى الطعام، وقال له: هلمَّ يا راعي، هلمَّ فأصب من هذه السفرة. فقال الراعي: إني صائم. فتعجب ابن عمر، وقال له: أتصوم في مثل هذا اليوم الحار، وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟!. ثم أراد ابن عمر أن يختبر أمانته وتقواه، فقال له: فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه بالثمن، ونعطيك من لحمها فتفطر عليها؟ فقال الغلام: إنها ليست لي، إنها غنم سيدي.فقال ابن عمر: قل له: أكلها الذئب. فغضب الراعي، وابتعد عنه وهو يرفع إصبعه إلى السماء ويقول: فأين الله؟!

فظل ابن عمر يردد مقولة الراعي: (فأين الله؟!) ويبكي، ولما قدم المدينة بعث إلى مولى الراعي، فاشترى منه الغنم والراعي، ثم أعتق الراعي». [٢٩٥]

وهذا هو شعور الإحسان والمراقبة في أسمى تجلياته، وإذا كان هذا هو جزاؤه الدنيوي ... فما بالك بمكافأته في الآخرة!.



«بينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعسّ في المدينة في جوف الليل إذ تعب، فاتكأ إلى جدار، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمَّاه! أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟

---

٢٩٥ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٣٤١.



قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنية! قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فإنَّك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أماه! والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وفي رواية: فإن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا...».

لقد أثّر الجواب الذي ردت به هذه الجارية -ذات الضمير الطاهر المفعم بالحقائق الربانية، والقلب الحي بالخوف من الله تعالى- على أمها أشد التأثير على سيدنا عمر ﵁، فأدرك أميرُ المؤمنين أنها ليست ابنة امرأة تبيع الحليب من العامّة، بل هي نعمة استثنائية لما في قلبها من تقوى، فزوّجها ابنه عاصماً، فكان من هذه السلالة الطاهرة عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشدي الخامس.[٢٩٦]

فيوضح لنا هذا المثال أن العيش بحال الإحسان والمراقبة يصبح وسيلة للفضيلة والبركة تشمل الأمة كافة متجاوزاً المصلحة الفردية.



«أرسل عمرُ بن الخطاب ﵁ معاذَ بن جبل ﵁ إلى بني كلاب ليقسم فيهم أعطياتهم، ويوزّع على فقرائهم صدقات أغنيائهم، فقام بواجبه خير قيام.

---

٢٩٦ انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢، ٢٠٣ ـ ٢٠٤



وعاد إلى زوجه بحلسه -وهو ما يوضع على ظهر الدابة- الذي خرج به، فقالت له امرأته: أين ما جئت به مما يأتي به الولاة من هدية لأهليهم؟. فقال معاذ: لقد كان معي رقيب يقِظٌ يحصي علي. فقالت امرأته: لقد كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم جاء عمر فبعث معك رقيباً يحصي عليك. وشاع ذلك عند نساء عمر، وشكته لهن، فبلغ عمر. فأرسل إلى معاذ وسأله: أنا أرسلت معك رقيب!!. فقال: يا أمير المؤمنين، لم أجد ما اعتذر به إلا هذا، وقصدت بالرقيب الله ﷻ.

ففهم سيدنا عمر رضي الله عنه ما قصده معاذ رضي الله عنه بكلامه ذلك، إذ إن معاذاً رضي الله عنه كان مستغنيا عن كل متاع الدنيا، فأراد الخليفة إتحافه تفضلاً منه حيث أعطاه هدية من عنده، وقال له: اذهب، أرضها به ...».



وثمّة مثال جميل موجز يوضّح حال الإحسان والمراقبة:

كان أحد الوعاظ يذكِّر بأحوال الآخرة وهو جالس على كرسيه، وكان بين الجماعة الشيخ شبلي، فقال الواعظ يعرض الأسئلة التي سيسألها الحق تعالى في الآخرة:

«سيسأل اللهُ العبدَ ماذا فعلتَ بعلمك؟، وأين أنفقتَ مالك؟، وكيف قضيتَ عمرك؟، وسيسأل عن عباداته، وهل راعيت الحلال والحرام؟، وسيسأل عن هذا وعن ذاك...» فسرد الكثير من الأمور التي سيسأل العبد عنها.



فقال الشيخ شلبي بعد كل هذا التفصيل وإهمال جوهر المسألة:

«يا أيها الواعظ! لقد نسيت أهم سؤال! سيسأل الله تعالى بكلمات موجزة: يا عبدي! كنتُ معك في كل لحظة، فمع من كنت أنت؟».



كان أبو بكر الكتّاني -قدس سره- أحدَ أولياء الله تعالى وهو في فراش الموت، قد أجاب من سأله عن أرجى عمل قام به في حياته بهذه الكلمات الرائعة:

«لولا أني أعلم اقتراب أجلي لما حدثتكم بعملي خشية الرياء، عملت حارساً على باب قلبي أربعين سنة، وحاولت جاهداً ألا أفتحه لغير الله تعالى، فأصبح قلبي في حال لا يعرف أحداً غير الله ﷻ».



وروي: «أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعّد مضروب الجنبين بالفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه.

فقال له عيسى عليه السلام: يا هذا، وأي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟.

فقال: يا روح الله، أنا خير ممّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته».





شاع وانتشر القيل والقال على إنكار محمد نور العربي -من مشاهير متصوفة القرن التاسع- «للإرادة البشرية» أي الإرادة الجزئية، حتى وصل الأمر إلى مسامع السلطان عبد المجيد خان، فطلب دعوة الشيخ إلى مجالس الحضور وسؤاله عن هذه المسألة في ذلك المجلس، فدعي الشيخ إلى مجالس السكينة بتطبيق الأمر السلطاني، وهناك وحين سئل الشيخ عن المسألة أجاب على ذلك على النحو التالي:

«أنا لم أنكر وجود الإرادة الجزئية بالمعنى العام، بل قلت إنها في حكم المعدوم تقريباً لدى فئة من الناس، لأن كبار أولياء الله تعالى -وهم يعيشون في حالة المراقبة لله تعالى على الدوام- إرادتهم الجزئية من القلة بحيث يمكن القول بعدم إمكانية ظهورها، ولذا فإن حركاتهم تنبثق تبعاً لإرادة الحق تعالى لا تبعا لإرادتهم الذاتية، وإلا لتصرفوا على خلاف الأدب وقصروا فيه.

فعلى سبيل المثال نحن الآن في مجلس السلطان، إن قيل لي «تعال» أتيت، وإن قيل «اذهب» ذهبتُ، فمن غير الممكن لنا استخدام إرادتنا رغماً عن إرادة السلطان التي تشملنا، فلينظروا إلى الغافلين وسائر المخلوقات في الخارج فإن إراداتهم جميعاً في غاية الحرية».

فأحسن السلطان بعد أن رضي عن هذا الجواب إلى الشيخ محمد نور العربي وأكرمه. وهكذا فإن أهل الإحسان والمراقبة من



الخواص -ممن يعيشون بيقين أن الله حاضر وناظر إليهم في كل زمان ومكان- يذعنون للإرادة الإلهية في كل حال...



وباختصار فإنَّ مرتبةَ الإحسان وحالَ المراقبة خلاصةُ الإيمان وجوهرُه، ومن غير الممكن جني ثمار العرفان من خشوعٍ وإخلاصٍ وتقوى -مما يُرجى من محاسن العبادة والسلوك- إلا بهذا القوامِ القلبي، لأن كل عمل صالح -مؤدًّى على أساس أن الله تعالى يرى- يساهم في تبرعم أغصان الإخلاص، وتفتح أزهار التقوى، ويعطي ثمار الخشوع، إن الاستقامة حتى في الأماكن الخالية من الناس، واجتناب المعاصي في المواضع البعيدة عن أنظار البشر، لا يمكن تحققها إلا بيقين المرء بقولهم: «هو يراني في كل زمان ومكان»، ولذا فإن التصوف يهدف في جميع أسسه وقواعده إلى إيصال الفؤاد إلى هذه الحالة، وقد عاش أولياء الله تعالى طلاباً فترة من العمر لبلوغ هذه الحال.

وتتمثل مهمّتنا -في هذه الحال- باستقامتنا واقدائنا بالأحوال السامية لذروة مقام الإحسان نبينا محمد ﷺ، عن طريق الارتقاء بقلوبنا بعد جعل مراقبة الله تعالى إيانا شعوراً ملازماً لنا.

﴿... **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (٢٩٧)

٢٩٧ الأعراف، ٥٦.



٩ . التواضع

هو انعدام التكبر وإدراك العدم أمام الحق، فعلى الإنسان ألا يقع في الظلم المادي والمعنوي مدعياً أفضليته على من حرم من نعمة وجدها هو في نفسه من علم ومكانة ومال.

وما أجمل ما يقوله الشاعر:

لا يغرنّك المال والملك، ولا تقلْ ليس مثلي أحد!

فقد تهبُّ عليك الرياح بما لا تحب، فتصير هباءً.

ثم إن صاحب الآن والمآل هو الله تعالى، وما سيصيب الإنسان في المستقبل يظل في طي المجهول.

يقول الحق تعالى:

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٩٨]

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٢٩٩] (الفرقان، ٦٣)

أي إذا خاطبهم الجاهلون بما لا يعجبهم من الكلام انصرفوا عنهم ولم يجادلوهم.

---

٢٩٨ الشعراء، ٢١٥.

٢٩٩ الفرقان، ٦٣.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«إنّ الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد».[300]

«من يتواضع لله درجة، يرفعه الله به درجة...».[301]

أي من تواضع لله أمام عباده. كان إدريس عليه السلام ينصح قومه بأقوال حكيمة منها قوله:

«كلما ارتفعت مكانة العاقل زاد توضعه».

ويوضح حضرة يوسف الأسباط عيش حالة التواضع التي تعني «العدمية نوعاً ما» على النحو التالي:

«عليك أن تعتقد أن كل من تراه –حين تخرج من بيتك صباحاً– أفضل منك، والتواضع يكون بحيث تقبل كل ما يقال لك إن كان حقاً، وأن تنظر إلى من هم دونك على أنهم أفضل منك، وليكن مادحك وذامّك سواء عندك ...».

لقد منح الله تعالى سعادة الآخرة لمن كان يبتعد عن التعاظم والتفاخر في الدنيا ولا يعثو في الأرض فساداً من الذين تفيض قلوبهم بمحبة الله تعالى، لكن المتمسكين بالصفات السيئة بابتعادهم عن نعمة التواضع ليس بمقدورهم التخلص من التفرعن، وعندها يكون التخلّص من صفات سيئة كهذه بالتمسك بالتواضع أمرٌ لا بدّ منه.

---

٣٠٠ مسلم، الجنّة، ٦٤/ ٢٨٦٥.

٣٠١ ابن ماجة، الزهد، ١٦/ ٤١٧٦.



ثم إن الآية الكريمة تقول:

﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (٣٠٢)

وما أجمل قول الشاعر إذ يقول:

لا يتبرعم الحب إلا بعد أن يدفن في التراب،

وهكذا تربي المتواضع رحمة الرحمن. (٣٠٣)

لم يستخدم الصحابة الكرام ﭫ كلاً من المقام والمكانة الدنيوية التي ائتمنهم الله تعالى عليها في الكبر والعجب، بل جعلوا حياة النبي ﷺ دستوراً للحياة، وقد اتسعت حدود الدولة الإسلامية المتشكلة من حوالي ٤٠٠ عائلة، حتى بلغت أرض العراق وفلسطين خلال عشر سنوات، وكان ثمة حرب قائمة بين الفرس والروم أثناء وفاة النبي ﷺ، وكانت المدينة ممتلئة بمال الغنائم، لكن لم تتغير أحوال الصحابة التي كانت قبل عشر سنوات أي عيشهم المستغنين عن الدنيا وتواضعهم، وكذا لم يطرأ التغيير على شكل منازلهم ونمط حياتهم، وقد كانوا في حال من الاستغناء عن نعم الدنيا خشية تشويه لذة الإيمان، ولذا كانوا يشكلون معيشتهم وفق غاية تحصيل رضا الله تعالى.

---

٣٠٢ القصص، ٨٣.

٣٠٣ لا يتبرعم البذر وينمو إن لم يوضع في التراب، وفي هذا الشأن فإن رحمة الله تعالى تعظّم وترفع متن كان متواضعاً وليس المتكبرين.

صور الفضيلة

لقد كان سيدنا فخر الكائنات المبعوث رحمة للعالمين والذي أوجدتْ الكائناتُ من أجله، ﷺ يحافظ على حالة التواضع والعجز بقوله: «**ولا فخر**»، على الرغم من جميع خصله الحميدة وفضائله.

وقد روي أنه: «جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجبا أن الله ﷻ اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم، فسلم وقال:

"قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجي الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك"،

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام أوصافه هو فقال:

"أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر"».[٣٠٤]

وفي رواية أخرى: «**إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر، وأعطى لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد الناس**

---

٣٠٤ الدارمي، المقدمة، ٨/ ٥٠.



يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر، وآتي باب الجنة فآخذ بحلقتها فيقولون: من هذا؟ فأقول أنا، محمد، فيفتحون لي فأدخل...».[٣٠٥]



«كان للنبي ﷺ قصعة، يحملها أربعة رجال، يقال لها: الغراء، فلما أضحوا وسجدوا الضحى، أُتي بتلك القصعة وقد ثرد فيها، فالتفوا عليها، فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ فقال أعرابي: ما هذه الجلسة؟، فقال النبي ﷺ:

"إن الله جعلني عبدا كريما، ولم يجعلني جباراً عنيداً"، ثم قال:

"كلوا من جوانبها، ودعوا ذروتها يبارك فيها"».[٣٠٦]



«وعن عبد الله بن جبير الخزاعي أنّ رسول الله ﷺ كان يمشي في أناس من أصحابه، فتستر بثوب، فلما رأى ظله رفع رأسه، فإذا هو بملاءة قد ستر بها، فقال له: مه، وأخذ الثوب فوضعه، فقال:

"إنما أنا بشر مثلكم"».[٣٠٧]



---

٣٠٥ الدارمي، المقدمة، ٨/ ٥٣؛ الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦.

٣٠٦ أبو داوود، الأطعمة، ١٧/ ٣٧٧٣.

٣٠٧ الهيثمي، ٩، ٢١..



يقول عليه الصلاة والسلام:

«حسب امرئ من الشرّ أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله».[٣٠٨]



«وقد كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في سفر فأرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام:

"وعليّ جمع الحطب"،

قالوا: نكفيك ذلك،

فقال عليه الصلاة والسلام:

"أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه"». [٣٠٩]



كان دخول سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام مكة المكرمة بعد الفتح من أعظم أمثلة التواضع، حيث يصور لنا الصحابة -ممن كان موجوداً حينها- حاله هذه على النحو التالي:

٣٠٨ الطبراني، الكبر، ١٣، ١٣٨/ ١٤٩٧١؛ الترمذي، القيامة، ٢١/ ٢٤٥٣.

٣٠٩ القسطلاني، المواهب اللدنية، مصر ١٢٨١، ١، ٣٨٥.



«دخل النبي ﷺ مكّة يوم الفتح، وقد أحنى رأسَه على رحله تواضعاً، حتى كادت تمسُّ لحيتُه الرَّحلَ من التواضع، وهو يقول: **"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"**». [٣١٠] [٣١١]



«لما بعث ﷺ معاذاً إلى اليمن شيّعه ومن كان معه من المهاجرين والأنصار -ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي إلى جنبه- ويوصيه، فقال معاذ: يا رسول الله: أنا راكب وأنت تمشي!، ألا أنزل فأمشي معك ومع أصحابك؟

فقال: **"يا معاذ إنما أحتسب خطاي هذه في سبيل الله"**». [٣١٢]

هذا هو سيدنا عليه الصلاة والسلام الذي كان أرفع نموذج في التواضع،حيث لم يكن همّه ذاتيٌّ، بل كان أكبر ما يهمّه ويقلقه إلى حدٍّ يضعفه، هداية الناس وبلوغهم سعادة الدارين.



---

٣١٠ الواقدي، ٢، ٨٢٤، البخاري، الرقاق، ١.

٣١١ كرّر النبي عليه الصلاة والسلام مقولته هذه التي تفيد أهمية الحياة الآخرة قياسا على الحياة الدنيا، حيث ثبت تكرارها في الروايات أثناء بناء المسجد النبوي وحفر الخندق ودخول مكة يوم الفتح وحجة الوداع، البخاري، الجهاد، ٣٣، ١١٠، مناقب الأنصار، المغازي، ٢٩؛ مسلم، الجهاد، ١٢٦، ١٢٩؛ الترمذي، المناقب، ٥٥؛ ابن ماجة، المساجد، ٣.

٣١٢ ديار بكري، تاريخ الخامس، بيروت .٢، ١٤٢.



وعن أنس بن مالك ﵁ والذي تربى تحت الرعاية النبوية:

«أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال كان النبي ﷺ يفعله».[313]

عَنْ أنس ﵁، قال:

«انتهى إلينا رسول الله ﷺ: وأنا غلام في الغلمان فسلم علينا، ثم أخذ بيدي فأرسلني، برسالة وقعد في ظل جدار، أو قال إلى جدار حتى رجعت إليه».[314]

وأيضاً ووفق ما عرفناه من أنس ﵁:

«أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم، ويمسح على رؤوسهم، ويدعو لهم».[315]



ويقول أنس ﵁:

«إن كانت الأَمَةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت».[316]

وروي: «أن امرأة كان في عقلها شيء اسمها أم زفر، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة فقال:

---

٣١٣ البخاري، الاستئذان، ١٥؛ مسلم، السلام، ١٥.

٣١٤ أبو داوود، الأدب، ١٣٥ ـ ١٣٦/ ٥٢٠٣.

٣١٥ النسائي، السنن الكبرى، ٦، ٩٠.

٣١٦ البخاري، الأدب، ٦١.



"يا أم فلان، انظري أي السكك شئتِ حتى أقضي لك حاجتك"، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها». [٣١٧]



سألت السيدة عائشة رضي الله عنها:

«ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة». [٣١٨]



كان عليه الصلاة والسلام يقضي حوائجه بنفسه، ويعين أهله، ونخلص من الروايات الواردة في هذا الشأن إلى النتيجة التالية:

كان من عادته ﷺ أن ينظف ملابسه بنفسه في بيته، ويحلب غنمه، ويرقع ما تمزق من ثيابه، ويخصف نعله، ويكنس بيته، ويربط دابته ويعلفها، ويتناول طعامه مع خادمه، ويعجن العجين معه، ويحمل ما اشتراه من السوق بنفسه، ولما قام أبو هريرة رضي الله عنه لحمل ثياب كان قد اشتراها ﷺ لنفسه، قال عليه الصلاة والسلام:

«صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله، إلا أن يكون ضعيفاً فيعجز عنه فيعينه أخوه المسلم». [٣١٩]

---

٣١٧ مسلم، الفضائل، ٧٦/ ٢٣٢٦؛ أبو داوود، الأدب، ١٢/ ٤٨١٨.

٣١٨ البخاري، الأذان ٤٤، النفقات ٨، الأدب ٤٠.

٣١٩ الهيثمي، ٥، ١٢٢.



وبذلك لم يحمّله، وقد كان عمر وعلي رضي الله عنهما -اقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام-، يقضيان لوازم بيتهما ويتجولان في السوق بأنفسهما حتى في سنوات خلافتهما.



قالت عائشة رضي الله عنها:

«بعث إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً، فأمسك رسول الله ﷺ وقطعت أو أمسكت وقطع، فقال الذي تحدثه: أَعَلَى غير مصباح، فقالت: لو كان عندنا مصباح لائتدمنا به، إن كان ليأتي على آل محمد ﷺ الشهر ما يختبزون خبزاً ولا يطبخون قدراً».(٣٢٠)



وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«إذا دُعِي أحدُكم إلى الوَلِيمة فليَأتِها».(٣٢١)

«لو دُعِيت إلى كُراع لأجبتُ، ولو أُهدِي إليَّ كراعٌ لقبلت».(٣٢٢)

ليس للهدية مقياس من كبر أو صغر، إذ الغاية اكتساب القلب وزيادة المحبة، ولا يمكن الوصول إلى هذا القوام القلبي إلا بالالتفاف بلباس التواضع.

---

٣٢٠ أحمد، ٦، ٢١٧؛ ابن سعد، ١، ٤٠٥.

٣٢١ البخاري، النكاح/ ٥١٧٣؛ مسلم، النكاح ٩٦/ ١٤٢٩.

٣٢٢ البخاري، الهبة ٢/ ٥١٧٨.



لقد جعل النبي ﷺ العبودية لله تعالى فوق كل شيء، وإحدى الروايات التي تبين ترجيحه للعبودية هي على النحو التالي:

«جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربُّك، أفملكاً نبياً أجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبداً رسولاً». [٣٢٣]

وقد أضحت العبودية بعد هذا الترجيح أشرف مقام يمكن للعبد أن يبلغه، ثم إنه عليه الصلاة والسلام قال لمن بالغ في تعظيمه:

«لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً». [٣٢٤] وهو بتنبيهه هذا أوضح قيمة وفضيلة العبودية.



كان عمر رضي الله عنه على الرغم من -شدته وقوته- عظيم التواضع، يلبس من الثياب المرقَّع، ويحمل الماء والمؤن إلى منازل الأرامل واليتامى على ظهره، وينام على الحصير، وكان يكري دوابه بيده وينظفها، وأما في فترة خلافته فقد كان يدور الأحياء ليلاً واحدة تلو الأخرى، يستمع إلى شكاوى الجميع، ويهتم لما أهم الرعية، يروي لنا أبو محذورة رضي الله عنه ما رآه من تواضعه:

---

٣٢٣ أحمد، ٢، ٢٣١؛ الهيثمي، ٩، ١٨، ٢٠.

٣٢٤ الهيثمي، ٩، ٢١.



«كنت جالساً عند عمر بن الخطاب إذ جاء صفوان بن أمية بجفنة فوضعها بين يدي عمر، فدعا عمر ناساً مساكين وأرقاء من أرقاء الناس حوله فأكلوا معه، ثم قال عند ذلك: فعل الله بقوم أو لحا الله قوماً يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم، فقال صفوان: أما والله ما نرغب عنهم، ولكنا نستأثر لا نجد من الطعام الطيب ما نأكل ونطعمهم». [٣٢٥]



خرج عمر بن الخطاب ﵁ من المسجد ومعه الجارود العبدي، فإذا بخولة بنت ثعلبة برزت على ظهر الطريق، وقد طعنت في السن، وهي التي كانت في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام امرأة شابة، شكت زوجها المسنّ إلى رسول الله ﷺ، لما وقع بينهما من مشكلة، وقد نزلت الآيات الأولى من سورة المجادلة لحل مشكلتها مع زوجها، فقالت هذه الصحابية لعمر ﵁ وهي تعظه: يا عمر، قد كنتَ تُدعى عميراً ثم قيل لك يا عمر، ثم قيل لك يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي عليه الفوت، فبكى عمر ﵁ إثر هذه الكلمات، فقال الجارود وقد أحزنه حاله: قد أكثرتِ أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال عمر: دعها، أما تعرفها، فهذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت، التي سمع الله قولها من فوق سبع

٣٢٥ علي المتقي، ٩، ١٩٨/ ٢٥٦٥٠.



سموات، فعمرُ -والله- أحقُّ أن يسمع لها، والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما زلت إلا للصلاة المكتوبة. [٣٢٦]

هذا مثال جليّ كيف كان سيدنا عمر ﵁ أحد الشخصيات الإسلامية الفريدة في أخلاقها، فكان مؤمناً متواضعاً، يملأه الخوف من الله تعالى وتعظيمه ومحبته...



وما أجمل بيان حضرة مولانا -بأسلوبه البديع- هذه الحادثة المليئة بالعبرة، والتي تقدم تواضع عمر ﵁:

«أتى الهرمزان إلى المدينة ليفاوض عمر، فدخل المدينةَ وإذا البيوت من طين، قال: أريد قصر الخليفة؟ قالوا: لا قصر له، قال: أريد بيته، قالوا: هذا بيته، فوجد بيته كبيوت الناس من طين، فأتى وطرق الباب، فخرج ابنٌ لـعمر، فقال: ماذا تريد؟ قال: أريد الخليفة، أليس له حراسة؟ قالوا: لا حراسة له، قال: أين هو؟ قالوا: التمسْه في المسجد، فلعله نائم فيه، فذهبوا إلى المسجد فما وجدوه، وانحدر أهل المدينة وراء الهرمزان، كان عليه ذهب وديباج، فذهبوا وراءه وبحثوا، وبعد تعب شديد وجدوه تحت شجرة نائماً، وإذا الدرَّة بجواره، يغط في نوم عميق، قال: أهذا الخليفة؟ قالوا: هذا الخليفة،

٣٢٦ انظر: محمد ذهني أفندي، النساء المشهورات، اسطنبول ١، ٢٥٠؛ محمد ياشار قان دمير، ي. لطفي جاكان، رشيد كوجوك، ترجمة رياض الصالحين وشرحه، ٣، ٥٠٨.



قال: أهذا عمر؟ قالوا: هذا عمر، قال: أهذا أمير المؤمنين؟!! قالوا: هذا أمير المؤمنين، فوقف مبهوتاً يقول: حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ».



زار الأحنف بن قيس رضي الله عنه مع بعض أشراف وسادة العرب سيدَنا عمرَ رضي الله عنه ذات مرة، فرآه راكضاً وقد شمر ثيابه وربطها حول خاصرته، فلما رآه عمرُ رضي الله عنه قال له: هلم ساعدني، فقد هربت دابة من مال الصدقة، فكم لفقير فيها من حق، وعندها قال له أحدهم: ولم تحمل على نفسك وتشقُّ؟ ألَا كلفت عبداً بالبحث عنها؟ فقال عمر رضي الله عنه: وهل من أحد يصلح لئن يكون عبداً أكثر مني.[٣٢٧]

ما أسماها من أخلاق، وما أدقها من نظرة، وما أعظمه من تواضع ...



«في الأيام التي كان فيها سلمان الفارسي رضي الله عنه أميراً على المدائن وهو سائر بالطريق، لقيه رجل قادم من الشام ومعه حمل من التين والتمر، وكان الحِمل يُتعب الشامي، فلم يكد يرى أمامه رجلاً يبدو عليه من عامة الناس وفقرائهم حتى قال له: احمل عني هذا فحمله سلمان ومضيا، وعندما بلغا جماعة من الناس سلم عليهم،

٣٢٧ شبلي النعماني، سيدنا عمر بجميع نواحيه وإدارته للدولة، ترجمة. طالب ياشار ألب، اسطنبول. ص: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.



فأجابوا: وعلى الأمير السلام، فسأل الشاميُّ نفسَه أي أمير يعنون؟! ودهش عندما رأى بعضهم يتسارعون ليحملوا عن سلمان الحِمل، ويقولون: عنك أيها الأمير، فعلم الشامي أنه أمير المدائن سلمان الفارسي فسقط يعتذر ويأسف، واقترب ليأخذ الحمل، ولكن سلمان رفض وقال: لا، حتى أُبلغك منزلك».[٣٢٨]



مَرَّ الحسين ﷺ على فقراء يأكلون كسراً من أموال الصدقة، فدعوه قائلين: يا عبد الله هلمَّ إلى الغذاء شاركنا، فنزل عن راحلته، وتغدى معهم، ثمّ قال لهم: قد أجبتكم فأجيبوني، فلبّوا كلامه وخفوا معه إلى منزله، فأطعمهم.



وقد سار علماء الأمة على خطى الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، فقدموا نماذج رفيقة من التواضع، روي أنه سألَ الخليفةُ هارون الرشيد يوماً الإمامَ أبي يوسف عن مسألة، فأجاب: «لا أعرف»، فيقول معاون الخليفة لأبي يوسف: «تقولون لا أعلم مع أنكم تتقاضون أجراً وراتباً»، فردّ عليه أبو يوسف:

«إن ما أتقاضاه من أجر هو بقدر علمي، وإن كنت سَأُعْطَى على ما لا أعلم لما كفت الخزنة...».

---

٣٢٨ ابن سعد، ٤، ٨٨.



وقد قدّم الإمام الغزالي تواضعاً باعترافه بعجزه من خلال قوله:

«لو وضعت ما أجهله تحت قدميَّ مقارنة بما أعلمه لبلغت عنان السماء».



كان حضرة خالد البغدادي متميزاً في العلم يلفت انتباه الجميع واهتمامهم، قبل حصوله على الإجازة وحتى أثناء فترة تتلمذه، وقد قال له عبد الرحمن باشا متصرف السليمانية -حين زاره في هذه الأثناء- متعجباً من علمه وعرفانه:

«بوسعكم أن تستلموا التدريس في أيّة مدرسة تختارونها من مدارس السّليمانية»، فردّ تكليفه هذا بقوله: «لست أهلاً لهذه الخدمة»، حرمةً للعلم حيث إنه لم يحصل على الإجازة بعد.[٣٢٩]



كان يلدرم بيازيد خان قد دعا عند افتتاح جامع «أولو» جميع المشايخ والعلماء وعلى رأسهم أمير بخاري (أمير سلطان)، وفي صباح الجمعة اجتمع الكل للمراسم التي ستقام، وبعد فترة حضر السلطان يلدرم بيازيد، وقال لختنه حضرة أمير بخاري:

«يا أمير، تفضل وافتح أبواب المسجد وصلِّ بالناس، فهذا الشرف يعود إليك باعتبارك كبير الأمة»، لكن حضرة الأمير بخاري

٣٢٩ الهيئة، موسوعة علماء الإسلام، اسطنبول، منشورات جريدة تركيا، ١٨، ٧٨.



رد بتواضع جم قائلاً: «لا يا مولاي، ينبغي أن يمنح هذا الشرف إلى حضرة الشيخ أبو حميد الدين»، فسأل بيازيد خان الذي لم يسمع بهذا الاسم حتى ذلك الوقت، ومن يكون هذا الشخص؟، فأجابه حضرة الأمير بخاري: «يا مولاي، قد تكونون سمعتم به، إنه فران، معروف باسم «سومونجي بابا»، قد أنفق الكثير من الخبز للعاملين في جامع أولو، هذا الشخص هو حضرة أبو حميد الدين من كبار أولياء الله تعالى.

وبناء على هذا قبِل السلطان التكليف، وقام أمير بخاري فعرّف الجمع بـ«سومونجي بابا» ودعاه إلى المنبر، فقال سومونجي بابا وهو خجل: ماذا فعلتَ يا سيدي، لقد أعلمت الناس بي !.. ومشى نحو المنبر وقد علاه الخشوع والخضوع.

فقام سومونجي بابا يومها بتفسير سورة الفاتحة بسبعة تأويلات إشارية مختلفة مِن على المنبر، إلا أنه وقد كُشِف أمره ضرورة، رحل عن بورصة واصطحب معه تلميذه حاجي بيرم وليّ على أنه سيذهب إلى الحج.



دخل السلطان يافوز سليم خان في الخامس عشر من عام ١٥١٧ قصر المملوكين بمراسم فاخرة، ويذكر مؤرخ الوقائع المتعلقة بالسلطنة استقبال الناس في القاهرة ليافوز سليم على النحو التالي:

«كان الشعب قد ملأ الأحياء والنوافذ لمشاهدة عظمة يافوز، فكانوا يظنّونه مختلفاً تماماً، لا يشبه في لباسه وعمامته مَن حوله، وأما يافوز فلم يكن في المقدمة وإنما وسط محاربيه، ولم يختلف في لباسه وعمامته عمن حوله، وكان يمشي في تواضع جمٍّ غاضّ الطرف».



وصل السلطان يافوز سليم خان، في وضح النهار إلى أُسْكُودار عائداً إلى اسطنبول من سفره إلى القاهرة، ولما علم بأن شعب اسطنبول سيقيمون احتفالاً كبيراً لمجيئه، قال لمربيه حسن جان:

«حين يُحل الظلام، ليذهبِ الجميع إلى منازلهم، ولتفرغ الأزقة، حينها أدخل إلى اسطنبول، فلا يغرننا تصفيق الزائلين وأصوات النصر ومديح الناس، فيجعلنا متدنّين إلى الأرض...».

إننا نرى يافوز في هذا الموقف أِشبه بدرويش غارق في التجليات الإلهية العميقة، محاسباً نفسه أثناء دخوله أسكودار، بينما كان أسداً في صحراء سيناء المهيبة، يدخل مصر منتصرا بكل تواضع وامتنان لفضل الله عليه، وقد قرأ على حسن جان هذه الأبيات:

لئن جعلت الصلابة والقوة مني سلطان العالم

إلا أن الانتساب لولي صالح أشرف من كل هذا





لما وصل خبر النصر الأسطوري في كانيجة إلى القصر، سُرّ السلطان محمد خان الثالث بهذا الخبر ورضي به، وتكرم بمقام الوزير لترياقي حسن باشا، والذي كان العامل الأكبر في النصر، إضافة إلى بعثه بهدايا ورسالة فيها أمر السلطان المختومة إلى الباشا.

كان ترياقي حسن باشا -الذي قرأ رسالة السلطان المختومة في حضرة المحاربين، على عظم انتصاره الذي لا مثيل له- في تواضع وعجز كبير، وقد بلغ به التواضع حدّاً قال معه لمن حوله:

«قد كان أرسل سلطاننا بمنصب الوزارة وخط الهمايون مقابل خدمتنا الصغيرة، كمدافعة كانيجة، في حين أننا لم نقم إلا بما يجب علينا، أبقي مقام وزارة الدولة العلية لهذا الشيخ الهرم!؟ أمدّ الله دولتنا وملّتنا بالقوة».



كان داهية المهندسين المعماريين كوجا سنان، يرى نفسه نملة عاجزةً في حضرة الحق على ما حققه من نجاح باهر، لأنه كان معلماً كبيراً في التواضع أيضاً.

بذل المهندس المعماري سنان كل ما في وسعه في بناء جامع السليمانية حتى يبقى شامخاً إلى يوم القيامة، وتضرّع إلى الله تعالى بالكثير من الدعاء إلى أن قدَّم أخيراً تحفة لم يُر لها مثيل بِمَنِّ الله تعالى وتفضله، لكن لما جاء الدور إلى قبره جعله في ناحية من



المسجد كتوقيع متواضع بسيط، فلم يظهر منه التكبر والعجب بالتحف والآثار العظيمة والمشهورة، وقد كان يستخدم في ختمه وتوقيعاته إلى جانب عبارة «رئيس المهندسين المعماريين للمباني الرئيسية عبارات ك «نوري ناتوفان»، (النملة العاجزة) (الفقير الحقير)، وقد أجاب على التكليف الذي أتاه في خصوص كتابة اسمه على لوحة المسجد إثر فراغه من أعظم تحفه جامع السليمية:

«من أنا حتى أكتب اسمي على بيت الله تعالى!..» فإن جوابه هذا يقدم لنا عمقه المعنوي الموازي لعظمة آثاره المذهلة.



أرسل السلطان أحمد خان يوماً إلى أستاذه الذي يكنّ له شديد الحب سيّدنا هدائي هدية ذات قيمة، لكن حضرة هدائي لم يقبل الهدية، وعندها بعث السلطان أحمد خان بالهدية إلى عبد المجيد السيواسي أحد مشايخ عصره، لِمَا أن الهدية خرجت عن عهدته، وقال له أثناء زيارة له إليه بمناسبة قبول سيدنا عبد المجيد الهدية:

«حضرة السيد! كنت قد أرسلت بهذه الهدية إلى محمد هدائي أولاً، لكنه رفض في حين أنكم قبلتموها»،

فأجاب حضرة سيواسي الذي أدرك غاية ما قيل، بهذا الجواب المهم:

«مولاي! إن حضرة هدائي كطائر العنقاء، فلا يلتفت إلى اللاشيء»،



وبعد مرور بضعة أيام مرّ السلطان الذي رضي بهذا الجواب على حضرة هدائي، فقال له:

«يا سيدي! إن الهدية التي لم تقبلوها قبِلها السيد عبد المجيد أفندي»

فردّ عليه هدائي بوجهٍ مبتسم:

«مولاي! إنّ عبد المجيد نبْعٌ ووقوع قطرة من وسخ ما سواه في النبع العظيم لا يؤثّر في صفائه ونقائه».



يقول الطبيب الفرنسي أ. براير الذي أقام سنوات طويلة في اسطنبول وعاين باهتمام ودقةٍ حياة المجتمع العثماني:

«لا وجود تقريباً للعجب والكِبر بين الأتراك المسلمين نتيجة للحياء، لأن الكبر والغرور من السلبيات التي يحظرها الإسلام بشدة، يذكّر المسلمون بعضهم البعض على الدوام بما يلي:

ـ لا تمش في الأرض مغترّاً، ولا تعرض عن الناس لكِبْر!

ـ يبغض الله تعالى المتكبرين والمغرورين!

ـ كن متواضعاً في كل تصرفاتك!

ـ الكبر يتقدّم على الجهالة، ولا يكون العالِم مغروراً أبداً.

ـ التواضع يكسب الإنسان وقاراً.

ولذا فلا وجود للكبر والعظمة في المشية العثمانية مع وقارها وروعتها، فهم يتكلمون بصوت منخفض على الدوام، ولا تستشعر



من حركات أيديهم تعبيراً متكبراً، وتجد في خدماتهم العفوية واليسر».

هذه هي الحالة الروحية للمجتمع العثماني والتي تشمل كل المجتمع من فرده العادي إلى سلطانه، كما أن السلاطنة العثمانيين من حين إنشاء الدولة حتى سقوطها كانوا يأمرون جنودهم الذين يعملون بأجر أن يقولوا لهم أثناء ذهابهم وإيابهم من مكان صلاة الجمعة:

«لا يصيبك الغرور أيها السلطان، فالله تعالى أكبر منك!.. وهم بهذا جعلوا هذا التنبيه عرفاً رسمياً.

وخلاصة القول أن لطائف التواضع جمّة، فالإنسان المتواضع جواد، والإنسان الجواد رحيم، والرحيم ممتلئ برضا وثناء المخلوقات، وهذا وسيلة للحصول على رضا الله تعالى، وأما البعيد عن التواضع فمحروم من كل هذا المحاسن.

ثم إن العبد المتواضع يغدو باستطاعته التفريق بسهولة بين صديقه وعدوه لِمَا أنه كشف له الإدراك والفراسة.

والتواضع خصلة بالغة الأهمية تجمّل الإنسان وتجعل عبوديته تسمو وتنضج وتكسب الأخلاق قواماً، وما أجمل تعبير مولانا قدس سره في هذا الشأن:

«أيمكن لحجر أن يخْضَرَّ في الربيع؟ فكن متواضعاً كالتراب حتى تنمو فيك شتّى الأزهار والورود الملونة!..».



وهذه هي الحقيقة فإن الأحياء التي تمشي على التراب، تدهسه وتلقي بخبثها فيه، إلا أن التراب ينظِّف وبتواضع كبير كلَّ هذا الخبث ومن ثمَّ يُنبت نباتاً من شتى الأنواع، كل واحدة منها أجمل من الأخرى، مغذياً بذلك جميع المخلوقات التي تتجول فوقه، وهكذا يجب أن يكون قلب المؤمن الصالح كهذا التراب المنبِت، بحيث تنعكس كل المحاسن التي في قلبه على الناس، بل وحتى على جميع المخلوقات كشِعر طبيعي منساب.

١٠ . الحلم والمسامحة

الحلم هو أن يقابل الإنسانُ الإساءة إليه بالتحمل والصبر من غير أن يحمل في قلبه غلا أو جفاء لن أساء إليه.

ويقابل الحلمَ -وهو أحد الأمور المحببة إلى الله تعالى- الغضبُ والقسوةُ والفظاظةُ وهي خصالٌ قبيحةٌ تتسبب في أذى الناس وإرهابهم ومِن ثَمَّ تفرقهم وانصرافهم، ولذا فإن الحلم أحد صفات الأنبياء عليهم الصلاة السلام، فغير الحليم -ومن حُرِم اللطف والمودة في أخلاقه- يعجز عن القيام بوظيفةٍ مهمة كالنبوة، ولذلك اختبر بعض علماء اليهود حلم النبي عليه الصلاة والسلام، ولَمّا رأوا بحر حلمه الواسع آمنوا به حيث إنهم قرؤوا في كتبهم أن الحلم من أجلى صفاته، يقول تعالى مخاطبا نبيه الكريم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣٣٠]

ثم إن الإسلام اعتمد الاعتدال –دون إفراط أو تفريط– أسلوبا يطبع به المسلم كل حياته، وخاصة في التعامل مع الخلق كالتعليم والتبليغ.

ويبين لنا الحق تعالى أنه «حليم»، وقد كانت مجالس النبي عليه الصلاة والسلام –أكثرُ البشر رفِقا ولطفاً– مكاناً تتجلى فيه أرفع الفضائل كالحلم والعلم والحياء والصبر والتوكل والأمانة.

كما أن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يعيش حياة يطبعها أسلوب الحلم والمسامحة على كل صفحة من صفحاته، وقد قال النبي ﷺ في فضل تطبيق هذا الخلق القويم في الحياة التجارية:

«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».[٣٣١]

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً:

«كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه».[٣٣٢]

---

٣٣٠ آل عمران، ١٥٩.

٣٣١ البخاري، البيوع، ١٦/ ٢٠٧٦؛ ابن ماجة، التجارة، ٢٨.

٣٣٢ البخاري، الأنبياء، ٥٤، البيوع، ١٨؛ مسلم، المساقاة، ٣١/ ١٥٦٢.



وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

«**من أنظر مُعسراً أو وَضع عنه** (أي تنازل عن حقه في الدين) **أظله الله في ظله**».[٣٣٣]

إلا أنه على المدينين أيضاً مقابل هذه الحالة الحميدة من الدائنين عدم استغلال هذا التصرف المتساهل، لأن أمر الدَّين من الأهمية بحيث كان النبي عليه الصلاة والسلام يسأل من حضرت جنازته للصلاة عليه: «أعليه دين»، فإنْ كان عليه دين أمرهم بإيفائه، ثم يصلي عليه، وفي حال لم يُقضى دينه لا يصلي عليه.

ومن ناحيةٍ أخرى فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام حليماً ومتساهلاً مع حديثي العهد بالجاهلية ممن أسلموا ولم تكن لهم الفرصة الكاملة لتعلم أمور الدين، وفي هذا الخصوص ومن هذا الصدد فإن الحلم والمسامحة من أهم أوصاف أولياء الله تعالى وصالحي المؤمنين المتخلقين بالأخلاق النبوية.

قال رسول اللّه عليه الصلاة والسلام للأشج عبد القيس:

«**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**».[٣٣٤]

---

٣٣٣ مسلم، الزهد، ٧٤/ ٣٠٠٦.

٣٣٤ مسلم، الإيمان، ٢٥/ ١٧.

قال لقمان الحكيم لابنه:

«ثلاثة لا يُعرَفون إلا بثلاثة: الشجاعةُ عند الحرب، الحلمُ عند الغضب، أخوك عند حاجته إليك».

وكالخصال جميعاً فإن للحلم والمسامحة مقياساً معيناً، فليس من التصرف السليم حتى يكون الشخص ليناً أن يقبل الظلم أو يتساهل في انتهاك قوانين الله تعالى، وما أشبه هذا التصرف بانقياد الدابة، حيث تزيد الرغبة في فعل الشر والجرأة في الإقدام على التجاوزات، فلذا كان من أسوأ التصرفات.

صور الفضيلة

عن أبي سعيد الْخدريّ رضي الله عنه، قال:

«جاء أعرابي إلى النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام يتقاضاه ديْناً كان عليه، فاشتد عليه، حتى قال له: أحرج عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه، وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام:

"هلا مع صاحب الحق كنتم؟"

ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها:

"إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك"



فقالت: نعم، بأبي أنت يا رسول الله، قال: "فَأَقْرَضَتْهُ"، فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيت، أوفى الله لك، فقال:

"أولئك خِيار الناس، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع"».[٣٣٥]

وكما رأينا فإن حياة النبي ﷺ ممتلئة بمحاسن السلوك التي تصلح مثالاً لكل ما يمكن أن يحصل للإنسان في حياته، ما دمنا نعرفه من قريب ونجتهد في العيش بمقتضى سنته السّنية...



يقول جبير بن مطعم رضي الله عنه:

«بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرَةٍ، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال:

"أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً"».[٣٣٦]

كان النبي ﷺ حليماً وسمحاً في التعامل مع المسلمين حديثي العهد بالإسلام ممن لم تتقبل روحه لطافة هذا الدين ودقته.



٣٣٥ ابن ماجة، الصدقات، ١٧/ ٢٤٢٦.

٣٣٦ البخاري، الجهاد، ٢٤/ ٢٨٢١، الخمس، ١٩/ ٣١٤٨.



عن أنس ﵁ قال:

«ولا مسست خزة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكة ولا عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله ﷺ، وقد خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف، ولا لمَ صنعتَ؟ ولا ألا صنعتَ» .[337]

وهكذا كان النبيّ ﷺ يربّي أنسا ﵁ -الذي أُودِع لديه في العاشرة من عمره- بسلوكه وتعامله، والذي يأتي أسلوب التربية في التصوف على نمطه، فالإنسان يُعجَب بذوي الشخصية العليّة والميزات السّنية ويُقلِّدهم، لأنّ «ميل التقليد» واحد من أثبتِ الميول الموجودة في خِلْقةِ الإنسان، ولذا فإن الإنسان يحقّق الكمال المعنوي تحت تأثير الشخص المعجَب به ويقلده في البأساء والضراء.



عن معاوية بن الْحكم السُّلميِّ قال:

«بَيْنَمَا أنا أصلي مع رسول اللّه ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك اللّه فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو

٣٣٧ البخاري، الصوم، ٥٣، المناقب، ٢٣؛ مسلم، الفضائل، ٨٢.



وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فواللّه، ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال:

"إنّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن"

أو كما قال رسول اللّه ﷺ قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية...». (٣٣٨)



يقول زيد بن سعنة من أحبار اليهود:

«خرج رسول الله ﷺ يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، إن بصرى قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلتَ، فنظر إلي رجل وإلى جانبه أراه علياً رضي الله عنه فقال: يا رسول ما بقي منه شيء، قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا، فقال:

---

٣٣٨ مسلم، المساجد، ٣٣/ ٥٣٧.



"لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمي حائط بني فلان"

فقلت: نعم، فبايعني، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل فقال:

"اعدل عليهم وأعنهم بها"

فقال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته، فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت له:

ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب سيئي القضاء مطلا، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، ونظرت إلى عمر فإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم رماني ببصره، فقال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتصنع به ما رأى؟ فو الله الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال:

"يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعاً من تمر"

فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما نقمتك، قلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، من أنت؟



قلت: زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: الحبر، قال: فما دعاك أن فعلت برسول الله ﷺ ما فعلت وقلت له ما قلت له، قال: يا عمر، لم يكن له من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنين لم أخبرهما منه، هل يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرتهما، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وأشهدك أن شطر مالي -فإني أكثرهم مالاً- صدقة على أمة محمد ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: أو على بعضهم فإنك لا تسعهم، قلت: أو على بعضهم، فرجع زيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وآمن به وصدقه...».(٣٣٩)

لقد تمكّن النبي ﷺ بحلمه وصبره أن يبلغ بالبشر مقاما ساميا ليكونوا شخصيات عظيمة رباها رسول الله على عينه، حتى انتشر الإسلام بفضل الله عز وجل في الجزيرة العربية بأكملها في فترة وجيزة.



«كان في الأسرى الذين ساقهم عبد الله بن جحش في سرية بطن نخلة الحكمُ بن كيسان، فقدموا به على رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فأطال رسول الله كلامه، فقال عمر بن الخطاب: تكلمُ هذا يا رسول الله؟ والله لا يسلم هذا آخرَ

٣٣٩ الحاكم، ٣، ٧٠٠/ ٦٥٤٧.



الأبد! دعني اضرب عنقه، ويقدم إلى أمه الهاوية، فجعل النبي ﷺ لا يُقبل على عمر، قال الحكم: وما الإسلام؟ فقال ﷺ:

"تعبد الله وحده لا شريك له، وتشهد أن محمداً عبد ورسوله"

قال: قد أسلمت، فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال:

"لو أطعتكم فيه آنفاً فقتلته دخل النار"

قال عمر: فما هو إلا أن رأيته قد أسلم، وأخذني ما تقدم وتأخر، وقلت: كيف أرد على النبي ﷺ أمراً هو أعلم به مني، ثم أقول: إنما أردت بذلك النصيحة لله ولرسوله، قال عمر: فأسلم والله، فحُسن إسلامه، وجاهد في الله حتى قتل شهيداً يوم بئر معونة ....»[٣٤٠]



قال أبو هريرة رضي الله عنه:

«أنَّ أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ:

"دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء، أو سجلاً من ماء، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين"».[٣٤١]



---

٣٤٠ ابن سعد، ٤، ١٣٧ ـ ١٣٨؛ الواقدي، ١، ١٥ ـ ١٦.

٣٤١ البخاري، الوضوء ٥٨/ ٢٢٠، الأدب ٨٠/ ٦١٢٨.



عن أنس بن مالك ﵁، قال:

«كنت أمشي مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد أثرت بها حاشية الرداء، من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء». [٣٤٢]

ما أجمله وأعظمه من نموذج على الحلم والمسامحة !...



«ذات يوم مرَّ أبو الدرداء على أناس يضربون رجلاً ويسبونه، فقال لهم: ماذا فعل؟ فقالوا: أذنب ذنبًا، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في بئر أكنتم تستخرجونه منها؟ قالوا: نعم نستخرجه، قال: فلا تسبوا أخاكم، وأحمدوا الله الذي عافاكم، فقالوا له: ألا تبغضه وتكرهه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي». [٣٤٣]



روي: «أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان رسول الله

٣٤٢ البخاري، الخمس ١٩، اللباس ١٨، الأدب ٦٨؛ مسلم، الزكاة ١٢٨/ ١٠٥٧.

٣٤٣ عبد الرزاق، ١١، ١٨٩؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢٢٥.



ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه! ما أكثر ما يُؤتى به! فقال رسول الله ﷺ:

"لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله، لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم، ولكن قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه"».(٣٤٤)

وهذه صورة بارزة لأسلوب الحلم والمسامحة من النبي عليه الصلاة والسلام نابعة من شفقته ورفقه ومحبته لأمته عليه الصلاة والسلام.



سُرِق حصان ربيع بن الهيثم البالغ قيمته عشرين ألف درهم أمام عينيه، وهو في الصلاة، إلا أنّه رجّح إتمام صلاته التي يؤديها بخشوعٍ على اللحاق بالسارق، ولما سمع أصحابه بخسارته هذه أتوه مسرعين يخففون عليه، فقال لأصحابه:

«قد رأيت الرجل وهو يفك لجام حصاني لكنني كنت منشغلاً بعمل أهمّ من ذلك وأحبّ إلي، لذا لم أتعقبه»

وعلى إثر ذلك بدأ أصحابه بالدعاء عليه، فقال رضي الله عنه مقاطعاً كلامهم:

«اهدؤوا، لم يظلمني أحد إنما ظلم ذلك الرجل نفسَه، فلا نظلمه فنزيد في ظلمه لنفسه».(٣٤٥)

---

٣٤٤ انظر: البخاري، الحدود، ٤، ٥/ ٦٧٨٠/ ٦٧٨١؛ أبو داوود، الحدود، ٣٥.

٣٤٥ انظر: بابان زاده أحمد نعيم، أسس أخلاق الإسلام، ص: ٨٥ ـ ٨٦.



هذا نموذج حيٌّ فريد في قمّة الرحمة والشفقة... ومقام استثنائي لأولياء الله تعالى، حين ينظرون إلى المخلوقات بعين الخالق...



وما أروع جواب الإمام الشعبي -من كبار التابعين- لفاسق احتقره، إذ يعكس بموقفه رضي الله عنه فضيلةً عظيمة،حيث قال:

«إن كان ما قلته صحيحاً، فليغفُ الله عني، وإن كان كذباً، فليصفح الله عنك».



وباختصار فإنّ الحلم والمسامحة -إذ تفيض بهما القلوب الرحيمة المشفقة- من الأسس المهمة في التعامل مع الناس، وهذا أمر إلهي وسمة من سمات النبي عليه الصلاة والسلام، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«من أعطي حظّه من الرّفق فقد أعطي حظّه من الخير، ومن حُرم حظّه من الرّفق فقد حُرم حظّه من الخير».[٣٤٦]

---

٣٤٦ الترمذي، البر، ٦٧/ ٢٠١٣.



١١ . حسن الظن

إنّ حسن الظن هو التفكير الجيد وحمل الأمور على أحسنها والابتعاد عن الأفكار السلبية والسيئة، وعندما يوفّق المسلمون إلى زرعِ حسن الظنّ في قلوبهم بعضهم لبعض، يكونون قد تفادوا الوقوعَ في الكثير من الأخطاء، تقول الآية الكريمة مشيرة إلى وجوب إغلاق الطرق المؤدّية إلى سوء الظن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٤٧)

يقول رسول الله ﷺ:

«إِيَّاكُمْ والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تَحسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللّه إخوانا».(٣٤٨)

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«لا يُبْلِّغْنِي أحدٌ من أصحابي عن أحد شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».(٣٤٩)

---

٣٤٧ الحجرات، ١٢

٣٤٨ مسلم، البر، ٢٨ ـ ٣٤/ ٢٥٦٣.

٣٤٩ أبو داوود، الأدب، ٢٨/ ٤٨٦٠.



إنّ تحسين الظن بالغير لا يحمّل المرء عبئاً ولا يكلّفه مشقة، بل على العكس، يقيه من الوبال والمشاق، وقول علي رضي الله عنه:

«أحسن الظنّ بعباد الله تعالى يرتحْ قلبك»، يوضح لنا هذه الحقيقة بشكل حسن.

وعلى المسلمين كذلك تحسين الظن بموتاهم، ويأملون أن يعفو الله تعالى عنهم، فالتفكير عكس هذا لا يجلب نفعاً لأي أحد.

وينبغي على المرء تحسين الظن بالناس شريطةَ ألا ينجر إلى السذاجة، لكن إن لم تتبين الحقيقة في أمر ما كما يجب، فعليه تحسين الظن وتحسين ظنه في حقّ الطرف الآخر، لأننا سنُحاسب عن سوء ظننا، وأما حسن الظن فإننا حتى لو أخطأنا لن نحاسَب على ذلك، ولن تتعدى خسارتنا إلا خطأً ارتكبناه بحسن نيّة وظن منّا، لكن لو أسأنا الظن بأحدهم فإننا في آخر المطاف سنحاسَب على ذلك لا محالة.

صور الفضيلة

ووفق ما نقله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فإن فخر الكائنات رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال وهو يطوف بالكعبة:

«ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله، ودمه، وأن نظن به إلا خيراً».[٣٥٠]

---

٣٥٠ ابن ماجة، الفتن، ٢/ ٣٩٣٢.

فتحسين الظنّ بالمؤمنين أساسٌ إسلاميٌّ مهمٌّ، بمقتضى الحديث الشريف.



كان رسول الله عليه الصلاة والسلام -الذي تعرض للهمّ والغمّ جراء حادثة الإفك التي تحمل كبرها المنافقون- قد استشار من زوجاته زينب بنت جحش ﵂ وبريرة جارية عائشة ﵂، وسألهن عن أمّنا عائشة ﵂، [351] وقد كان جواب كلتيهما مبنياً على حسن الظن، تقول السيدة عائشة ﵂ في هذا الصدد:

«كان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب، ما علمتِ، ما رأيتِ؟، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع». [352]

تقول السيدة عائشة ﵂:

«أن زينب كانت من بين زوجات النبي ﷺ تسابقني وتنافسني لبعض فضائلها، فكان بإمكانها وقد سنحت لها الفرصة أن تنتهزها وتطعن بالسيدة عائشة لتكون أقرب إلى النبي ﷺ، لكن الله تعالى عصمها لورعها وصلاحها من الانضمام إلى فريق المفترين».

---

٣٥١ انظر: البخاري، الشهادة، ١٦.

٣٥٢ انظر: البخاري، الشهادات، ١٥، ٣٠؛ مسلم، التوبة، ٥٦.



ما أجمله من مثال على حسن الظن... حيث احتمت أمّنا زينب بنت جحش رضي الله عنها بمظلّة حسن الظن، في حالةٍ كان من الممكن أن تزلّ قدم الكثيرين فيها، وبذلك تخلّصت مِن السخط والعتاب الإلهي النازل بالمفترين، وقد أتى المفترين ومَن وقع في سوء الظنّ تحذيرٌ رهيبٌ مع الآيات الكريمة التي أظهرت براءة أمّنا عائشة رضي الله عنها، وبيَّنت الآيات الكريمة أنهم سيهلكون جميعهم على نحوٍ مفجِع لولا عفو الله سبحانه وتعالى، وتكرار هذا التحذير والتهديد عدة مرات كافٍ في بيان مدى قبح سوء الظن، تقول الآية الكريمة:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (٣٥٣)

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٥٤)



ورُوي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه:

«أنه قد قالت له امرأته أم أيوب إبان حادثة الإفك: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟، قال: بلى، وذلك الكذب،

٣٥٣ النور، ١٢.

٣٥٤ النور، ١٤.



أكنت يا أم أيوب فاعلة؟، قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة -والله- خير منك».[355]

وهذا مثال على حسن الظن من ذلك الجيل المثالي ...



وعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ، قال:

«إذا رأيتم أخاكم قارف ذنباً فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه، تقولوا: اللّهم أخزه، اللّهم العنه، ولكن سلوا اللّه العافية، فإنا أصحاب محمد ﷺ كنا لا نقول في أحد شيئاً حتى نعلم على ما يموت، فإن ختم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيراً، وإن ختم له بشر خفنا عليه عمله».[356]



دُخل على أبي دجانة وهو مريض -وكان وجهه يتهلل- فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟، فقال:

«ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، أما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً».[357]



---

٣٥٥ ابن هشام، ٣، ٣٤٧؛ الواقدي، ٢، ٤٣٤.

٣٥٦ أبو نعيم، الحلية، ٤، ٢٠٥.

٣٥٧ ابن سعد، ٣، ٥٥٧.



ويذكر لنا حضرة مولانا الأوصاف القبيحة والمهلكة في عالم الإنسان الداخلي من سوء ظن وحسد وغيرة مثالاً بيناً على النحو التالي:

كان أحد السلاطنة قد اشترى عبدين، وكي يعرف سويتهم العقلية والقلبية، بدأ بالكلام أولاً مع أحدهما، فكانت الأجوبة التي رد بها العبد على أسئلة السلطان مما يعجز المرء على الردّ به إلا بعد التفكير المليِّ، فرضي السلطان على هذا الخادم وقد وجده متفهماً ذكياً حلو اللسان، ودعا العبد الآخر إليه:

فمَثُل العبد الآخر بين يدي السلطان، كان لفمه رائحة مزعجة لمرض فيه، وأسنانه سوداء اللون من الإهمال وعدم الاهتمام، فتحدّث السلطان إلى العبد مع أنه لم يَرُقْه مظهرُه الخارجي، كي يتعرّف على أحواله وأوصافه التي يجهلها ويقف على أسراره.

«ابتعدْ قليلاً بهذا المظهر وهذه الرائحة، لكن لا تبتعد كثيراً، ولنجد لمشكلة فمك حلاًّ، أنت امرؤٌ محبوب ونحن أطباء مهرة، ولا يليق بنا احتقارك واستصغارك، فاجلس هنا وقُصّ لنا بعض الأمور كي نعلم مستوى عقلك»، ثم التفت السلطان إلى العبد الأول الذي كلمه أولاً قائلاً:

«وأنت هيا اذهب إلى الحمام واستحم جيداً».

وبعدما ذهب صاحبه قال للعبد الآخر راغباً في جعله يتحدث وممتحناً إياه:



«لقد تكلم صاحبك الذي حدثته قبلك عليك بالسوء، وإني لأراك خلاف ما قال، كان ذلك الحسود على وشك أن يفرق بيننا، وقد قال عنك صاحبك: «إنه سارق، غير صالح، خليع يقوم ويقعد مع الأشقياء»، فما تقول أنت عنه؟».

فقال العبد الثاني للسلطان عقب هذا الكلام:

«لا يمكنني القول عن ذلك الصاحب الذي فكّر بحسن نيةٍ وتكلّمَ بحقٍّ أنه أخطأ، بل على العكس فإني أجتهد لإصلاح حالي عندما أفكر في كل هذه النقائص الموجودة بي، يا مولاي! قد يكون رأى كثيرا من عيوبي التي غفلت عنها»

فقال السلطان للعبد:

«فلتقلْ لنا عيوبه كما ذكر هو عيوبك»

فقال العبد للسلطان:

«مولاي! إنه صديق جيد لي، يمنعني قلبي من الخوض عيوبه، ولذا ليس باستطاعتي إلا قول ما يلي: في رأيي عيوبه فضائل، إنه نموذج على الحب والوفاء والإنسانية، فحاله الاستقامة والفطنة والصداقة، وإحدى صفاته الكرم، وعون المحتاجين، وهو من السخاء إلى حدٍّ يجعله يضحي بنفسه إن لزم الأمر، وثمّة صفة أخرى لصديق عمري وهي عدم تكبره، فهو حسن الخلق مع الجميع، لكنه مسيئ لنفسه».



فقال السلطان للعبد مقابل جوابه هذا:

«لا تبالغ في مدح أصحابك، ولا تثني على نفسك أثناء مدحك إياهم، لأنني أحاسبه فتخجل أنت».

فقال العبد عقب هذا:

«لا! لم أبالغ في مدحه، فجميع خصال صديقي ذلك أكثر مما ذكرْتُ بأضعاف مضاعفة، وقد أخبرتكم بكل ما أعرفه عن صاحبي، لكن يا مولاي الكريم! لا تصدقونني فيما أقول، فماذا بإمكاني أن أفعل؟ فقلبي يُلزمني بقول هذا».

ولما رجع العبد الآخر من الحمام استدعاه السلطان، وقال له:

«أكرمك الله بالصحة وأنعم الله عليك بنعم تامة، لكن لو لم تكن فيك الصفات السيئة التي أخبر عنها صاحبك لكان الأمر أحسن، ولَسُرَّ من رأى وجهك الحسن واستبشر، ولكانت رؤيتك تعوّض عن ملك الدنيا كلها».

فقال العبد:

«مولاي! هلا تحدثتم لي عن بعض ما قاله هذا المختلّ عني!»

فقال السلطان:

«لقد ذكر أولاً أنك منافق، وأنك في ظاهرك دواء وفي حقيقتك داء».

فثار غضب العبد حين سمع هذا الكلام من السلطان، وأزبد فمه واحمّر وجهه، وتجاوز حدّ غيبة صاحبه، فقال:



«كان صديقاً لي في السابق، إلا أنه بذيء اللسان، ككلب في مجاعة، يأكل القذارة في كثير من الأحيان».

فبدأ العبد يخوض في صديقه، ويصرخ بصوتٍ عالٍ مظهراً كلّ القبائح الداخلية واحدة تلو الأخرى، فقال السلطان واضعاً يده على فمه، قائلاً له:

«لقد رأيت الفرق بينكما بفضل هذا الاختبار، رائحة فم صاحبك تفوح من مشكلة مادية، لكن رائحة روحك هي التي تفوح! يا من تفوح رائحة روحه، قف بعيداً، سيصبح صاحبك أميراً عليك، وستخضع أنت لأمره، تعلّم منه الأدب والإنسانية والتحدث! واتّعظ من فضيلته، ودع عنك سوء الظن والحسد، فأنت بهذه الأوصاف القبيحة شخص مسكين أثقلت ظهره الظنون، التي تعجز معها عن بلوغ مراقي الكمال».

فحصل العبد الذي أحسن الظنّ بصاحبه على اللطائف المادية والمعنوية لامتلاكه قمّة الفضائل، وأما العبد الآخر الذي أساء الظنّ قبل تبيُّن الحقيقة وغضب وثار فقدَ مكانته في العين والقلب وباء بالخسران.



وخلاصة القول إن تحسين الظن بالناس وإضمار المشاعر الحسنة تجاههم ثمرة لفضيلة النظر إلى المخلوقات بعين الخالق، فطلب الخير للناس ورؤية النواحي الإيجابية والحسنة لديهم صفة مهمة لاكتساب رضا الحق تعالى ومحبة عباده.



١٢. الكرم والإيثار

والكرم هو التفضل على المحروم بما في اليد، وقمّة الكرم «**الإيثار**»، وأجمل تعريف للإيثار ما ذكرته الآية الكريمة وهي تصف ثلة من المؤمنين:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (٣٥٨)

والكرم حصيلة رحمة تثمر عن الإيمان، وأما الرحمة فهي الإسراع إلى مدّ يد العون للغير تعويضاً عن حرمانه.

وليس الكرم عطاء بلا سبب أو جود بلا حساب، وإنما هو الإحسان لعباد الله تعالى والقيام بحق النعمة، وقد قال الحق تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (٣٥٩)

---

٣٥٨ الإنسان، ٨ ـ ١١.

٣٥٩ الإسراء، ٢٩.

فلا تمسك يدك عن الإنفاق، ولا تنفق كل ما معك حتى تندم وتلوم نفسك.

إن الكرم من صفات الله تعالى، واسم من أسمائه تعالى «الكريم»، أي واسع الكرم والإحسان، السخي بلا حدود، [٣٦٠]

إضافة إلى أن الأوصاف الإلهية كالرحمن، الرحيم، الوهاب، اللطيف، التواب، الغفار، العفو، الرؤوف، الهادي تعبر عن التجليات المختلفة لكرم الله تعالى.

وقد تفضلت الأحاديث الكريمة في هذا الشأن بما يلي:

«إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها».[٣٦١]

«إنَّ اللّه طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجُود...».[٣٦٢]

فعلى المؤمن أن يكون كالقمر يبعث أنواره إلى كل زوايا الدنيا في الظلام، غني الفؤاد، عميق الإحساس بالآخرين، رقيقاً، مؤثراً، رحيماً، شفيقاً، إذ تقول الآيات الكريمة:

---

٣٦٠ انظر: الانفطار، ٦.

٣٦١ السيوطي، ١، ٦٠.

٣٦٢ الترمذي، الأدب، ٤١/ ٢٧٩٩.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٦٣)

﴿... وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ...﴾ (٣٦٤)

يقول علي رضي الله عنه:

«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا...»(٣٦٥)

وفي هذا الصدد يلزمنا تجهيز زاد الآخرة -من خلال تمتّعنا بالكرم والإيثار- ونحن في هذه الدنيا، كيلا تكون أيدينا خاوية يوم ننتبه في العالم الأبدي، ونبوء بالحرمان والهلاك، وما أجمل ما يقوله حضرة مولانا قدّس سرّه:

«الحياة الدنيا حلم، وكل ما يملك الإنسان فيها كالذي يملكه في الحلم، لا قيمة له، فمتاع الدنيا ينتقل فيها من جيل إلى آخر».

«يوقظ ملكُ الموت الغافلَ من النوم حين يأخذ روحه، فيتألّم الغافل ويتحسّر على المشاقّ التي تحمّلها في الدنيا في سبيل مال لا يملكه على الحقيقة، ويندم أشدّ الندم، ولات ساعة مندم، فكل ما قد فات مات...».

هذه هي حياة الدنيا وهذه هي حياة الآخرة...

---

٣٦٣ البقرة، ٢٥٤.

٣٦٤ سبأ، ٣٩.

٣٦٥ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣١٢/ ٢٧٩٥.

تقول الآية الكريمة:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٣٦٦]

وهكذا يثني الحق تعالى على عباده المؤثْرين والكرماء ذوي القلوب اليقظة في هذه الأمور فيقول:

﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ [٣٦٧]

ويقول رسول الله ﷺ -من لم يسمع منه طالب حاجة «لا» قط- [٣٦٨] في صدد الحديث عن فضل الكرم والكرماء:

«السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدليات (متدلية) في الدنيا، من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة، والبخل شجرة من شجر النار، أغصانها متدليات (متدلية) في الدنيا، من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى النار». [٣٦٩]

---

٣٦٦ المنافقون، ١٠ ـ ١١.

٣٦٧ الحشر، ٩.

٣٦٨ انظر: البخاري، الأدب، ٣٩؛ مسلم، الفضائل، ٥٦.

٣٦٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٤٣٥/ ١٠٣٧٥.



عن أبي هريرة ﵁، قال: «قال رسول الله ﷺ:

"مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد، قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، حتى تغشي أنامله وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت، وأخذت كل حلقة مكانها "

قال: فأنا رأيت رسول الله ﷺ، يقول: بإصبعه في جيبه «فلو رأيته يوسعها ولا توسع».(٣٧٠)

«السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله ﷻ من عابد بخيل».(٣٧١)

«تجافوا عن ذنب السخي، فإن الله آخذٌ بيده كلما عثر».(٣٧٢)

وتقول السيدة أسماء بنت أبي بكر ﵄ أن النبي ﷺ قال لها:

«لا توكي فيوكى عليك».(٣٧٣)

«...أنفقي ولا تحصي، فيحصي الله عليك».(٣٧٤)

---

٣٧٠ انظر: البخاري، الجهاد ٨٩، الزكاة ٢٨؛ مسلم، الزكاة ٧٦ ـ ٧٧/ ١٠٢١.

٣٧١ الترمذي، البر، ٤٠/ ١٩٦١.

٣٧٢ الهيثمي، ٦، ٢٨٢.

٣٧٣ البخاري، الزكاة، ٢١/ ١٤٣٣.

٣٧٤ مسلم، الزكاة، ٨٨/ ١٠٢٩.

إن كلّاً من الإيثار، الكرم، الإخلاص، الألفة، هي في حقيقتها أثر لنضج القلب ورقي الروح، والابتعاد عن العلاقات النفسية التي تعكر طمأنينة القلب وسكونه الذي لا يتحقق إلا بتأثير الكرم.

وما أجمل بيان حضرة مولانا لخصلة الكرم ومصيبة البخل:

«الكرم غصن من سرو الجنة، والويل لمن أفلت هذا الغصن من يده، من يزرع المحصول يُفرغ المخزن أولاً لكن محصوله يكون وفيراً فيما بعد، وأما الذي يمسك بذوره في المخزن يتحول طعماً وعلفاً للفئران».

«وكما أن الحسنة وجوههم يبحثون عن مرايا صافية ولامعة، فكذا الكرم يطلب الفقراء والضعفاء، والحسنة وجوههم ترى وجوههم جميلة في المرآة، وجمال الكرم والإحسان إنما يظهر بالفقراء وبني السبيل».

«إن الأفئدة المخنوقة في الفقر والعوز لأشبه ببيت ممتلئ بالدخان، فافتح نافذة في ذلك البيت الذي يغمره الدخان تطل منه على همومهم كي ينقشع الدخان وترِقَّ روحك بعد أن يلين قلبك».

وثمّة حاجة ملحّة في يومنا إلى حملة إنفاق وإيثار واسعة، ولا ننسى أننا قد نكون يوما في مكان المساكين والمحتاجين، ولذا فكرمنا وإيثارنا أمام الغريب واليتيم والمحتاج والجائع وفاء لدين الشكر لربنا، ولنشارك المحتاجين بالنعم التي بين أيدينا كي تتحول القلوب التي أرضيناها وسرّيناها روحانية لنا في الدنيا وعوناً في الآخرة وسعادة في الجنة.



صور الفضيلة

«ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا فإنّ محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة».[٣٧٥]

حتى إن بعضهم كان يعتنق الإسلام طمعا في الأعطيات، لكنهم ما يلبثوا إلا قليلا حتى يغدو الإسلام لديهم أغلى من الدنيا وما فيها.



كان صفوان بن أمية -من أسياد قريش وأشرافها وكان ما زال كافرا آنئذ- إلى جانب سيدنا الرسول الأكرم ﷺ في غزوتي حنين والطائف، فعن ابن الزبير: أن صفوان أعار النبي ﷺ مائة درع بأداتها، فأمره النبي ﷺ بحملها إلى حنين، إلى أن رجع النبي ﷺ إلى الجعرانة.

فبينا هو يسير ينظر إلى الغنائم، ومعه صفوان، فجعل ينظر إلى شعب ملأى نعما وشاء ورعاء؛ فأدام النظر، ورسول الله يرمقه، فقال: "**أبا وهب، يعجبك هذا؟**" قال: نعم. قال: "**هو لك**". فقال: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وتشرَّفَ بالإسلام، وقال بعد ذلك يبين أثر كرم رسول الله ﷺ عليه: أتيت النبي ﷺ فأعطاني، فما زال يعطيني، حتى إنه لأحب الخلق إلي.

---

٣٧٥ مسلم، الفضائل، ٥٧ ـ ٥٨.



وهكذا كان سيدنا النبي ﷺ -وهو في ذروة الصفات والأخلاق- يُكرم الناس بقصد هدايتهم وتأليف قلوبهم.



يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».[٣٧٦]



وعن أبي هريرة رضي الله عنه:

«أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: **"من يضم أو يضيف هذا"**، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيّئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال:

"ضحك الله الليلةَ أو عجب من فعالكما"، فأنزل اللّه:

٣٧٦ البخاري، بدء الوحي، ٥، ٦، الصوم، ٧؛ مسلم، الفضائل ٤٨، ٥٠.



﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣٧٧]».[٣٧٨]



وعن عائشة رضي الله عنها:

«أنهم ذبحوا شاة، فقال رسول الله ﷺ: "**ما بقي منها**"؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: "**بقي كلها غير كتفها**"».[٣٧٩]

أي إنّ ما نملكه في الحقيقة هو ما ننفقه...



جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

«ما عندي شيء أعطيك ولكن استقرض حتى يأتينا شيء، فنعطيك، فقال عمر: ما كلفك الله هذا، أعطيت ما عندك فإذا لم يكن عندك فلا تُكلَّف، قال: فكره رسول الله ﷺ قول عمر رضي الله عنه حتى عُرف في وجهه، فقال الرجل: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فأعط ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، قال: فتبسم النبي ﷺ، وقال: "**بهذا أُمرتُ**"».[٣٨٠]

---

٣٧٧ الحشر، ٩.

٣٧٨ البخاري، مناقب الأنصار، ١٠/ ٣٧٩٨، التفسير، ٥٩/ ٦؛ مسلم، الأشربة، ١٧٢.

٣٧٩ الترمذي، القيامة، ٣٣/ ٢٤٧٠.

٣٨٠ الهيثمي، ١٠، ٢٤٢.



وهكذا هي القلوب الرحيمة، لا ترتاح ولا تطمئن حتى تبعث الراحة و الطمأنينة في قلوب من حولها من المؤمنين.



كان عبد الله الهروي -أحد كبار التابعين- على علم بكرم النبي ﷺ، إلا أنه رغب في معرفة ذلك عن كثب، فيقول: لقيت بلالاً رضي الله عنه مؤذن رسول الله ﷺ بحلب، فقلت: يا بلال، حدثني كيف كانت نفقة رسول الله؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله إلى أن توفي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلما فرآه عارياً يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه، حتى اعترضني رجل من المشركين فقال: يا بلال إن عندي سعة فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت فلما أن كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار فلما أن رآني قال: يا حبشي، قلت: يا لباه، فتجهمني وقال لي قولاً غليظاً، وقال لي: أتدري كم بينك وبين الشهر، قال: قلت: قريب قال: إنما بينك وبينه أربع، فآخذك بالذي عليك فأردك ترعى الغنم كما كنت قبل ذلك، فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس، حتى إذا صليت العتمة رجع رسول الله إلى أهله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إن المشرك الذي كنت أتدين منه قال لي كذا وكذا وليس عندك ما تقضي عني ولا عندي، وهو فاضحي فأذن لي أن آبق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد



أسلموا حتى يرزق الله رسوله ما يقضي عني، فخرجت حتى إذا أتيت منزلي فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومجني عند رأسي حتى إذا انشق عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق، فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال، أجب رسول الله، فانطلقت حتى أتيته، فإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالهن، فاستأذنت فقال لي رسول الله:

«**أبشر فقد جاءك الله بقضائك**»، ثم قال: «**ألم تر الركائب المناخات الأربع؟**» فقلت: بلى فقال: «**إن لك رقابهن وما عليهن فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهنّ إليَّ عظيم فدك، فاقبضهن واقض دينك**»، ففعلت فذكر الحديث، ثم انطلقت إلى المسجد فإذا رسول الله قاعد في المسجد فسلمت عليه فقال: «**ما فعل ما قبلك**» قلت: قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله فلم يبق شيء قال: أفضل شيء؟ قلت: نعم قال: انظر أن تريحني منه، فإني لست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منه، فلما صلى رسول الله العتمة دعاني فقال: «**ما فعل الذي قبلك**»، قال: قلت: هو معي لم يأتنا أحد، فبات رسول الله في المسجد وقص الحديث، حتى إذا صلى العتمة يعني من الغد دعاني، قال: «**ما فعل الذي قبلك**»، قال: قلت: قد أراحك الله منه يا رسول الله، فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك، ثم اتبعته حتى إذا جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة، حتى أتى مبيْته فهذا الذي سألتني عنه.[٣٨١]

٣٨١ أبو داوود، الخراج، ٣٣-٣٥/ ٣٠٥٥؛ ابن حبان، الصحيح، ١٤، ٢٦٢-٢٦٤.



وهكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام من الكرم بحيث يستدين كي يتصدق... فيا ترى كم فينا -ونحن من أمته- من خلقه وكرمه هذا عليه الصلاة والسلام.



وما أحسن ما يعبر به الشاعر عن كرم النبي ﷺ وإيثاره إذ يقول:

لَوْ لَمْ يَكُن فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ   لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهُ

ويقول شاعر آخر:

مَنْ قَاسَ جَدْوَاكَ يَومَـــا   بِالسُّحُبِ أَخْطَأَ مَدْحَـكَ

السُّحُبُ تُعْطِي وَتَبْكِـي   وَأَنْتَ تُعْطِي وَتَضْحَـكُ

هذا ما كان عليه كرم النبي عليه الصلاة والسلام، فهو يضحّي -مسرورا مبتهجا- بنفسه تضحية تامة في سبيل الله تعالى، ويشبه مولانا خالد البغدادي كرمه على النحو التالي:

«إنّ رسول الله ﷺ لَمثال نادر وبليغ على الكرم إلى حدٍّ تعطي البحار من أجله الدرر ويخرج الياقوت من الحجر الأصمّ، وتتفتح الزهور من الشوك، وإنْ جرى الحديث في حديقة ما عن معالي أخلاقه لا يبق برعم إلا وتفتح مبتسماً أيَّ تفتّح». [٣٨٢]



٣٨٢ خالد البغدادي، الديوان، ترجمة. صدر الدين يوكسل، اسطنبول ١٩٧٧، ص: ٦٥ ـ ٦٦.



وما أروع إيثار السيدة عائشة رضي الله عنها:

«لما طعن سيدنا عمر رضي الله عنه وكانت دماؤه تسيل وهو ينتظر الوفاة قال: ... يا عبد الله بن عمر اذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقل لها: يقرأ عمر بن الخطاب عليكِ السلام، ثم سلها أن أدفن مع صاحبي، قالت: كنت أريده لنفسي، فلؤوثرنَّه اليوم على نفسي، فلما أقبل قال له: ما لديك؟ قال: أذنتْ لك يا أمير المؤمنين، قال: ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع، فإذا قُبضت فاحملوني ثم سلموا، ثم قل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنتْ لي فادفنوني وإلا فردوني إلى مقابر المسلمين، وإني لا أعلم أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض، فمن استخلفوا بعدي فهو الخليفة فاسمعوا له وأطيعوا، فسمى عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وولج عليه شاب من الأنصار، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله، كان لك من القدم في الإسلام ما قد علمت ثم استخلفت فعدلت ثم الشهادة بعد هذا كله، فقال: ليتني يا ابن أخي وذلك كفافاً لا عليّ ولا لي، أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيراً أن يعرف لهم حقهم وأن يحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ...﴾** [٣٨٣] أن يقبل من محسنهم ويعفو

٣٨٣ الحشر، ٩ .

عن مسيئهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم».[٣٨٤]

يعرض لنا هذا الحديث جانبا من إيثار عائشة رضي الله عنها العظيم وأدب ودقّة ولطافة عمر رضي الله عنه، في رفعه وتسامٍ تعجز العبارات عن وصفه.



كانت السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها امرأة تعمل بيدها وتمهر في ذلك، حيث كانت تعمل وتتصدق في سبيل الله تعالى، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لزوجاته وأسرته:

«**"أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا"**، قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا، قالت: فكانت أطولنا يدا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق».[٣٨٥]



ومن أشهر مواقف الكرم والإيثار ما فعله الأنصار مع المهاجرين، حيث ضمّت كل عائلة من الأنصار واحدةً من عوائل المهاجرين إليها بعد الهجرة، وبهذا كان الصحابة الذين تحقّق بينهم عقد الإخاء سيعملون مع بعضهم ويتقاسمون ما يكسبونه، حتى وهب بعض الأنصار أراضيهم الفائضة عن حاجتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فقسّمها النبي صلى الله عليه وسلم

٣٨٤ البخاري، أصحاب النبي ٨، الجنائز ٩٦، الجهاد ١٧٤، التفسير ٥٩/ ٥، الأحكام ٤٣.

٣٨٥ مسلم، فضائل الصحابة، ١٠١/ ٢٤٥٢.



بين المهاجرين، ولم يقف الأنصار عند هذا الحدّ، بل قَالَوا لِلنَّبِيِّ ﷺ:

«اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفونا المئونة، ونشرككم في الثمرة؟، قالوا: سمعنا وأطعنا».[٣٨٦]

وكم نحن –في يومنا هذا وقد كثر فيه الفقراء– بحاجة إلى مثل هذا الإيثار العجيب!..



عن أنس رضي الله عنه قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ:

"لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم"».[٣٨٧]



وعن جابر رضي الله عنه قال:

«كانت الأنصار إذا جزّوا نخلهم قسّم الرجل تمره قسمين، أحدهما أقلّ من الآخر، ثم يجعلون السعف مع أقلهما ثم يخيّرون المسلمين فيأخذون أكثرهما ويأخذ الأنصار أقلهما من أجل السعف حتى فتحت خيبر، فقال رسول الله ﷺ:

---

٣٨٦ البخاري، الحرث، ٥/ ٢٣٢٥.

٣٨٧ الترمذي، القيامة، ٤٤/ ٢٤٨٧.



"قد وفيتم لنا بالذي كان عليكم فإن شئتم أن تطيب أنفسكم بنصيبكم من خيبر ويطيب ثماركم فعلتم..."».[٣٨٨]



«كان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صدقوا ما عاهدوا الله عليه مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله... وقد نزلت هذه الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣٨٩]».[٣٩٠]

---

٣٨٨ الهيثمي، ١٠، ٤٠.

٣٨٩ الحشر، ٩.

٣٩٠ الرازي، ٢٩ ، ٢٥٠؛ القرطبي، ٢٨، ٢٥.



فعلى كل مؤمن أن يجد قلبه الطمأنينة كالأنصار كلما أعطى، وأن لا يخشى الفاقة بمقتضى الآية الكريمة السابقة.



«دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: "**إما لا**، (أي بترجيحكم إخوانكم المؤمنين على أنفسكم)، **فاصبروا** (على مصائب الدنيا) **حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثرة**"».[٣٩١]



عن عائشة زوج النبي ﷺ، أنّ مسكينا سألها، وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: «أعطيه إياه»، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: «أعطيه إياه»، قالت: ففعلت، قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي لنا شاة وكفنها، فدعتني عائشة أم المؤمنين فقالت: «كلي من هذا، هذا خير من قرصك».[٣٩٢]

تقول الآية الكريمة: ﴿... **وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**﴾[٣٩٣]

وإحسان الحق تعالى إلى العبد حسب مستواه القلبي.



---

٣٩١ البخاري، مناقب الأنصار، ٨/ ٣٧٩٤.

٣٩٢ الموطأ، الصدقة، ٥.

٣٩٣ التوبة، ١٠٤.



«أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، قال: فبعث إليه فلم يزل يبعث به واحداً إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول».[٣٩٤]



ومن الإيثار ما حكي عن حذيفة العدوي أنه قال:

«انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك؟، فأشار إلي أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فسمع آخرَ يقول: آه، فأشار إليَّ أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات».[٣٩٥]

ويتحدث حذيفة رضي الله عنه عن حالته الروحية آنذاك فيقول:

«لقد رأيت حوادث كثيرة، لكن لم تؤثر واحدة منها فيَّ بقدر ما أثرت فيَّ هذه الحادثة، فمع أنهم لا تجمعهم أية صلة كالرحم،

٣٩٤ الحاكم، ٢، ٥٢٦.

٣٩٥ انظر: القرطبي، ١٧، ٢٨؛ الزيلعي، نصب الراية، ٢، ٣١٨؛ الحاكم، ٣، ٢٧٠/ ٥٠٥٨.



فأحوال الإيثار والتضحية والشفقة، (أي تسليم نَفَسِهم الأخير بالفضيلة كما كانوا في حياتهم وتمكّنهم من توديع الحياة ضمن شعور ﴿**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [٣٩٦]). وقد تركت هذه الحادثة في ذاكرتي آثاراً عميقة بجلادة الإيمان الكبيرة التي أثارت فيَّ التعجب وجعلتني أشعر بالغبطة...» .



لقد كان لِمُعارِض الصوفية المعروف خليل غلام موقفاً عدائياً ضد المتصوفة، وقد قبض على جماعة بينهم أبو الحسين النوري وساقهم إلى مركز الخلافة، وصدر القرار بإعدامهم بأمرٍ من الخليفة العباسي آنذاك، ولما كان الجلاد على وشك ضربٍ عنق أحد الدراوشة، وثب أبو الحسين النوري عليه طوعاً والفرح يغمره، فتعجب العامة من فعله هذا وقال الجلاد:

«أيها الشجاع! إنك تقفز إلى الأمام لكن هذا السيف ليس شيئاً مرغوباً فيه على الإطلاق، ولم يأت دورك بعد، فلم العجلة؟».

فقال أبو الحسين قدس سره:

«إنما طريقي طريق إيثار، وأثمن وأغلى شيء عندي إنما هو الحياة، وأنا أريد أن أهب هذه اللحظات القليلة في الحياة إلى أصحابي كي يعيشوا فيها أكثر، لأن وقتاً في الدنيا يسع لنفس واحد

٣٩٦ انظر: آل عمران، ١٠٢.



خيرٌ وأكثر قيمة بالنسبة لنا من ألف سنة في الآخرة، لأن المكان دار خدمة، والآخرة مقام لقاء وقرب من الله تعالى، والقرب من الله تعالى يتحقق بخدمة الله تعالى، فرغم هذا فإني أضحي بأنفاسي المعدودة هذه لأصحابي». [٣٩٧]



بعد وفاة عثمان غازي، رجّح علاء الدين بيك المؤيد من قبل أسياد آخيلار [٣٩٨] (نقابة التجار) والإمارة والذي يجب أن يجلس على الكرسي حسب العرف، أخاه أورخان بيك على نفسه، وقال:

«يأ أخي! ليكن دعاء جدّنا وهمته معك، سلمَ إليك قيادة الجيش لَمَّا كان على قيد الحياة، وعليه فإن السيادة لك».

وقد غدا السيد علاء الدين بيك -الذي أظهر هذا الإيثار العظيم والتضحية- أكبر المؤيدين لأخيه بتكليفه وزارته. [٣٩٩]



هزَّ باكستان زلزال عظيم في الثامن من تشرين الأول عام ٢٠٠٥، فَقَدَ فيه أكثرُ من سبعين ألفاً من الناس حياتهم، ومن بقي على قيد الحياة بقي وجهاً لوجه أمام مخالب الجوع والفاقة، وقد

٣٩٧ الحجويري، كشف المحجوب، ترجمة، سليمان أولو داغ، اسطنبول ١٩٩٦، ص: ٣٠٢.

٣٩٨ وتعني الإخوة.

٣٩٩ رضا نور آكسون، تاريخ العثمانية، اسطنبول ١٩٩٤، ١، ٣٦.



أنفق ولد صغير من تركيا في ال٢٤ من تشرين الثاني نصف ماله للمنكوبين من إخوانه المسلمين، وقدم مثالاً يظهر قمة الإيثار:

«أنا ابن بيت فقير، لا أب لي، وأمي مريضة، ولدينا (ليرتان) من النقود ثمن الخبز، وقد أرسلت إليكم إحدى اللَّيرتين، لأنني عثرت اليوم على خبز بين القمامة، وسوف نفطر اليوم مساءً به، اشتروا بالليرة خبزاً للأطفال المتضرّرين بالزلزال، وهذا المال حلال، وبما أني سأدفع قيمة الطوابع لم أتمكّن من إعطاء كل نقودي لذا أعتذر».

ما أعظمه من مثال على الكرم والإيثار والفضيلة... كطيف رقيق يهبّ علينا من عصر النبوة...



وختاما، فإنّ النبي ﷺ كان في قمّة الكرم والإيثار في اليسر والعسر، إذ كان يحث أصحابه على الكرم والإنفاق من دون تفريق بين غني وفقير، وقد بين في حديث شريف أن الإنفاق لا يقلل المال قائلاً:

«ما طلعت شمسٌ قط إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلمُّوا إلى ربكم، فإن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمسٌ قطُّ إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً مالاً تلفاً». [٤٠٠]

٤٠٠ أحمد، ٥، ١٩٧/ ٢١٧٢١.



وإذاً فالمعرفة الأصلية جعلت الفؤاد بحراً بملئه بمشاعر الكرم والإيثار، وجعل النعم التي مَنَّ الحق تعالى بها وتجارة الدنيا غنى للآخرة، ومِن هذا المنظور فإنَّ خير المال ما أُرسل إلى الآخرة قبل صاحبه، وأكثر الأنفس خيراً ما أفني في سبيل رضا الله تعالى.

١٣ . القناعة والغنى

القناعة هي الرضا بما قدّر الله تعالى والاكتفاء بما يسد الحاجة، أي الاكتفاء بالإمكانيات المادية التي تلبي الحد الأدنى من الاحتياجات، وعدم التّطلّع إلى ما في أيدي الغير.

وينبغي على الإنسان -المخلوق في هذه الدنيا للابتلاء والامتحان- أن لا يستهلك كل إمكانياته في سبيل اكتساب المال ويقع في دوامة السعي إلى الرزق، ويغفل عن المقصد من خلقه، بل عليه أن يبذل جهوده لجعل ما رزقه الحق تعالى من مال وإمكانيات رأس ماله للآخرة، لأن الله تعالى أخذ على نفسه رزق جميع الخلق، وطلب من عباده أن يقنعوا بما قدره الله ﷻ لهم و يستغنوا به، تقول الآيات الكريمة:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٤٠١]

---

٤٠١ هود، ٦.



﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [٤٠٢]

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ...﴾ [٤٠٣]

﴿... فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ...﴾ [٤٠٤]

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [٤٠٥]

ويثني النبي عليه الصلاة والسلام على القانعين فيقول:

«قد أفلح من أسلَمَ ورُزقَ كفافا وقَنّعَهُ اللّهُ بما آتاهُ».[٤٠٦]

ثم إن الطماع ومن لا يقنع بما قسمه الله له يعاني من الشدة وضيق الصدر أكثر من الفقراء والمحتاجين حتى لو كان غنياً، إذ إنه لا يشبع ولا يكتفي مهما اكتسب من المال، وسيسعى في طلب المزيد دواما.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».[٤٠٧]

---

٤٠٢ الحجر، ٢٠.

٤٠٣ العنكبوت، ٦٠.

٤٠٤ النعكبوت، ١٧.

٤٠٥ ص، ٥٤.

٤٠٦ مسلم، الزكاة، ١٢٥/ ١٠٥٤.

٤٠٧ مسلم، الزكاة، ١٢٦/ ١٠٥٥.

يصور النبي ﷺ حال الجَشِعِ الذي لا يشبع كما يلي:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب».[٤٠٨]

إذاً فينبغي التوبة من معصية الطمع وعدم القناعة، وقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام من هم في هذه الحالة بما يلي:

«إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه».[٤٠٩]

ويوصي لقمان الحكيم بهذه النصيحة:

«يا بني لا تعلق نفسك بالهموم، ولا تشغل قلبك بالأحزان، وإياك والطمع، وارضى بالقضاء، واقنع بما قسم الله لك، يصف عيشك وتسرّ نفسك وتستلذ حياتك».

لكن علينا ألا نتوهم -نتيجة الفهم الخاطئ للقناعة- أنّ الإسلام يريد منا التكاسل وترك العمل واحتياج الناس، فالقناعة أمر قلبي وأخلاقي، وعلى المسلم أن يجتهد في كسب المال الحلال لينفق منه على المحتاجين والفقراء. وإحدى الخصال الحميدة التي تماثل القناعة غنى القلب، والرضا بما أعطى الله تعالى من غير انتظار شيء من الناس، أو مدِّ يد السؤال إليهم.

---

٤٠٨ البخاري، الرقاق ١٠؛ مسلم، الزكاة ١١٦ ـ ١١٩؛ أحمد، مسند، ١٣٥٥٢.

٤٠٩ البخاري، الرقاق، ٣٠/ ٦٤٩٠؛ مسلم، ٨/ ٢٩٦٣.



قال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام:

«جاءني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، ثم قال: يا محمد، شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس».[٤١٠]

ثم إنّ الغنى وصفٌ قلبيٌ يمتلكه الصالحون والصادقون والكُمَّلُ ممن استغنى بما وهبه الله عن التطلع إلى ما في أيدي الناس، فهو بما فيه يده أغنى مما في أيدي الناس، والغنى أيضاً بموجب حديث:

«القناعة كنز لا يفنى».[٤١١]

اطمئنان القلب لا يكون إلا باستغنائه عن الخلق وقربه من الحق تعالى، لأن القلب المستغني يسلم من القلق والمخاوف الدنيوية، وينعتق من أسار الدنيا وأهوائها، وبهذا تفقد الملذات الفانية بريقها عند المؤمن، فيغنيه الله تعالى عن كل ما سواه بشرف اسمه «الغني».

يقول رسول الله ﷺ:

«من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل».[٤١٢]

---

٤١٠ الحاكم، ٤، ٣٦٠_٣٦١/ ٧٩٢١.

٤١١ الديلمي، ٣، ٢٣٦/ ٤٦٩٩.

٤١٢ الترمذي، الزهد، ١٨/ ٢٣٢٦؛ أبو داوود، الزكاة، ٢٨/ ١٦٤٥.

ثم إن الغنى ليس الاستغناء عن المال والملك والثروة فحسب، بل هو استغناء القلب عن كل ما يشغله عن ربه، ويهوي به في مهاوي الغفلة والبعد عن الله ﷻ.

صور الفضيلة

كان النبي ﷺ -الذي يعيش القناعة في كل أحواله- يطلب من أصحابه عهداً بألا يسألوا أحداً شيئاً، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ:

"من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا، وأتكفل له بالجنة؟"

فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدا شيئا».[٤١٣]

يفيد الحديث الشريف فضيلة البقاء مستغنياً عن العباد.

ويبين سيدنا معروف الكرخي اهتمام التصوف وعنايته بتربية القناعة والغنى عن الناس في قلوب أبنائه، فيقول:

«التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق».



عن عوف بن مالك الأشجعي، قال:

«كُنّا عند رسول اللّه ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال:

"ألا تبايعون رسول اللّه؟"

---

٤١٣ أبو داوود، الزكاة، ٢٧/ ١٦٤٣.



وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال:

"ألا تبايعون رسول اللّه؟"

فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال:

"ألا تبايعون رسول اللّه؟"

قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال:

"على أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا - وأسر كلمة خفية - **ولا تسألوا الناس شيئا"**،

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إياهُ». (٤١٤)

وحين يكرر النبي ﷺ كلامه ثلاث مراتٍ، ويخفض صوته عند إحدى الجُمَل لينبه إلى أهمية ما سيبلّغه للحاضرين فيعتنوا به.



وقد روي: «أنه كان ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه، قال: فقالوا له: أفلا أمرتنا نناولكه؟! فقال: إن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً». (٤١٥)

---

٤١٤ مسلم، الزكاة، ١٠٨/ ١٠٤٣.

٤١٥ أحمد، ١، ١١.



وعن عمرو بن تغلب:

«أنّ رسول اللّه ﷺ أُتي بمال - أو سبي - فقسمه، فأعطى رجالا وترك رجالا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال:

"أما بعد فوالله إني لأعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب"

فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم».[٤١٦]



قال عمر رضي الله عنه:

«كان رسول اللّه ﷺ يُعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالاً، فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي ﷺ:

"خذه، فتموله، وتصدق به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وإلا فلا تتبعه نفسك"».[٤١٧]



---

٤١٦ البخاري، الجمعة ٢٩/ ٩٢٣، الخمس ١٩، التوحيد ٤٩.

٤١٧ البخاري، الزكاة، ٥١/ ٧١٦٣.



«قَدِم وفدُ تُجيب عليه ﷺ، ثم جاؤوه ﷺ يُودِّعُونه، فأرسل إليهم بلالاً، فأجازهم بأرفع ما كان يُجيزُ به الوفودَ، قال: **هَلْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟** قالوا: نعم، غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثُنا سناً، قال: أرسلوه إلينا، فلما رجعوا إلى رِحالهم، قالوا للغلام: انطلِق إلى رسول الله ﷺ، فاقضِ حاجتَك منه، فإنَّا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه، فأقبل الغلامُ حتى أتى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ إني امرؤ مِن بني أبْذَى، يقول: مِن الرهط الذين أتوك آنفاً، فقضيتَ حوائِجَهم، فاقض حاجتي يا رسول الله، قال: "**وما حاجتُك؟**" قالَ: إنَّ حاجتي ليست كحاجة أصحابي، وإن كانوا قَدِمُوا راغبين في الإسلام، وساقُوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإني واللهِ ما أعمَلني من بلادي إلا أن تسألَ الله ﷻ أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غِناي في قلبي، فقال رسولُ الله ﷺ -وأقبل إلى الغلام-: "**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وارْحَمْهُ، واجْعَلْ غِناهُ في قَلْبِهِ**"، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثم وافَوْا رسولَ الله ﷺ في الموسم بِمنَى سنةَ عشر، فقالوا: نحن بنو أبْذَى، فقال رسولُ الله ﷺ: "**ما فَعَلَ الغُلامُ الَّذى أتاني مَعَكُم؟**" قالوا: يا رسول الله؛ ما رأينا مثله قطُّ، ولا حُدِّثنا بأقنعَ منه بما رزقه الله، لو أن الناسَ اقتسموا الدنيا ما نظر نحوَها ولا التفتَ إليها، فقال رسولُ الله ﷺ: "**الحَمْدُ لله، إني لأرْجُو أَنْ يَمُوتَ جَمِيعاً**"، فعاش ذلك الغلامُ فينا على أفضلِ حال، وأزهده في الدنيا، وأقنعه بما رُزِقَ، فلما توفي رسول الله ﷺ،



ورجعَ مَنْ رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام في قومه، فذكَّرهم اللهَ والإسلام، فلم يرجع منهم أحد، وجعل أبُو بكر الصِّدِّيق يَذْكُره ويسأل عنه حتى بلغَه حالُه، وما قام به، فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيراً». (٤١٨)



إن عقد المؤاخاة الذي تحقق بين المهاجرين القادمين من مكة إلى المدينة والأنصار لصورة لا مثيل لها، لم يشهد التاريخ مثيلا لها، حيث إن الأنصار الكرام اقتسموا -بالتساوي- مع المهاجرين كل ما يملكونه من الأموال، ومقابل هذا الإيثار العظيم كان جواب المهاجرين -الذين باتت أفئدتهم كنوز القناعة والغنى-:

«... بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق...». (٤١٩)



عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

«أنّ رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: **"أما في بيتك شيء؟"** قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: **"ائتني بهما"**، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: **"من يشتري هذين؟"** قال رجل: أنا، آخذهما

---

٤١٨ ابن القيم، ٣، ٦٥٠ ـ ٦٥٢؛ ابن سعد، ١، ٣٢٣.

٤١٩ البخاري، البيوع، ١.



بدرهم، قال: "**من يزيد على درهم مرتين، أو ثلاثا**"، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال:

"**اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما فأتني به،**"، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال له: "**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوما**"، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا، وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ:

"**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع** "».[٤٢٠]

فعلى المسلم أن يدرك إعانة أخيه المسلم ليكون صاحب مهنة، وعلى المسلمين الفقراء أن يستغنوا عن الناس، باذلين جهودهم في الطريق المستقيم التي أخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام.



«حدَث أنه أصبح أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ذات يوم وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع، فقالت له امرأته أو أمه: ائت النبي ﷺ فاسأله، فقد أتاه فلان فسأله فأعطاه، وأتاه فلان فسأله فأعطاه، فقال:

---

٤٢٠ أبو داوود، الزكاة، ٢٦/ ١٦٤١، ابن ماجة، التجارة، ٢٥.



قلت حتى التمس شيئاً قال فالتمست فأتيته، فلم أجد شيئاً، فأتيته وهو يخطب فأدركت من قوله وهو يقول:

"من استعف يعفه الله، ومن استغنى يغنه الله ومن سألنا إما أن نبذل له وإما أن نواسيه"،

قال: فرجعت فما سألته شيئاً، فما زال الله ﷻ يرزقنا حتى ما أعلم في الأنصار أهل بيت أكثر أموالاً».[421]

هذه من ثمار معرفة المرء باسم الله الرزاق، أي الذي يحسن ويتفضل بالرزق ويقسّمه... فكلما كان اعتمادنا وتوكلنا عليه واستسلامنا له قوياً كان فؤادنا غنياً مطمئناً بقدر ذلك.



وعن حكيم بن حِزام رضي الله عنه قال:

«سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال:

"يا حكيمُ، إن هذا المال خضر حُلو، فمن أخذه بسخاوة نفس؛ بورك له فيه، ومن أخذهُ بإشرافِ نفسِ لم يبارك لهُ فِيه، وكان كالذِي يأكلُ ولا يشبعُ، واليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى"

قال حكيم؛ فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً

٤٢١ انظر: أحمد، ٣، ٤٤.



ليعطيه العطاءَ، فيأبى أن يقبل منه شيئا، ثم إن عمر ﷺ دعاه ليعطيهُ، فأبى أن يقبلهُ، فقال: يا معشر المسلمين، أُشهدكم على حكيم أني أعرضُ عليه حقهُ الذي قسمهُ الله له في هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى تُوفي».[٤٢٢]

إنه لمثال استثنائي على رسوخ القناعة في نفس المؤمن والاستغناء عن العباد استجابة لأمر النبي عليه الصلاة والسلام...



وروي عن أحمد بن حنبل المعروف بزهده وتقواه أنه قال لمن سأله أيهما أفضل الغنى أم الفقر:

«الزم السوق -أي العمل في التجارة-، واستغن عن الناس، فلم أر مثل الغنى عنهم».



رأى إبراهيم بن الأدهم فقيراً -مدقع الفقر- فقال له:

«أأعطوك الفقر بغير عوض، فأنت تشكو؟ فسأله الرجل في حيرة: يا سيدي! أو يأخذون الفقر أيضاً عن بدل؟ فقال إبراهيم بن الأدهم: نعم! فأنا لما رأيت قيمة الفقر، أعطيت وبكل رضاً مدينة بلخ الكبيرة عوضاً عنه...».

---

٤٢٢ البخاري، الوصايا، ٩/ ٢٧٥٠/ ٣١٤٣، الواقدي، ٣، ٩٤٥.



فالأمر المقصود هنا الغنى والقناعة بكسر حرص النفس، ثم إن الفقراء الصابرين والأغنياء الشاكرون متساوون في الرضا الإلهي، والقيمة المعنوية للصبر الكافي في الفقر لا يقدر بثمن...



وعندما سُئل حضرة أبي حازم: ما ثروتك؟ قال: شيئان، الرضا بالله تعالى، والثانية الاستغناء عن الناس، ولما قيل له: فإذاً أنت فقير، أجاب بقوله:

«وكيف أكون فقيراً وأنا عبد عند سيد يملك السموات والأرضين وما بينهما!».

والفقر في الحقيقة غفلة القلب عن الله تعالى، فإن كان قلبٌ ما يملك نعمة أن يكون مع الحق تعالى، فهذا يعني أنه أغنى مَن في الدنيا، وإن كان بعيداً فهو أكثر المحرومين في الدنيا.



وفيما يلي قصة مليئة بالعبرة تعكس لنا فضل القناعة والغنى:

كان الوقت وقت إفطار، وقد أتى أمام باب إحدى الأفران شخص في سيماه أصالة لا تراها عين كل أحد، فقال للفران بعد تفرق الناس: يا بني، لم أتمكن اليوم من تحصيل نفقتي فهلا أعطيتني ربع رغيف من الخبز، أؤدي لك ثمنه غداً إن لم يوافيني الأجل؟



فقال الفران وقد كان صوته مرتعشاً ووجهه محمراً:

ما هذا الذي تقوله يا أبي، أعطيك الخبز كله وليس الربع فقط، حلال لك، وما من حاجة إلى النقود، إلا أن الغريب على مع ذلك قال: لا يا بني، إنما ربعه كاف... فقد يأتيك ثلاثة من الفقراء، ثم إني أخجل من ربعها إذ يحمر وجهي، ولست قادر على تحمل الأكثر، وشرطي لأخذ الربع وفاء ثمنها غداً.

فقدّم الفرّان ربع رغيف الخبز الذي طلبه وهو في حيرة، وأما الرجل المسكين الذي أخذ خبزه وهو يقبله فقد ابتعد من هناك بخطوات هادئة، ولما تقدم ظهر أمامه في ركن الطريق كلب ينظر إليه بعينين متوسلتين جائعتين، فقال الرجل المبارك ذو الوجه المشرق وقد أعطاه نصف ما معه من الخبز، وبعدها مشى نحو المسجد، وأفطر بلقمة الخبز التي بقيت في يده وبعض رشفات الماء، وشكر الله تعالى على هذه النعم.

وفي اليوم التالي قال له صاحب أحد الدكاكين: يا أبي، املأ قرابنا من هذه النافورة التي أمامنا، ثم خذ هذه الأشياء الجديدة إلى الداخل، وأعطاه مقابل هذا ليرة واحدة.

وسرعان ما ذهب الرجل الغريب إلى الفرن ودفع ٢٥ قرشاً ثمن ربع الرغيف، ومع أن الفران حاول جاهداً عدم أخذ الثمن إلى أنه استسلم ولم يقاوم إصرار الرجل، واضطر إلى أخذ الثمن وعيناه تفيضان بالدمع.

هذا إنسان نموذج على القناعة والاستغناء... وهو في الوقت نفسه -على شدة فقره- كريمٌ إلى درجة تجعله لا يتخلى عن الإنفاق والرأفة بمخلوقات الله تعالى...



وفيما يلي مثالين على القناعة والغنى من بين العديد من الأمثلة التي عايناها في وقفنا عزيز محمد هدائي في اسطنبول:

«كان وقفنا يساعد أمًّا وابنها، وكان ابنها مشلولاً، وقد أنهى دراسته الجامعية، فأتت هذه الأم يوماً وشكرت الوقف وقالت: لن أتمكن بعد الآن من أخذ المساعدة من الوقف، فهناك من هم أكثر حاجة مني، لأن ابني قد توفي، وقد جهزت بآخر مال أخذته منكم جنازته، ولم يبق إلا أنا بعد الآن، وباستطاعتي تدارك أموري كيفما كان، وأما النقود التي ستعطوني إياها فأعطوها لعائلة بحاجة إلى العون كما كنا نحن قبلاً.

وقصة أخرى هي: ثمة عائلة هولندية تقدَّم لها المساعدة، وهي امرأة مات زوجها وترك لها أيتاماً، فكتبت إلى وقفنا ذات يوم تشكرنا وهي تقول: لقد أوفيت عن زوجي ديونه، وأبرأته من حقوق العباد، وأنا في وضعٍ يسمح لي باكتساب رزقي لوحدي،

هذه هي الأصالة الحقيقية تكون بالجوهر الموجود في القلب وليس بالمال ولا بالفقر.



فعلى العبد ألا يكون مستغنياً بنعم الله تعالى عما في أيدي الناس، ويوضح الحديث الآتي هذا الأمر على نحو رائع، فعَنِ النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

«بَيْنَا أَيُّوبُ يغتسل عريانا، فخر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك».[٤٢٣]



كان الحسن البصري يلتجأ إلى الله تعالى بقوله:

«اللهم أغنني بالفقر إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك». [٤٢٤]

وباختصار فقد بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أن الغنى الحقيقي ليس بكثرة المال وإنما بقناعة القلب، [٤٢٥] وعليه فكل واحد يكوون قنوعا بقدر استغنائه عن الناس، ثم إن القناعة حسب الحديث الشريف كنز لا ينتهي ولا ينفد، [٤٢٦] والمؤمنون بحق هم الذين يمتلكون نعمة الغنى وينفقون.

---

٤٢٣ البخاري، الغسل، ٢٠/ ٢٧٩.

٤٢٤ انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، بيروت ١٩٩٨، ص: ١٠٧.

٤٢٥ أحمد، ٢، ٣٨٩.

٤٢٦ البيهقي، الزهد، بيروت ١٩٩٦، ٢، ٨٨.



١٤ . الزهد بالدنيا

إن الزهد هو أن تطهير القلب والروح من التعلق بكل ما سوى الله تعالى، فلا تبقى فيه قيمة للدنيا ومتعها، فيستغني القلب بالله تعالى عن كل ما سواه.

والزاهد هو من -لشدة نفرته من المعاصي- يجتنب الشبهات ويبتعد عن مواطن التهمة، خوفا من الله تعالى ورغبة في القرب منه سبحانه.

وقد عاش عظماء الإسلام الزهد والاستغناء عن كل ما سوى الله تعالى مِن خلال عبوديتهم التي عاشوها بين يدي مولاهم حبا له وخوفا منه سبحانه، حين فقد كل ما سوى الله تعالى قيمته في قلوبهم، وبهذا يكون الزهد درعا متينا أمام حبّ الدنيا والحرص الذي يُنسي الآخرة.

إن كثيرا من الناس تعلق بالدنيا الغَرُور وانساق وراء جاذبيتها وسحرها، في حين أنه يجب على المرء العاقل أن ينتفع بالدنيا من بعيد ويجعلها خارج القلب، ويتعامل معها على أنها رأس مال للآخرة، ويصوّر لنا الحق تعالى الحياة الدنيا حين تأخذ عقل الإنسان وقلبه على النحو التالي:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ



فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٤٢٧)

ويقول رسول الله ﷺ:

«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه - وأشار يحيى بالسبابة - **في اليم، فلينظر بم ترجع؟»**.(٤٢٨)

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«من كانت الآخرة همه جعل اللّه غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».(٤٢٩)

يقدّم رسول الله ﷺ هذه الوصية لتكون أمته زاهدة بالدنيا وشاكرة لنعم الله تعالى:

قال رسول اللّه ﷺ:

«انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».(٤٣٠)

٤٢٧ الحديد، ٢٠.

٤٢٨ مسلم، الجنة، ٥٥/ ٢٨٥٨.

٤٢٩ الترمذي، القيامة، ٣٠/ ٢٤٦٥.

٤٣٠ مسلم، الزهد، ٩/ ٢٩٦٣.

ولكن قد يُفهم كلٌّ من الزهد والتقوى -اللذين باتا شعاراً لكل مَن تبنّى هذا الأسلوب النبوي تجاه الحياة والحوادث- على نحو خاطئ، فهم يظنّون أنّ عليهم التخلّي عن نِعم الدنيا كليًّا، مع أنّ العبادات المالية التي يمكن تأديتها بالمال هي قيِّمة جداً أيضاً عند الحق تعالى، وقد مرّت كلمة الإنفاق في كثير من المواضع في القرآن الكريم، فأداء فريضتي الحج والزكاة اللتان تعدان من أركان الإسلام الخمسة لا يتحقق إلا بملك نصاب مالي معين يعدُّ مقياساً للغنى على الحد الأدنى ديناً، إضافة إلى أن التعبير النبوي اليد العليا خير من اليد السفلى، (٤٣١) كيفية أخرى في الحث على تملّك النصاب الكافي لإيفاء هذه العبادات، فإن كان كذلك فالزهد يستحيل أن يناقض أمراً يحثّ عليه الدين.

ثم إن الاستغناء عن النعم الدنيوية -خوفاً من الوقوع في الإثم والغفلة- حقيقة يقتضيها الزهد والتقوى، إلا أن هذا الاستغناء يكون قلبيا، وليس فعلياً وظاهرياً، أي الزهد والاستغناء هو الاشتغال بالنعم الدنيوية مع عدم إدخالها القلب، وبهذا فإن الزهد ليس بفقر وإنما موقف قلبي ينبغي على كل مؤمن غنياً كان أو فقيراً التجمّل به، ولا يُعتبر من كان يعيش في فقر وعوز -نتيجة تقدير الله تعالى- من أهل الزهد إن كان قلبه متعلقا ولاهثاً وراء الملذات والمتع الدنيوية، لأنّ الزهد والاستغناء حماية القلب بمحض الإرادة من الوقوع في

---

٤٣١ انظر: البخاري، الزكاة، ١٨.



الأسْر الدنيوي، ولا يكونان بالقناعة مضطراً بالقليل الذي ساقه إليه القدر.

وما أحسن تعريف رسول الله ﷺ للزهد حيث يقول:

«**الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك**». [٤٣٢]

صور الفضيلة

عن إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي رضي الله عنه قال:

«ذَكَرَ أصحاب رسول الله يوما عنده الدنيا، فقال رسول الله ﷺ:

"ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان"». [٤٣٣] أي العيش زاهداً متواضعاً مستغنياً ...



عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل

٤٣٢ الترمذي، الزهد، ٢٩/ ٢٣٤٠.

٤٣٣ أبو داوود، التّرجل، ١/ ٤١٦١؛ ابن ماجة، الزهد، ٤.



علي رسول الله ﷺ فقال: **"ما هذا يا عائشة؟"** قالت: قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت علي، فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا قال:

"رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة"».[٤٣٤]



عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال:

"مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثُم راح وتركه"».[٤٣٥]



عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«أَنَّهُ مَرَّ بِقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه، فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير».[٤٣٦]



---

٤٣٤ البيهقي، شعب الايمان، ٣، ٦١/ ١٣٩٥؛أحمد، الزهد، ص: ٣٠.

٤٣٥ الترمذي، الزهد، ٤٤/ ٢٣٧٧.

٤٣٦ البخاري، الأطعمة، ٢٣/ ٥٤١٤.



قال سَهْل بن سعد:

«ما رأى رسول الله ﷺ النقي، من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله، قال: فقلت: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله ﷺ منخلا، من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله، قال: قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه، فيطير ما طار، وما بقي ثريناه فأكلناه».(٤٣٧)



عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«أُتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: "**انثروه في المسجد**"، قال: وكان أكثر مال أتي به النبي ﷺ، قال: فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة، فلم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه، إذ جاء العباس، فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي وعقيلا، فقال له رسول الله ﷺ: "**خُذ**"، قال: فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، قال: فقال: يا رسول الله، مر بعضهم يرفعه علي، قال: "**لا**"، قال: ارفعه أنت علي، قال: "**لا**"، قال: فنثر منه، ثم احتمله فألقاه على كاهله، وانطلق، فما

٤٣٧ البخاري، الأطعمة، ٢٣/ ٥٤١٣.



زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عليه عجبا من حرصه عليه، قال: فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم».[٤٣٨]



لقد بقي سيد الكائنات مفارقاً زوجاته اللاتي -حين مِلْنَ لزينة الدنيا- شهراً كاملاً، محذراً إياهن ببيان القرآن الكريم طالباً منهن الاختيار بين زينة الحياة الدنيا والله تعالى ورسوله والدار الآخرة، وقد نزلت هذه الآيات الكريمة عقب هذه الحادثة المعروفة بالإيلاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤٣٩]

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**"يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك"**

قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله، أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله، والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال:

---

٤٣٨ البخاري، الصلاة، ٤٢ ، الجزية ٤، الجهاد ١٧٢.

٤٣٩ الأحزاب، ٢٨ ـ ٢٩.



"لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً، ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلما ميسراً"».[٤٤٠]



كان رسول الله ﷺ إذا سافر جعل آخر عهده بإنسان فاطمة وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة، قال: فقدم من غزاة له فأتاها فإذا هو بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة فرجع ولم يدخل عليها، فلما رأت ذلك فاطمة ظنت أنه لم يدخل عليها من أجل ما رأى، فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان، فأخذه رسول الله ﷺ منهما، فقال:

«يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان -أهل بيت بالمدينة- واشتر لفاطمة قلادة من عصب، وسوارين من عاج».[٤٤١]

فكان رسول الله ﷺ يحرص على أن يحيى أهل بيته في حال بسيطة متواضعة مستغنين عن الدنيا ليكونوا نموذجاً لأمته.



عن أبي ذر رضي الله عنه قال كنت مع النبي ﷺ فلما أبصر -يعني أحدا- قال: ما أُحُبُّ أنه تحول لي ذهبا يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث

---

٤٤٠ مسلم، الطلاق، ٢٩/ ١٤٧٨.

٤٤١ أبو داوود، الترجل، ٢١/ ٤٢١٣.



إلا دينارا أرصده لدين، ثم قال: إن الأكثرين هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، -وأشار أبو شهاب بين يديه وعن يمينه وعن شماله- وقليلٌ ما هم، وقال: مكانك، وتقدم غير بعيد، فسمعت صوتا فأردت أن آتيه، ثم ذكرت قوله «مكانك حتى آتيك»، فلما جاء قلت: يا رسول الله ما الذي سمعتُ -أو قال الصوت الذي سمعت- قال: وهل سمعت؟ قلت: نعم، قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: وإن فعل كذا وكذا؟ قال: نعم».[٤٤٢]



أتى النبي ﷺ رجل فقال:

«يا رسول الله! دلني على عمل، إذا أنا عملته، أحبني الله، وأحبني الناس، فقال رسول الله ﷺ:

"ازهد في الدنيا، يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس، يحبوك"».[٤٤٣]



عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوق، داخلا من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله

٤٤٢ البخاري، الاستقراض، ٣، الرقاق ١٤؛ مسلم، الزكاة ٣٢.

٤٤٣ ابن ماجة، الزهد، ١/ ٤١٠٢.



فأخذ بأذنه، ثم قال: **"أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟"**، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: **"أتحبون أنه لكم؟"** قالوا: والله لو كان حيا، كان عيبا فيه، لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: **"فوالله للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم"**».[٤٤٤]



وحسبما روي عن عمرو بن عوف رضي الله عنه:

«أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال:

"أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء"

قالوا: أجل يا رسول الله، قال:

"فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم"».[٤٤٥]



٤٤٤ مسلم، الزهد، ٢/ ٢٩٥٧.

٤٤٥ البخاري، الرقاق، ٧/ ٦٤٢٥؛ مسلم، الزهد، ٦/ ٢٩٦١.



وفيما يلي مثال ذو عبرة، يرينا مدى خطورة الغفلة عن الآخرة والتعلق والميل إلى الدنيا:

«روي أن جيشاً للمسلمين غزا من المدينة يريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه!! لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ [٤٤٦]

فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دُفِنَ بالقسطنطينية». [٤٤٧]



كانت حُجَرُ النبي ﷺ متواضعةً إلى أبعد الحدود، وبما أن أم الحسن البصري جاريةَ أم سلمة زوج النبي ﷺ، فيقول الحسن البصري: «كنت أنال السقف بيدي» [٤٤٨] ويمكن الحديث عن أن

---

٤٤٦ البقرة، ١٩٥.

٤٤٧ انظر: أبو داوود، الجهاد، ٢٢/ ٢٥١٢؛ الترمذي، التفسير، ٢/ ٢٩٧٢.

٤٤٨ ابن سعد، ٧، ١٦١؛ السهيلي، ١، ٢٤٨.



حجرات النبي ﷺ لم تكن طويلة، فقد كانت حُجَرَ أزواج رسول الله مِن جريد النّخل، على أبْوابها الْمُسُوحُ مِن شعر أسود». [٤٤٩]

قال سعيد بن المسيب عندما هدمت حجرات النبي ﷺ بالمدينة:

«والله لوددتُ أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشئ من المدينة، ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر». [٤٥٠]

إن عيش سيدنا النبي في حجرات ضيقة ليس لحاجة أو فقر، وإنما لعدم اهتمامه ولو قليلا بالحياة الدنيا، وقد كان قادراً على تشييد القصور المزخرفة والأبنية العظيمة من خلال إمساكه بحقه من نصيبه من مال الغنائم فقط، لكنه اختار الفقر والحياة الزاهدة، ولم يكن ليطمئن حتى ينفق الغنائم التي تكون من نصيبه، رحمة بفقراء أمته، وكأنما كان الحق تعالى يتجلى بصفة «**الرحمن**» عليه ﷺ.



كان سليمان عليه السلام يعد نفسه فقيراً لأنه انتزع حبّ المال والملك والسلطة من قلبه، فيقصد الفقراء والغرباء كل صباح ويجلس إليهم بكل تواضع، ويقول: «يليق الفقر بالفقراء».



---

٤٤٩ ابن سعد، ١، ٤٩٩.

٤٥٠ ابن سعد، ١، ٤٩٩-٥٠٠.



وقيل لسيدنا نوح عليه السلام:

«يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدارٍ لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر».[451]

«بنى نوح عليه السلام بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيت غير هذا، فقال: هذا كثير لمن يموت».[452]



عن جابر رضي الله عنه قال:

«بعثنا رسول الله ﷺ وأمّر علينا أبا عبيدة نتلّقى عيراً لقريش، وزوّدنا جراباً من تمرٍ لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها، قال: نمصّها كما يمصّ الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنّا نضرب بعصيّنا الخبط ثم نبلّه بالماء فنأكله...».[453]

كان الصحابة الكرام –مع عدم امتلاكهم من الدنيا إلا النزر اليسير الذي لا يكاد يلبّي احتياجاتهم– لا يشتكون من ذلك مطلقاً، ولم يتخلفوا ويتخلوا عن حرصهم وخدمتهم في سبيل الله تعالى.



---

٤٥١ ابن الأثير، الكامل، ١، ٧٣.

٤٥٢ أبو نعيم، الحلية، ٨، ١٤٥.

٤٥٣ مسلم، الصيد، ١٧.



«روي أن أبا بكر الصديق ﵁ استسقى فأُتي بإناء فيه ماء وعسل، فلما وضع على يده بكى وانتحب، فما زال يبكي حتى بكى من حولَه، فسألوه ما الذي هيجك على البكاء؟ فقال: كنت مع رسول الله ﷺ وجعل يدفع عنه شيئا ويقول: "**إليكِ عني إليكِ عني**"، ولم أر معه أحدا، فقلت: يا رسول الله، أراك تدفع شيئا ولا أرى معك أحدا، فقال:

"**هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها: إليك عني فتنحت ثم رجعتْ، فقالتْ: أما والله إن أفلتَّ مني فلن ينفلت مني مَن بعدك**"، فخشيتُ أن تكون لحقتني فذاك أبكاني».[٤٥٤]

كان أبو بكر ﵁ قد عاش حياة غاية في التواضع أثناء فترة خلافته، وحتى في وفاته أوصى ببيع بستان يمتلكه، وأن يُرَدَّ ثمنه في بيت المال مقابل المعاش الذي كان يتقاضاه أثناء خلافته من بيت المال.[٤٥٥]



لما كان أبو بكر الصديق ﵁ في فراش الموت قال لابنته عائشة ﵂:

«إني لا أعلم في آل أبي بكر من هذا المال شيئاً إلا هذه اللقحة وهذا الغلام الصقيل كان يعمل سيوف المسلمين ويخدمنا ، فإذا

٤٥٤ أبو نعيم، الحلية، ١، ٣٠ ـ ٣١.

٤٥٥ ابن الأثير، الكامل، ٢، ٤٢٨ ـ ٤٢٩.



متُّ فادفعيه إلى عمر ﵁، فلما بعثت به إلى عمر، قال: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده».[456]



تمّ فتح مدنٍ كثيرة -كسورية وفلسطين ومصر- في خلافة عمر ﵁، وأضْحت أراضي إيران من أولها إلى آخرها ضمن حدود دولة الإسلام، وبدأت الخزائن الغنية للبيزنطيين والفرس تتدفق على المدينة المنورة مركز العالم الإسلامي آنذاك، وارتفع مستوى العيش لدى المسلمين، إلا أن خليفة المسلمين سيدنا عمر ﵁ كان يخطب بالمسلمين في لباسه المرقع بقلب مستغنٍ عن هذه الدنيا، على الرغم من عظمة الدولة وغنى بيت المال، وكان في بعض الأحيان يستدين، ويدفع بحياته إلى الهلاك وهو في محنة، لأنه كان يأخذ من بيت المال ما يكفيه لتلبية حوائجه الملحّة ويقضي حوائجه بها بصعوبة.

ولم يعد كبار الصحابة يتحمّلون حاله هذه، ففكروا بزيادة ما يتقاضاه الخليفة من بيت المال، لكنهم لحذرهم من عرض الأمر على الخليفة حدثوا به ابنته حفصة ﵂، والتي كانت زوج النبي عليه الصلاة والسلام، وطلبوا منها أن تعرض الأمر على أبيها من غير ذكر أسمائهم، فأطلعت حفصة ﵂ أباها بالعرض الذي قدمه بعض

456 أحمد، الزهد، ص: ١١٠ ـ ١١١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصر ١٩٦٩، ص: ٧٨ ـ ٧٩.



الصحابة، فقال عمر ﷺ -الذي رأى رسول الله ﷺ يظلّ الْيوم كله يلتوي ما يجد دقلا يملأ بطنُ-:

«يا ابنتي كيف كان حال النبي ﷺ في مأكله ومشربه وملبسه؟»(٤٥٧)

وعندما كان جوابها: بقدر حاجته، قال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش، فما زال يذكرها حتى أبكاها، فقال لها: إن قلت لك ذاك، إني والله لئن استطعت لأشاركنَّهما -أي رسول الله وأبو بكر- بمثل عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي». (٤٥٨)

كان أبو ذر الغفاري ﷺ -الذي يعيش حياة زاهدة ومتواضعة، ويحب البقاء بعيداً عن الرفاهية- على الرغم من تخصيص أربعمائة دينار له من بيت المال يستخدم القليل منه ويوزع الباقي على الفقراء.(٤٥٩)



بعث حبيب بن أبي سلمة إلى أبي ذر وهو أمير الشام بثلاثمائة دينار، وقال: استعن بها على حاجتك، فقال أبو ذر رحمه الله:

---

٤٥٧ انظر: مسلم، الزهد، ٣٦.

٤٥٨ انظر: أحمد، الزهد، ص: ١٢٥؛ شهبندر زاده أحمد حلمي، تاريخ الإسلام، ١، ٣٦٧.

٤٥٩ أبو نعيم، الحلية، ١، ١٦٣.



«ارجع بها إليه، أما وجد أحداً أغر بالله منا؟ ما لنا إلا ظل نتوارى به، وثلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم أنا أتخوّف الفضل».[٤٦٠]



وقد لفّ العالمَ الإسلامي بعد الصحابة الكرام حماسٌ إيمانيٌّ بلغ حدا جعل جيش طارق بن زياد البالغ خمسة آلاف يدمر الجيش الإسباني البالغ تسعين ألفاً، فكان طارق يقول لنفسه وقد باتت خزائن الملك تحت أقدامه:

«طارق! كنتَ حتى أمس عبداً مطوّقاً، فأتى عليك يوم أكرمك الله بحريتك، ثم أصبحت قائداً! واليوم فتحتَ الأندلس، وأنتَ الآن في قصر الملك، اعلم جيداً ولا تنس أنّك غداً ستكون بين يدي ربك!».

يا لها من تربية تبلغ بعبد إلى قمة السلطة فلا تدع قلبه يميل إلى مال الدنيا ولو بمقدار ذرة، بل تجعله يحاسب نفسه دائما.



صادف حضرة محمد باريسا -من كبار الأولياء الذين ربّاهم حضرة شاه نقشبندي- وهو في طريقه إلى الحج مارّاً من مدينة بغداد صيرفياً شاباً منوّر الوجه، فقال في نفسه -وقد ظن انشغال الشاب

٤٦٠ أحمد، الزهد، ص: ١٤٧.



بالدنيا وانهماكه بالبيع والشراء-: «يا للخسارة! إنه غارق بالمشاغل الدنيوية في وقتٍ كان أحرى به أنْ يقضيه بالعبادة!» ولما انتبه رأى وشاهد بِحَيرة أن قلب هذا الشاب الذي يبيع ويشتري الذهب متعلق بالله تعالى. وهذه المرة أُعجب بالشاب قائلاً: «اليد في الربح والقلب مع الحبيب...».

لكن هذه الحال «الخلوة في المجتمع»، يعني التواجد مع الله تعالى حتى أثناء الانشغال بالخلق، والبقاء معه لوحده وأن يعيش بحال الوحدة مع الكثرة.

وعندما وصل محمد باريسا الحجاز التقى برجل مسنٍّ أشيب قد التصق بستار الكعبة وهو يبكي بمرارة وحرقة، ويقول وهو ينظر أولاً إلى توسله بِلَوعة إلى الحق تعالى ومظهره الخارجي:

«ليتني كنت ألتجأ إلى الحق تعالى باكياً على هذا النحو»، غابطاً إياه.

وعندما ينظر إلى قلبه يجد أن كل دعائه وبكائه في سبيل دنيا فانية، وعندها يحزن قلبه الرقيق.

وكما نرى من القصة فإن الزهد بالدنيا ليس بالفقر فقط، وإنما هو سلوك قلبي يجب العيش معه في كل آن، وما يهم هو التمكن من مواصلة المشاغل الدنيوية من دون إهمال للآخرة.





وما أجمل حال وليّ الحق حضرة مولانا إذ يُظهر حياة زهد النبي عليه الصلاة والسلام في حياته هو، بسبب الحب الذي يكنه للنبي عليه الصلاة والسلام:

«كان عندما يأتي بيته ويسأل ماذا يوجد عندنا اليوم؟ يُسَرُّ بسماعه جواب لا يوجد شيء، ويقول: الحمد لله لقد أشبه بيتنا اليوم بيت النبي ﷺ»

ثم إن حضرة مولانا كان لا يقبل الصدقة والنذر مطلقاً، ويمنع مريديه قطعياً من ذلك ويحثهم على العمل.[٤٦١]



رأى مالك بن دينار في منامه يوماً رفعي أحدَ أولياء الله تعالى، كان يركض مكشوف الرأس حافياً، فسأله: أين؟ فقال رفعي: الحمد لله لقد تخلصت من السجن، فلما استيقظ مالك ذهب من فوره إلى بيت رفعي، فرأى أنه قد توفي.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**».[٤٦٢]



---

٤٦١ علي نهاد طارلان، مولانا، اسطنبول ١٩٧٤، ص: ٢٩.

٤٦٢ مسلم، الزهد، ١/ ٢٩٥٦.



لما ذهب السلطان مراد خان الثاني إلى مانيسا بعد أن تنازل عن السلطة، بدأ يترنم بهذا البيت في صدد توضيح أنه لم يقم بذلك إلا ابتغاء وجه الله تعالى:

فلنصلْ لنذكر ربنا يوماً أو يومين

هل أرسلت هذه الدنيا الكاذبة إلينا



ثم إن أحد أرباب الفؤاد الذين اتخذوا موقفاً زاهداً تجاه المال والملك والمكانة -ممن أظهر عرفان وفضيلة قبول النعم الدنيوية بقصد خدمة عباد الله وليس إرضاءاً لنفسه- كان السلطان يافوز سليم خان، وقد قال يوماً لمن هم تحت إمرته:

«إن كانت رغبتكم الاستمرار في عصيان الأوامر، أعلموني حتى أعزل نفسي من السلطة على الفور، لقد استلمت السلطة عن والدي خدمةً للإسلام وضحيت بشقيقي وأولاد شقيقي في سبيل إصلاح العالم، وعرضت عليكم البيعة فوافقتم، إني أعمل على تأييد الدين المبين، وأتخلى في سبيل ذلك عن النوم والراحة والطمأنينة، فإن لم تكن غايتكم إحياء الإسلام، فأنا أيضاً لست متحمساً للسلطة».





وباختصار فإن على العبد قصدَ وطلب رضا الله تعالى خالق كل شيء، فعندما تكون المحبة التي في القلب خاضعة لله تعالى، تتجلى حالة الزهد في العبد، وعندما يظهر الزهد يفقد كل ما كان عائداً إلى النفس من مال وملك قيمته في عين العبد، وبهذا يكون مستقراً في مجراه الطبيعي، لأن محبة الله تعالى التي في القلب لا يسقيها إلا العمل الصالح، وعندها تبدأ الأعمال التي يحبها محبوبه تبعث المتعة في روحه.

١٥ . الصبر والثبات

يأتي الصبر على معان عدة منها المحافظة على التوازن أمام الأحوال المادية والمعنوية المتبدلة، وصيانة الاعتدال، وإظهار التحمل على الابتلاءات، واحتمال المعاناة، ومقاومة المحن والمشاق برباطة جأش، وإبقاء المشاعر البشرية ثابتة في إطار الحدود العقلية والدينية.

والمتانة هي المتانة والثبات أمام كل أنواع المصائب الحالّة بالمرء وقوة التحمل والصلابة.

ثم إن الصبر مركز الأخلاق الحميدة، وشطر الإيمان، ومفتاح السعة والسعادة، وفضيلة عظيمة تصل بالمرء إلى نعم الجنة، والصبر التمتع بالسكينة من دون إفساد التوازن تجاه الحوادث التي تبعث الاستياء وتتسبب بالضيق، والاستسلام للحق تعالى.



لقد كان الأنبياء والأولياء يظهرون نماذج بالغة الروعة في شأن الصبر حتى ظفروا بعون الله تعالى، ولذا فينبغي أن يكونوا قدوتنا في أمر الصبر أيضاً. وإن الناحية الدنيوية للصبر أليمة، وناحيته الأخروية مشرقة، فالذين يتحملون آلام الصبر في صدورهم يصلون إلى دولة الأبدية والتي هي الجنة ويبلغون رضا الله تعالى. وعلى أي حال فإن التفكير بالنعمة والحكمة والجزاء الإلهي لأوامر الله تعالى ونواهيه يُسَهّل الصبر. وأول شرط الصبر إظهاره في بداية الحادثة التي تستلزمه، فالصبر إن لم يتم إظهاره في وقته لا مكافأة كبيرة له.

إن مكانة الصبر –الذي يدخل في بنية جميع الأخلاق الإسلامية– عظيمة جداً، يتطرق القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضع فيه إلى الصبر، ويوصى النبيَّ عليه الصلاة والسلام –ومن خلاله جميع أمته– بالصبر في الآيات الكريمة على النحو التالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٤٦٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤٦٤]

---

٤٦٣ البقرة، ١٥٣.

٤٦٤ آل عمران، ٢٠٠.

وقد أصدر محمد حمدي يازِر إلمالِلي في تفسير هذه الآية هذا البيان:

«وإحدى أسماء الله تعالى الحسنى الاسم الشريف «الصبور»، فمن كان عنده صبر فلديه تجلّ من قدرة الله تعالى، وبالأخص إن اجتمع أصحاب الصبر هؤلاء مع بعضهم، يضحون مظهراً لعون الله تعالى، والله تعالى وليهم ومتوليهم على الدوام.»

وغالباً ما تأتي المكافآت الكبيرة عقب الصبر العظيم وتحمّلِ المصيبة والابتلاء، تقول الآية الكريمة:

﴿... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٤٦٥]

وقد قال رسول الله ﷺ:

«الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية».[٤٦٦]

ويخبرنا عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى يقول:

«ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة».[٤٦٧]

«إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة».[٤٦٨]

---

٤٦٥ الزمر، ١٠.

٤٦٦ السيوطي، ٢، ٤٢؛ الديلمي، ٢، ٤١٦.

٤٦٧ البخاري، الرقاق، ٦/ ٦٤٢٤.

٤٦٨ البخاري، المرضى، ٧/ ٥٦٥٣؛ الترمذي، الزهد، ٥٨.



الصبر من أهم مبادئ ديننا، وامتحان الصبر من أصعب الاختبارات، ولذا يقول أبو بكر ﷺ:

«إن التنعم بالعافية أفضل عندي من التعرض للامتحان والصبر عليه».

صور الفضيلة

كانت حياة النبي عليه الصلاة والسلام من أولها إلى آخرها مليئة بأروع نماذج الصبر، فقد واجه سيدنا ﷺ معاناة كثيرة، وذاق كل أنواع المحن والضيق منذ ولادته إلى حين وفاته، حيث فقد والده قبل ولادته، وحُرِمَ من أمه في السادسة من عمره، ومات جده لما كان في الثامنة من عمره، وعمه أبا طالب الذي كان يحميه في السنة العاشرة من بعثته، وبعد ثلاثة أيام زوجته الحبيبة خديجة رضي الله عنها والتي كانت أكبر سند له في دعوته، وفي غزوة أحد استشهد عمه حمزة سيد الشهداء، وفقد ستة من أولاده السبعة وكثيرا من أحفاده، بعضهم في سنّ صغيرة والبعض الآخر في سنّ البلوغ إذ أرسلهم واحداً تلو الآخر إلى ربه تعالى، وقد دفن بيديه الكثير من أصحابه الذين يكنّ لهم الحب الكبير، وتعرّض لأنواع التعذيب والشتائم والافتراءات، إلى جانب الجوع والفقر، وأصيب بالجراح في المعارك، وابتلي بالأمراض المحمومة، إلا أنه لم تفسد أيٌّ منها متانته وتوازنه، بل كان مثالاً على الصبر والرضا في كل حال.



ويا ترى كم منَّا وارى الثرى ستة من أولاده؟ وكم منا لفظ أولادُه وأحفادُه أنفاسَهم الأخيرة وماتوا بين يديه؟ وهل من أحد مُزِّقَ بدن عمّه النحيل ومضغت رئته؟ وباختصار هل من أحد ابتلي بأشد مما ابتلي به النبي ﷺ، ثم أظهر قوة على الصبر ورضى بما قدره الله له كما صبر ورضي رسول الله ﷺ؟



كان رسول الله ﷺ يبلِّغ الإسلام في الأسواق التي كانت تقام في مواسم الحج في عصر الجاهلية، فكان يتعرّض حينها للكثير من المحن والمشاق والإيذاء، وهو يقابل جميعها بالصبر ولا يُظهر أي شكوى، وفي إحدى المرات أتى إلى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى اللَّه، وعرض عليهم نفسه، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم): واللَّه لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، (ثم قام بحيرة) فغمز شاكلة ناقة النبي ﷺ، فقمصَت بالنبي ﷺ فألقته، وعندنا يومئذ ضباعة بِنْت قُرط كانت من النسوة اللاتي أسلمن بعد رسول الله ﷺ بمَكَّة، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت: يا آل عامر ولا عامر لي أيسمع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم، لا يمنعه أحد منكم؟! فقام ثلاثة من بني عمها إلى بحيرة فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض، ثم جلس على صدره، ثم علقوا وجهه لطماً، فقال النبي ﷺ: **"اللهم بارك على هؤلاء"**، فأسلموا وقتلوا شهداء.[٤٦٩]

---

٤٦٩ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٣٥٣.



ويذكر لنا طارق بن عبد الله المحاربيّ ما شاهده من تحمل النبي ﷺ في سبيل تبليغ الإسلام والمشاق التي واجهها بالرضا والصبر، فيقول:

«إني بسوق ذي المجَاز، إذ أنا بإنسان يقول: يا أيها الناس، قولُوا لا إلٰه إلاّ الله تُفْلِحُوا، وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: مَنْ هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب».[٤٧٠]



وإحدى الأمثلة التي توضح مدى صبر رسول الله ﷺ يبينها لنا مدرك الأزدي بقوله:

«حججت مع أبي فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة، فقلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم، فإذا رسول الله ﷺ يقول: "يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه، أقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحاً ومنديلاً، فتناوله منه، فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه، فقال: يا بنية خمري عليك نحركِ ولا تخافي على أبيك، قلنا: من هذه قالوا هذه زينب بنته».[٤٧١]

---

٤٧٠ الدارقطني، السنن، بيروت ١٩٨٦، ٣، ٤٤ ـ ٤٥.

٤٧١ الهيثمي، ٤، ٢١.



يقول عبد الله بن مسعود ﵁:

«قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فتمعَّر وجهُه، وقال:

"رحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر"

وفي رواية:

"ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أعدل"

قال أنس: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً».(٤٧٢)



ووفق ما يرويه أنس بن مالك ﵁ قال:

«مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال:

"اتقي الله واصبري"،

قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال:

"إنما الصبر عند الصدمة الأولى"».(٤٧٣)



---

٤٧٢ البخاري، الأدب، ٥٣/ ٦٠٥٩؛ مسلم، الزكاة، ١٤٠، ١٤٢.

٤٧٣ البخاري، الجنائز، ٣٢/ ١٢٨٣.



ويقول عبد الله بن مسعود ﷺ:

«دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً؟

قال: "**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**"

قلت: ذلك بأن لك أجرين؟

قال: "**أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**"».[٤٧٤]



قال عبد الله بن مسعود ﷺ:

«كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».[٤٧٥]



وكم هي معبرة هذه الحادثة التي ترينا أن جزاء الصبر الجنة:

فعن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لِي ابْنُ عَبَّاسٍ:

«ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ،فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال:

---

٤٧٤ البخاري، المرضى، ٣، ١٣، ١٦/ ٥٦٤٨؛ مسلم، البر، ٤٥/ ٢٥٧١.

٤٧٥ البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، الجهاد، ١٠٤.



"إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك" فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها». [476]

هذه هي قيمة الصبر عند الحق تعالى على البلاء النازل بالمرء...



عن أبي سعيد الخدري ﵁ في الحديث:

«كنت في جماعة فيها ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري، -لعدم وجود ثوب يستر بدنه كله، مستفيدين من ظلال الغير- وقارئ يقرأ علينا ونحن نستمع كتاب الله، فجاء النبي حتى قام علينا فلما رآه القارئ سكت، قال فسلم ثم قال: **"ما كنتم تصنعون؟"** قلنا يا رسول الله كان قارئ يقرأ علينا وكنا نستمع إلى قراءته، فقال النبي:

"الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم"». [477]

---

٤٧٦ البخاري، المرضى، ٦/ ٥٦٥٢؛ مسلم، البر، ٥/ ٢٥٧٦.

٤٧٧ وبقول النبي ﷺ هذا إشارة إلى آية: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ (الكهف، ٢٨) فقد أمر الله تعالى بهذه الآية رسوله ﷺ أن يصبر مع الفقراء والمحتاجين من أول الداخلين في الإسلام على المشاق التي قد تصيبهم، وأن يكون لطيفاً في معاملتهم للغاية.



ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا، ثم قال بيده هكذا فحلق القوم (صنعوا حلقة) وبرزت وجوههم، قال فما رأيت رسول الله عرف منهم أحدا غيري، أن أصبر نفسى معهم، يشير إلى قوله في سورة الكـهف:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾،

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

"أبشروا يا معشر صعاليك (فقراء) المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذاك خمسمائة سنة"».[(٤٧٨)]

وهذا هو جزاء الفقراء ذوو الصبر...



قال سيدنا فضالة بن عبيد:

«أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى تقول الأعراب هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلى رسول الله عليه الصلاة والسلام انصرف إليهم، فقال:

٤٧٨ أبو داوود، العلم، ١٣/ ٣٦٦٦.



"لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة" قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ».[479]



عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته».[480]

وكما هو واضح فإن الصحابة الكرام -ومن خلال إظهارهم التحمّل بالصبر على شتى أنواع المشاق كالجوع والفقر والحرب والمصيبة- كانوا وسيلة لوصول الإسلام إلى يومنا هذا، وعلينا نحن بدورنا نقل ما على عاتقنا من الأمانة المقدسة للأجيال القادمة بكل اعتناء باتباعنا واقتفائنا لهم.



وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال:

«نزل الإسلام بالكره والشدة، فوجدنا خير الخير في الكراهة، فخرجنا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام من مكة، فجعل لنا في

---

٤٧٩ الترمذي، الزهد، ٣٩/ ٢٣٦٨.

٤٨٠ البخاري، الصلاة، ٥٨.



ذلك العلاء والظفر، وخرجنا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى بدر على الحال التي ذكر الله ﷻ تبارك وتعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٨١)

والشوكة قريش فجعل الله لنا في ذلك العلاء والظفر فوجدنا خير الخير في الكره». (٤٨٢)

وكلمات محمد إقبال التمثيلية فيما يلي تفيد فضيلة وإظهار الصبر والتحمّل على المصاعب حيث يقول:

«كان ثمة غزال يشتكي لغزال آخر قائلاً: سأعيش بعد الآن في الكعبة والحرم، أنام وأصحو هناك، وأرعى، لأن الصيادين قد وضعوا الأفخاخ في السهول، يتجولون متعقبين آثار الغزلان ليلاً ونهاراً، وإني أريد أن أتخلص من همِّ الصياد بعد الآن، وليجد قلبي السكينة والطمأنينة!..»

---

٤٨١ الأنفال، ٥ ـ ٧.

٤٨٢ الهيثمي، ٧، ٢٦ ـ ٢٧.

وأما الغزال الآخر الذي كان يستمع لهذا فقد رد عليه:

«يا صديقي العاقل! إن كنت تريد العيش فعش داخل الخطر، واضرب نفسك بحجر الشحذ على الدوام، وعش أَحَدَّ من السيف نظيف الجوهر! فإن كلاً من الخطر والقوة يمتحن القدرة، فإن ذلك هو ما يعلمنا ما هي قادرة عليه الأجسام والأنفس».



وخلاصة القول فإن الصبر كنز ثمين في أعماق الإنسان، وأمتن درع أمام البلاء والمصائب، وخصلة عليّة أرضت الله تعالى وتستلزم مكافآته الكبيرة التي وعد بها، وهي ببيان رسول الله ﷺ تضيء دنيا الإنسان وعقباه في آخرها بقوله: «...**الصبر ضياء**...».[483]

١٦ . الحمد والشكر

ومن الشكر حَمْدُ عظمة الحق تعالى اللامتناهية والثناء على صفاته الجليلة وأفعاله وصنعته البديعة، والمدح والثناء لساناً وفعلاً وقلباً مقابل لطائفه اللامعدودة ونعمه ومنّه، فكلٌّ من اللفظين قريب من الآخر باعتبار المعنى.

فيختص الحق تعالى بكل تعظيم وحمد دون غيره، وحمد الله تعالى على نعمه كلها إحدى وظائف عبودية المسلم، ومع أن الحمد

٤٨٣ مسلم، الطهارة، ١/ ٢٢٣.



وفاء لدَين العبودية فإنه للطف وإحسان عظيمين إخبار الله تعالى إيانا برضاه عن العبد الحامد،[٤٨٤]. وصورة لرحمته الأبدية.

وبناء على ما ورد في الآية الكريمة فإن الله تعالى هو الذات الوحيدة المستحقة للحمد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ...﴾[٤٨٥]

ويطلب الحق تعالى من عباده أن يحمدوه في كل أحوالهم، تقول الآيات الكريمة:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾[٤٨٦]

﴿...وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤٨٧]

وتُلقِنُنا الآية الأولى من سورة الفاتحة التي نقرأها في كل ركعة من الصلاة الحمد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

---

٤٨٤ انظر: مسلم، الذكر، ٨٩.

٤٨٥ الأنعام، ١.

٤٨٦ الإسراء، ١١١.

٤٨٧ يونس، ١٠.

وبالفعل فإنه من غير الممكن تأمّل الخير من عمل وتصرف من غير حمد الله تعالى، يقول النبي ﷺ منبهاً إيانا نحن أمته:

«**كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم**».[٤٨٨]

والحمد في الوقت نفسه يُعَدُّ ذكراً مهماً، حيث يبين النبي عليه الصلاة والسلام فضل الحمد على النحو التالي:

«**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها**».[٤٨٩]

والشكر من إحدى وظائف العبودية كالحمد تماماً، وهو تعبد العبد برضاً منه لربه تعالى المحسن بالنعم والفضائل مقابل ما مَنَّ به عليه، وذلك بأنواع الكلام والتصرفات المخلصة، وهذا يثبت لنا أنّ الشكر هو معرفة صاحب النعمة الحق.

ثم إن معرفة أن النعم التي نالها العبد من لطف الله تعالى والتعبير باللسان عن الشكر غير كاف ليكون العبد شاكراً بحق، بل من الضروري القيام بالعبادات الواجبة لربنا تعالى والتخلق بمحاسن الأخلاق، والمسارعة إلى أداء الأعمال الصالحة.

---

٤٨٨ أبو داوود، الأدب، ١٨/ ٤٨٤٠.

٤٨٩ مسلم، الطهارة، ١/ ٢٢٣؛ الترمذي، الدعوات، ٨٥/ ٣٥١٧.



وفي الحقيقة فإن كلاً من «الحمد والشكر» الذي يُعد موجب طبيعي لكون الإنسان «أشرف المخلوقات» المكوّن رأس الهرم في الهرم التسلسلي -من أبسط المخلوقات إلى أكملها- أَحَدُ أعمق وأهمّ أمور الدين، يقول رسول الله ﷺ:

«...الشكر شطر الإيمان».[٤٩٠]

إنّ كل إنسان محافِظٍ على عزّته وأصالته الموجودة في خلقته يشعر بأنه مدينٌ بشكرٍ لمن تفضّل عليه ولو بكوب من الماء، فما بالك بواجب الإنسان تجاه الله تعالى منبع جميع النعم والكرم، فمن أعرض عن شكر الله تعالى و نسي فضله عليه فهو بليد الحس متحجر الفؤاد، ينكر النعمة ويجحد الفضل لأهله.

وعلى الرغم من هذا فإن الكثير للأسف يغفلون عن النعم اللامعدودة التي مَنَّ الله بها عليهم، وبسبب هذه الغفلة العميقة عند الناس يقول ربنا تعالى:

﴿...وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٤٩١]

إن عدم الشكر حالة لا ترضي ربنا، وتؤدي إلى زوال النعم التي تفضل ربنا تعالى بها، وقد قال الحق تعالى:

---

٤٩٠ السيوطي، ١، ١٠٧.

٤٩١ سبأ، ١٣.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٤٩٢]

﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٤٩٣]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٤٩٤]

صور الفضيلة

روي أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال:

«الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا».[٤٩٥]



وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».[٤٩٦]



---

٤٩٢ البقرة، ١٥٢.

٤٩٣ إبراهيم، ٧.

٤٩٤ لقمان، ١٢.

٤٩٥ البخاري، الأطعمة، ٥٤/ ٥٤٥٨؛ أبو داوود، الأطعمة، ٥٢.

٤٩٦ مسلم، الذكر، ٨٩/ ٢٧٣٤؛ الترمذي، الأطعمة، ١٨.



عن أنس رضي الله عنه قال:

«عطس عند النبي ﷺ رجلان، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الذي لم يشمته: عطس فلان فشمته، وعطست أنا فلم تشمتني، قال: **"إن هذا حمد الله، وإنك لم تحمد الله"**».[٤٩٧]

وقد رأى فخر الكائنات ﷺ على عمر رضي الله عنه ثوبا أبيض، فقال: «**أجديد ثوبك أم غسيل؟**» فقال: فلا أدري ما رد عليه، فقال النبي ﷺ: «**البس جديداً، وعش حميداً، ومت شهيداً**».[٤٩٨]

فبيانات وتصريحات النبي عليه الصلاة والسلام الإعجازية، كانت تتحقق كما هي في أوقاتها، وقد مات سيدنا عمر رضي الله عنه كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام شهيداً.



إنّ مما لا شك فيه أنّ من أهمّ الأعمال التي يقوم به العبد إنما هو حمد الله تعالى وشكره، يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه الشريفة التي توضح فضيلة الحمد:

«**أن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء، وقالا: يا ربنا، إن عبدك قد قال مقالة لا**

٤٩٧ البخاري، الأدب، ١٢٧، مسلم، الزهد، ٥٣/ ٢٩٩١.

٤٩٨ أحمد، ٢، ٨٩/ ٥٦٢٠.



ندري كيف نكتبها، قال الله ﷻ: وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب، إنه قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله ﷻ لهما: «اكتباها كما قال عبدي، حتى يلقاني فأجزيه بها».[٤٩٩]

أكرمنا الله جميعا بالتضرع إليه سبحانه بهذا الدعاء مخلصين صادقين!



كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول:

«نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني، كنت أخدمهم إذا نزلوا، وأحدو لهم إذا ركبوا، وها أنا ذا وقد زوجنيها الله، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبا هريرة أماماً».[٥٠٠]



قالت عائشة رضي الله عنها:

«قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي فقال: **"يا عائشة! ذريني أتعبد لربي"**، قالت: قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك، قالت: فقام، فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره،

٤٩٩ ابن ماجة، الأدب، ٥٥/ ٣٨٠١.

٥٠٠ ابن ماجة، الرهون، ٥/ ٢٤٤٥.



ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: "**أفلا أكون عبدا شكورا؟ لقد نزلت عليَّ الليلةَ آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:**

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٥٠١]».[٥٠٢]



كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيره محروما من النعم التي عنده يشكر الله تعالى من فوره، وقد روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ مرَّ به رجل به زمانةٌ فنزل فسجد.[٥٠٣]

وعلامة حب رسول الله ﷺ الاقتداء به في أحواله، فكم مرّة خررنا نحن ساجدين شكراً تجاه الصور المليئة بالعبرة التي نصادفها كل يوم في حياتنا؟!



---

٥٠١ آل عمران، ١٩٠ ـ ١٩١.

٥٠٢ ابن حبان، ٢، ٣٨٦.

٥٠٣ الهيثمي، ٢، ٢٨٩.



يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

«خرجنا مع رسول الله من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريباً من عزوزاً نزل، ثم رفع يديه، فدعا الله ساعة، ثم خرّ ساجداً، فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه فدعا الله تعالى ساعة ثم خرّ ساجداً فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خرّ ساجداً ثلاثاً، قال:

"إني سألت ربي وشفعت لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجداً شكراً لربي ثم رفعت رأسي، فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً لربي شكراً، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي"».[٥٠٤]

إن البشرى التي سَرَّتْ سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام إلى هذا الحد هنا، ودفعته إلى سجدة الشكر، إنما هي عدم بقاء العصاة ممن ارتكبوا الكبائر من أمته في جهنم إلى الأبد، ودخولهم الجنة حتى لو عوقبوا بذنوبهم تلك بشفاعته، وأما وأصحاب الصغائر فقد يصفح الله عنهم من دون تعرّضهم لأي جزاء، وأما دخول من لم يكن لهم نصيب من الإيمان الجنة فليس بموضوع بحثنا.



يبين عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حادثة توضح اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشكر الله تعالى مقابل إكرام وإحسانه وفضله علينا سبحانه، فيقول:

٥٠٤ أبو داوود، الجهاد، ١٦٢/ ٢٧٧٥.



«دخلت المسجد ورسول الله ﷺ خارجٌ من المسجد، فتبعته أمشي وراءه وهو لا يشعر، حتى دخل نخلا فاستقبل القبلة فسجد فأطال السجود، وأنا وراءه حتى ظننت أن الله قد توفاه، فأقبلت أمشي حتى جئته فطأطأت رأسي أنظر في وجهه فرفع رأسه، فقال:

"ما لك يا عبد الرحمن؟"

فقلت: لما أطلت السجود يا رسول الله خشيت أن يكون توفي نفسك، فجئت أنظر فقال:

"إني لما دخلت النخل لقيت جبرائيل، فقال إني أبشرك أن الله يقول من سلم عليك سلمت عليه، ومن صلى عليك صليت عليه"». (٥٠٥)



من المؤكد أن جميع النعم التي نتقلب فيها ليل نهار إنما هي من قبل الله تعالى، لكن شكر من كان وسيلة لوصول هذه النعم إلينا من موجبات الوفاء واللطف. قال رسول الله ﷺ:

«من صُنع إليه معروف، فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء...». (٥٠٦)



---

٥٠٥ الحاكم، ١، ٣٤٤_٣٤٥/ ٨١٠.

٥٠٦ الترمذي، البر، ٨٧/ ٢٠٣٥



عن عائشة ﵂ قالت:

«كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لي: "**ما فعلت أبياتك؟**" فأقول: أي أبيات تريد؟ فإنها كثيرة فيقول: "**في الشكر**"، فأقول: نعم بأبي وأمي، قال الشاعر:

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه   يومـــاً فيدركك العواقب قد نما

يجزيك أو يثني عليك وإن مـــن   أثني عليك بما فعلت كمن جزى

إن الكريم إذا أردت وصالـــــه   لـــم تلف رثا حبله واهي القوى

قالت: فيقول:

"**نعم يا عائشة، أخبرني جبريل، قال: إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبد من عباده: اصطنع إليه عبد من عباده معروفاً، فهل شكرته؟ فيقول: أي رب علمت أن ذلك منك فشكرتك، فيقول: لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يديه**"».(٥٠٧)

ويبين سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام في حديث آخر العلاقة القريبة بين شكر الله تعالى وشكر من أحسن إليه من الناس على النحو التالي:

«**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**».(٥٠٨)



---

٥٠٧ علي المتقي، ٣، ٧٤١ـ٧٤٢.

٥٠٨ أبو داوود، الأدب، ١١/ ٤٨١١؛ الترمذي، البر، ٣١.



وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام القلب الشاكر بين أعظم النعم الموهوبة للإنسان ﷺ، إذ يقول ثوبان ﷺ: لما نزلت ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة**﴾ قال: كنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: أنزل في الذهب والفضة ما أنزل لو علمنا أي المال خير فنتخذه، فقال:

«**أفضله لسانٌ ذاكر وقلبٌ شاكر وزوجةٌ مؤمنة تعينه على إيمانه**».[٥٠٩]



كان داوود عليه السلام كثير الشكر لربه، روي في الأثر: أنّ داوود عليه السلام قال: يا رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود،.[٥١٠] أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.



روي أن عمر بن الخطاب ﷺ لقي رجلاً مؤمناً يقول: «اللهم اجعلني من الأقلين، فقال عمر: ما هذا؟! فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إن الله ﷻ قال: ﴿...**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾».[٥١١]



---

٥٠٩ الترمذي، التفسير، ٩/ ٣٠٩٤.

٥١٠ ابن كثير، قصص الأنبياء، بيروت، دار الكلام، ص: ٥٢٤.

٥١١ ابن أبي شيبة، المصنف، ٧، ٨١.



لما كان الجنيد البغدادي في السابعة من عمره أخذه خاله السري السقطي إلى الحج، وقد كانوا يتكلمون في إحدى مجالس العرفان داخل الحرم عن الشكر، وبعدما قدّم كل العارفين هناك حكمهم، التفت السري السقطي إلى الجنيد طالباً منه التكلم هو أيضاً، فيجيب الجنيد بعد فترة من الصمت بهذا الجواب الرائع: «الشكر ألا تعصي الله بنعمه».[٥١٢]



وفي شأن الشكر ثمة مقابلة ذات حكمة جرت بين شقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم، حيث قال شقيق البلخي إبراهيم بن الأدهم: «ما تقول في الصبر والشكر؟ قال شقيق: إنا قوم نصبر عند البلاء، ونشكر في الرخاء، قال: هذا ما تفعله كلاب بلخ، قال: فما تقول أنت قال: إنا قوم نصبر عند الرخاء ونشكر في البلاء».



ليس من الممكن تأدية شكر النعم التي مَنَّ الله بها كما يجب، لكنْ إن حمدنا وشكرنا بكل ما في وسعنا فإن الحق تعالى يرضى عنا بقبوله قليلنا كثيراً. رؤي بشر الحافي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وأباح لي نصف الجنة، وقال لي: يا بشر، لو سجدت لي على الجمر ما أديتَ شكر ما جعلتُ لك في قلوب عبادي.[٥١٣]



---

٥١٢ فريد الدين عطار، ص: ٣١٨.

٥١٣ القشيرية، الرسالة، بيروت ١٩٩٠، ص: ٤٠٦.



لقد غلب بارباروس خير الدين باشا أندريا دوريا في برفيزة، وقد تمكن أندريا دوريا بصعوبة من النجاة بنفسه بفراره تاركاً أسطوله البحري والندم يلفه.

ثم إن بارباروس قد أخذ مراكب العدو وقد تحطمت أشرعتها، وفيها عشرات الآلاف من الأسرى، من سارايبورنو إلى هاليج، وكان البحر كله مغطىً بمراكب العدو المليئة بالأسرى.

وكان قانوني والوزراء والسادة (الباشاوات) يشاهدون هذا المنظر المذهل من أمام قصر ساحلٍ لم يعد موجوداً الآن في سارايبورنو، فقال أحد السادة متحمساً:

«مولاي! كم هي عدد المرات التي تمكن فيها العالم من مشاهدة هذا المنظر؟ فمهما بلغ بكم الفخر فإنه يعتبر قليلاً!»

وأما خاقان قانوني العظيم فقد أجاب بقوله:

«أيها الباشا! أينبغي علينا التفاخر أم حمد ربنا العظيم وشكره سبحانه أن وهبنا هذا الظفر؟!».

يا لها من تربية إسلامية عظيمة، وما أعظمه من عالم قلبي سامٍ...



وباختصار فإن عيش كل لحظاتنا بأحاسيس الحمد والشكر لَهو من أجل وظائف العبودية وأهمها، وأداؤنا لهذه الوظيفة المهمة



ستقربنا في الوقت نفسه إلى الله تعالى، وستكون وسيلة إلى زيادة النعم التي بنا، وما أجمل ما يقوله حضرة مولانا:

«إن شكر النعم محبب أكثر من النعمة، فهل يتوجه من يحب الشكر تاركاً إياه إلى ناحية النعم؟ والشكر روح النعمة، والنعمة كالجلد والقشرة، لأن الشكر فقط هو الذي يجعلك تقصد باب الصديق، ثم إن النعمة قد تورث في الإنسان الغفلة بدلاً عن اليقظة، لكن الشكر يورث اليقظة على الدوام، فكن عاقلاً واصطد النعمة الحقيقية من خلال نعمة الشكر!».

١٧ . الشجاعة

وتأتي الشجاعة لمعانٍ منها عديدة منها البسالة والبطولة ومتانة القلب وإظهار الجسارة في الشدائد وفي غمرة المهالك، وهي حالة معتدلة بين قوة الغضب والحدّة وما يضادها من الجبن.

وأساس الشجاعة الرضا والاستسلام لقضاء الله تعالى، ولذا فلا يليق الجبن والتخاذل والضعف بالمسلم الذي يؤمن باليوم الآخر ويتوكل على الله تعالى.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم،



وليقذفن اللهُ في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».[٥١٤]

وهذا يعني أنه عندما يستولي حب الدنيا وكراهية الموت والخوف منه على القلوب تخروج الشجاعة والجسارة منها، ليقع عندها المؤمنون في الذلة والهوان، وبهذا لا يبقى لهم أيّة عزة وكرامة أمام أعدائهم.

صور الفضيلة

يتعذر تصور أن يكون ثمة أحد ما ذو شجاعة أعظم من رسول الله ﷺ، حيث إنه يُظهر الصبر والثبات حتى في الأحوال الاستثنائية، ولا يقوم بتصرفات غير مناسبة باستسلامه للخوف والاضطراب.

أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ وأمره أن يهاجر إلى المدينة، ولما علم مشركو قريش بالأمر، واجتمعوا يتطلعون من صير الباب ويرصدونه يريدون ثيابه، فخرج رسول الله ﷺ عليهم وهم جلوس على الباب فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرها على رؤوسهم ويتلو يس والقرآن الحكيم حتى بلغ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ومضى رسول الله ﷺ.[٥١٥]



---

٥١٤ أبو داوود، الملاحم، ٥/ ٤٢٩٧.

٥١٥ ابن سعد، ١، ٢٢٧ـ٢٢٨.

وعن علي ﵁ قال:

«لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي ﵇، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً».[516]

عن عبد الله بن عمر ﵁ قال:

«ما رأيت أحداً أجود ولا أنجد ولا أشجع ولا أوضأ من رسول الله ﷺ».[517]



«لما كان يوم أحد خرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للبراز، فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير، فوثب حتى استوى معه على البعير ثم عانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله: الذي يلي حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك، فوقع عليه الزبير فذبحه، فأثنى عليه رسول الله، وقال: لكل نبي حواري، وإن حواريَّ الزبير، وقال: لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه» لما رأى من إحجام الناس عنه».[518]



---

516 أحمد، ١، ٨٦.

517 ابن سعد، ١، ٣٧٣.

518 الحلبي، إنسان العيون، مصر ١٩٦٤، ٢، ٢٣٥.



كان أُبي بن خلف من ألدّ أعداء الإسلام، يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد إن عندي العوذ فرساً أعلفه في كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ:

«بل أنا أقتلك إن شاء الله».

أقبل أبي بن خلف يوم أحد إلى النبي ﷺ يريده، فاعترض رجال من المؤمنين وهو يقول: لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: دعوه، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله، فلما دنا منه تناول رسول الله الحربة من أحد الصحابة فلما أخذها رسول الله انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه تداداً منها مراراً، فلما رجع إلى قومه، وقد خدشه الرسول بالحربة خدشاً غير كبير قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس، قال: إنه قد كان قال بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني، فكان هذا الشقي الوحيد الذي قتله رسول الله بيده الكريمة، فمات إلى النار فسحقاً لأصحاب السعير.[٥١٩]



٥١٩ ابن إسحاق، ص: ٨٩؛ ابن سعد، ٢، ٤٦؛ الحاكم، ٢، ٣٥٧.



يقول محمد بن مسلمة:

«سمعت بأذناي ورأيت بعيناي، لما تفرّق المسلمون في أحد، وكانوا يهربون نحو الجبل، ورسول الله ينادي من وراءهم: «إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، أنا رسول الله».[٥٢٠]

ويقول الحق تعالى في صدد بيان هذه الحقيقة وكيف كان رسول الله يدعو الصحابة للثبات معه بكل بسالة وشجاعة:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ...﴾ (آل عمران، ١٥٣)



كان المسلمون والمشركون سيتقاتلون مجدداً رأس الحول بموجب الهدنة المعقودة يوم أحد، وبمقتضى هذه الهدنة أتى أبو سفيان حتى موقع مرّ الظهران على رأس جيشه، إلا أنه أحاط الخوف أيضاً بقلبه مما أجبره على الرجوع، لكن عزة نفسه أبت أن يعود، فبعث رجلاً إلى المدينة فأخبرهم بجمع أَبِي سُفْيَان لهم وما معه مِن العدة والسلاح قاصداً بذلك دَبَّ الرعب في قلوب المسلمين، وبالتالي منعهم من الخروج.

ولما وصل الخبرُ المدينةَ كان رسول الله ﷺ قد فرغ من استعدادات المعركة، بل وأعطى الأمر بسيرهم إليها، وبما أنّ رسول

---

٥٢٠ الواقدي، ١، ٢٣٧.



أبي سفيان كان على علم بخوف أبي سفيان ورجوعه فقد عمل جاهداً لكي يمنع خروج المسلمين إلى الغزو بتخويفه المسلمين من المعركة، مضيفاً إلى الكذب الموكل بإشاعته الجديد من الكذب، بإخباره أن المسلمين إن خاضوا المعركة مع مشركي مكة خارج المدينة ستكون عاقبتهم وخيمة جداً، فوقع الخوف في قلوب بعض المسلمين نتيجة جهوده ومحاولات المنافقين فبدأوا برفض الخروج للمعركة، فَقَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ عندئذ:

«**والذي نفسي بيده لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد!**»، فنصر اللَّه المسلمين وأذهب عَنْهُمُ الرعب.[٥٢١]



وحنين إحدى المواضع التي أظهر فيها النبي ﷺ الشجاعة أيضاً، حيث كان النبي ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار لما ولّى المسلمون مدبرين.[٥٢٢]

وعن أنس بن مالك ﷺ قال:

«لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع النبي ﷺ عشرة آلاف، ومعهم الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقي وحده، فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال:

---

٥٢١ ابن سعد، ٢، ٥٩؛ الواقدي، ١، ٣٨٦ـ٣٨٧.

٥٢٢ مسلم،الجهاد، ٧٦.



"يا معشر الأنصار"

قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، ثم التفت عن يساره فقال:

"يا معشر الأنصار"

قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال:

"أنا عبد الله ورسوله"، فانهزم المشركون...».[٥٢٣]



جاء رجل إلى البراء بن عازب رضي الله عنه وقال:

«أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة! فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى، ولكنه انطلق إخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر، وهو يقول:

"أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزل نصرك"

قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ».[٥٢٤]



٥٢٣ البخاري، المغازي، ٥٦، مناقب الأنصار، ١؛ مسلم، الزكاة، ١٣٥/ ١٠٥٩.

٥٢٤ مسلم، الجهاد، ٧٩/ ١٧٧٦؛ البخاري، المغازي، ٥٤، الجهاد، ٥٢، ٦١، ٩٧.



عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس، قال: فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق رسول الله ﷺ قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسولُ الله ﷺ وقد سبقهم، وهو يقول: لن تُراعوا، وهو على فرسٍ لأبي طلحة عري في عنقه السيف، قال: فجعل يقول للناس لن تراعوا، وقال: وجدناه بحراً أو أنه البحر يعني الفرس».(٥٢٥)



وروي أن رسول الله أخذ سيفاً يَومَ أُحد، فقال:

«مَن يأخذ مني هذا؟»

فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال:

«فَمَن يأخذه بحقه؟»

قال فأحجم القوم. فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين.(٥٢٦)

ولما أخذ أبو دجانة السيف قال أحد الصحابة: وما حقه يا رسول الله؟ قال:

«أن تضرب به العدو حتى ينحني»

---

٥٢٥ البخاري، الأدب، ٣٩؛ ابن سعد، ١، ٣٧٣.

٥٢٦ مسلم، فضائل الصحابة، ١٢٨/ ٢٤٧٠.



قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، فلما أخذ السيف من رسول الله أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة:

«إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».[٥٢٧]



وقد روي أن رسول الله ﷺ خرج إلى الخندق فجعل نساءه وعمته صفية في أطم يقال له فارع، وجعل معهم حسان بن ثابت، وخرج رسول الله ﷺ إلى أحد، فرقى يهودي حتى أشرف على نساء رسول الله ﷺ وعلى عمته، فقالت صفية: يا حسان قم إليه حتى تقتله، قال: والله ما ذاك فيّ، ولو كان ذاك فيّ لخرجت مع رسول الله ﷺ، قالت صفية: فاربط السيف على ذراعي ثم تقدمت إليه حتى قتلته، وقطعت رأسه، فقالت له: خذ الرأس فارم به على اليهود قال: ما ذلك فيّ فأخذتْ هي الرأس فرمت به على اليهود، فقالت اليهود: قد علمنا أن محمداً لم يكن يترك أهله خلوفاً ليس معهم أحد فتفرقوا وذهبوا.[٥٢٨]



٥٢٧ ابن هشام، ٣، ١١ ـ ١٢.

٥٢٨ الهيثمي، ٦، ١٣٣ ـ ١٣٤؛ الواقدي، ٢، ٤٦٢.



قال خالد بن الوليد رضي الله عنه:

«لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية».[٥٢٩]



كان الصوفي الكبير حضرة نجم الدين كبرى المتّبع خطى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه من بعده، لما تعرّض بلده خوارزم إلى الاحتلال من قِبل المغول قد ثار مع تلامذته ببطولة نادرة وقاتل حتى استشهد، فأضحى الذين جعلوا تمني الشهادة في ثقافة التصوف ورداً، وأقاموا في الثغور لتوفير أمن المقاتلين، وقدموا نماذج في البسالة والشجاعة، أضحوا أهم ممثلي الشجاعة والإقدام.



كان جيش التحالف الصليبي -الذي اجتمعت غايته على القضاء على العثمانيين وإنقاذ البيزنطيين واستعادتهم والاستيلاء على القدس الموجودة في أيدي المسلمين- قد دخل الأراضي العثمانية وحاصر قلعة نيغ بولو الواقعة على ساحل نهر طونا.

ولما بلغ الخبر مسامع يلدرم بيازيد وصل قريباً من نيغ بولو بسرعة البرق، حتى إنه تسلل ببراعة بين صفوف العدو لوحده

٥٢٩ البخاري، المغازي، ٤٤.



ممتطياً جواده منتصف الليل، كي يُعلمهم بأنه ليس عليهم تسليم القلعة، فلما تجاوز الجيش نادى قائد القلعة من أسفلها:

«يا دوغان! يا دوغان!..»

فأجاب القائد الذي سمع صوت السلطان من فوق السور وقد عرفه على الفور قائلاً:

«تفضل يا سيدي!..»

فأعلمه يلدرم بيازيد خان بتعليماته باختصار، وقد قال:

«دوغان! لقد أتيت بجيشي فاهدأ وإياك وتسليم القلعة!»، وسرعان ما عاد أدراجه بعدها مختفياً في جنح الظلام.

وانتهت المعركة الدامية التي قامت مع جيش الصليبيين الحاشد في اليوم التالي بنصر مؤكد ليلدرم بيازيد، وقد كانت جميع الدول الأوروبية الصغرى والكبرى قد أمدت جيش الصليبيين بجنود منها، ومنهم عشرة آلاف محارب من المحاربين الفرنسيين، كانوا يتفاخرون بقولهم: «إن سقطت السموات فإنا نمسكها برماحنا»، إلا أن الصليبيين لم يصمدوا وقد ذابوا أمام الحملات الممتلئة بالإيمان، وقد وقع يومها يلدرم بيازيد مِن على حصانه الذي أصيب كما أصيب هو بجراح في العديد من مواضع جسمه، لكنه لم يلتفت لجراحه وامتطى جواداً آخر، وأدار المعركة بكل ما أوتي من قوة حتى أصبح النصر حليفه.





لقد أَسَرَ يلدرم بيازيد الكثيرَ من النبلاء الأشراف والمحاربين في ظفر نيغ بولو، وكان بين الأسرى محارب الفرنسيين المعروف والذي لا يعرف الخوف (جان)، فخلّى يلدرم بيازيد خان سبيلهم مقابل افتدائهم أنفسهم، إضافة إلى إكرامه إياهم جميعاً في يوم عودتهم إلى بلادهم، فقال جميع المحاربين وقد خجلوا إلى أبعد الحدود بعد التفكير في معاملتهم السيئة وظلمهم لأسرى المسلمين مقابل المعاملة الإنسانية التي لاقوها من السلطان:

«نقسم بشرفنا أننا ومنذ هذه اللحظة لن نتعرض لسلطان أناضول و»روملي» يلدرم بيازيد خان، ولن نحمل السلاح في وجهه!..».

فقال السلطان العظيم يلدرم بيازيد خان الذي يعد نموذجاً في البسالة أمام الكفار مضيفاً على كلماتهم التي قالوها تحت وطأة تفضله هذا، وبصوت جهوري مخاطباً المحاربين:

«ليرجع جان -صاحب اللقب المعروف في أوروبا بأنه لا يعرف الخوف- وأصدقاؤه عن قولهم، وليرفعوا السلاح مرة أخرى في وجه السلطان، وليذهبوا، ويجمعوا الجيوش من جديد وليزحفوا نحوي، لكن لتكونوا على علم بأن فعلكم هذا يُيَسِّر لي فرصة للفوز والنصر مرة أخرى، لأنني سلطانٌ أحمل في طيات نفسي حسّا أنني ولدت في هذه الدنيا لكسب رضا الحق تعالى بإعلاء دينه ﷻ، وفي هذا الصدد فإنّ عون الله تعالى ونصره سيكون حليفنا، ومن كان الله في عونه فما من قوة أو قدرة تستطيع التغلب عليه!..».





لما حاصر تيمور قلعة سيواس بالفيلة التي تُعَدُّ دبابات ذلك الزمان، قام أمير القلعة أرطغرل ابن يلدرم بيازيد بجمع أشراف البلد إليه، والتحدث إليهم بما يلي:

«تقوم وظيفتي على بذل الجهد لحمايتكم والذَّود عنكم، قد تكون قوات تيمور أكثر منا إلى درجة يتعذر معها القياس، وهذا ليس إلا قضاءً إلهياً، وما عليّ فعله هو المدافعة عنكم وعن القلعة كما يليق بنا، ولتعلموا أن تيمور لن يدخل هذه البلدة إلا على أجسادنا».

قام الأمير أرطغرل بالتحرّك كما قال، وأظهر مقاومةً لا تصدق بالثلّة من أبطاله في مواجهة جيش تيمور، وتقاتلوا بإقدام، إلا أن الأمير ومحاربيه الشجعان شربوا من معين الشهادة أمام جيش العدو الجاري كسيل عرم.

فأرسل تيمور -بعد أن قضى على الأمير- خبراً إلى مَن في القلعة بأنه سيحقن دماءهم إن استسلموا، لكنه -بعد أن وثقوا بأمانه لهم- قتل جميع من في القلعة بوحشية.



وفيما يلي حادثة تصلح مثالاً رائعاً يوضّح شجاعة الجنود العثمانيين:

كان لِوانت الذي جاء ببشرى ظفر بريْوِيزة على أربعة جياد سريعة، عند دخوله قصر طوب كابي، قد دار به جواده على قائمتيه مدة لما شدّ لجامه، فقال قانوني الذي رأى هذا المشهد للوانت:



«يا لهذا الفرس الجموح الذي أتيت به!» فكان جواب لِوَانت على سؤال قانوني هذا:

«يا مولاي! لقد كان البحر الأبيض فرساً جموحاً فصيّرناه ذلولاً».



ظهر القرار باتخاذ تدابير بنقل السلطان والحكومة إلى أَسكي شهير أثناء معركة «جاناك قلعه» خشيةً من إمكانية اجتياز أسطول العدو بحر مرمرة، فلما علم السلطان عبد الحميد الثاني -المعزول عن العرش- والمسجون في قصر بيلاربيه، قال راداً على ذلك بكل بسالة وشجاعة:

«أنا حفيد السلطان محمد الفاتح!.. ليس من الممكن أبداً أن أكون أقل مستوى من قسطنطين الأمبراطورية البيزنطية! لما استولى جدي الفاتح على اسطنبول مات قسطنطين وهو يحارب على رأس جنوده، فإن تحقق احتمال دخول العدو من جاناك قلعه -لا قدر الله- فإني سآخذُ سلاحي وأمضي وحدي لأموت وأنا أقاتل، فلا يدخل العدو اسطنبول إلا على جثتي، قولوا لأخي رشاد القائم على أمور الدولة إياه حتى هو والذهاب إلى أي مكان، فإن فارق هو أو الحكومة اسطنبول فلن يعودوا إليها مجدداً...».

وقد بقي السلطان والدولة في اسطنبول أمام ثباته هذا، وبهذا وُقِيَتْ الدولة من الانهيار ذلك اليوم.





يصوّر لنا السائح الفرنسي أ. ل. جاستلان، شجاعة الإنسان العثماني بكلماته التالية:

«عقيدة القضاء والقدر متجذرة بعقول العثمانيين، وهذه العقيدة لديهم تصلح مكان الشجاعة، وتزيد من ثباتهم ومتانتهم، حتى إنه يكون وسيلة لوضع الموت نصب أعينهم غير آبهين به، ولهذا السبب فلا يمكن للمهالك المؤكدة إلى درجة معاينتها بالعين أن ترهبهم، ثم إنهم لا يقطعون الأمل من الحياة إن لم يكونوا على قناعة بمجيء الأجل على الرغم مِن تحوّل أجسامهم كالمنخل من الجراح بعد إلقائهم بأنفسهم في النيران وفوق حراب الأعداء».



وباختصار لا يخشى المؤمنون إلا الله تعالى، ولا يخافون أحداً غيره لتوكلهم عليه، ويطبقون أوامر الله تعالى بشجاعة وصلابة، ويتصرفون بما يلزمه الزمان والمكان من خلال استخدامهم شجاعتهم بكل فراسة وبصيرة، يثني الله تعالى على هذه الحالة بقوله:

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [٥٣٠]



٥٣٠ الأحزاب، ٣٩.



١٨. الاستقامة

الاستقامة بالمعنى العام هي المضيّ بثبات نحو هدف بلا تردد أوشك، وأما في اصطلاح التصوف فهي المحافظة على الفطرة من غير تلويث لصفائها وبراءتها.

والاستقامة بتعبير آخر: أخذ حظ من شخصية الرسول ﷺ المثلى من خلال إبقاء محبته له حية في قلبه، والتخلّق بأخلاقه والعيش بروحانية القرآن والسنة طوال الحياة، والتمكّن من نيل أسرار العبودية والمعرفة بالابتعاد عن المتع النفسية الدنيوية.

وبما أنه ما من طريق آخر غير الاستقامة للوصول إلى الحق تعالى، فلذا ما من أمر صعب كالمحافظة على الاستقامة في كل حالة وهي مكانة عالية ينبغي إيفاءها حقها كما يجب، ولذا فالاستقامة في طريق الحق تعد أعظم كرامة عند أهل الحق.

ويبشر الحق تعالى أهل الاستقامة بما يلي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [٥٣١]

---

٥٣١ فصّلت، ٣٠ـ٣٢.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥٣٢)

والصراط المستقيم طريق أهل الاستقامة، ويتحدث القرآن الكريم فيمن تمكن من السير في هذا الطريق القويم بحق فيقول:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٥٣٣)

إن الصراط المستقيم طريق الناس المصطفين، وأساس الاستقامة الإيمان والتقوى، ومحلهما القلب، وبهذا فإن الاستقامة بالإيمان والتقوى الموجودين في القلب تجعل القلب والبدن منسجمين، ثم إن الإيمان والإخلاص والاعتدال في القلب توفر الاستقامة على الدوام، يقول رسول الله ﷺ:

«لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». (٥٣٤)

---

٥٣٢ الأحقاف، ١٣ ـ ١٤.

٥٣٣ النساء، ٦٩.

٥٣٤ أحمد، ٣، ١٩٨.



وعلى المؤمن أن يكون مستقيماً في هذه الدنيا الفانية، ولا ينحرف عن طريق الحق أبداً، وما أجمل قول الشاعر:

استقم ولا تخش عدوا

فلو كان ناراً لا تحرقك

فإن الله لا يخزي عباده

صور الفضيلة

يخاطب الحق تعالى رسوله ﷺ وأمته من خلاله:

﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا...**﴾[٥٣٥]

قال عليه الصلاة والسلام:

«**لقد شيبتني هود**».[٥٣٦]

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية:

«ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشدّ ولا أشقّ عليه من هذه الآية».[٥٣٧]

وعلى الرغم من أن الخطاب في هذه الآية للنبي ذي الشأن عليه الصلاة والسلام، فإن ما شق عليه لم يكن متعلقاً بالاستقامة

---

٥٣٥ هود، ١١٢.

٥٣٦ الترمذي، التفسير، ٥٦/ ٣٢٩٧؛ القرطبي، ٩، ١٠٧.

٥٣٧ النووي، شرح صحيح مسلم، مصر ١٩٨١، ٢، ٩.

المتعلقة بشخصه فحسب، لأنه كان صاحب مقام التأييد الإلهي: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[538]. والأمر الذي شغل تفكيره إلى أن شيّبه قلقه من أن الأمر يشمل المؤمنين.

قال فخر الكائنات في إحدى أحاديثه الشريفة:

«استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة...».[539]



وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال:

«قلت: يارسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسال عنه أحداً غيرك، قال:

"قل آمنت بالله، ثم استقم"».[540]



وعن أنس أن النبي ﷺ قرأ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[541]

---

٥٣٨ يس، ٤.

٥٣٩ ابن ماجة، الوضوء، ٢٧٧؛ الموطأ، الطهارة، ٦.

٥٤٠ مسلم، الإيمان، ٦٢.

٥٤١ فصلت، ٣٠.



وقال عليه الصلاة والسلام:

«قد قال الناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام».[٥٤٢]



لقي أحد الأكابر مسناً يمشي بصعوبة، وقد حمل على ظهره حطباً، فقال وهو ينظر إلى حالته:

«أيها العجوز! أنفد توكلك على الله تعالى الرازق، فأنت لا تزال تتحمل هذه المهنة في سِنِّك هذه؟ أم أنه ما من أحد يعيلك؟»

فنظر الحطاب المسن إلى السماء رافعاً يديه لإزالة الإدراك المعنوي عند مخاطبه: «يا ربي! صيّر هذه ذهباً!» وسرعان ما تحول الحطب في يده ذهباً.فقال الشخص الذي رأى هذه الكرامة -والحيرة تلفه-: «لِمَ يحمل رجلٌ قد بلغ هذه المرتبة الحطب؟»

فقال الحطاب المسن:

«يا بني، إني أقوم بهذا كي تعرف نفسي حقيقتها، ولا تخرج عن دائرة العبودية، لأن درجة القبول عند الحق تعالى تتناسب والاستقامة في العبودية...».



٥٤٢ الترمذي، التفسير، ٤١/ ٣٢٥٠.



يقول أبو يزيد البسطامي قدس سره:

«قد ترون من يتربع في الهواء ويجلس، فلا يمكن أن نصدق أنها كرامة ما لم يحمِ حدود أوامر الله تعالى ونواهيه، واتباعه للسنة النبوية، ومراعٍ لحقوق الحق...».

ويقول أيضاً أبو يزيد البسطامي قدس سره:

«كنت سأمرُّ يوماً من نهر دجلة إلى الطرف الآخر، فلما وصلت قريباً منها، اتحد طرفا دجلة ليصير طريقاً لي، فانتبهت من فوري، وقلت لدجلة: «أقسم بالله أنني لا أخدع بهذا، لأن الملّاحين يأخذون الشخص بنصف درهم إلى الطرف المقابل، لكنك في طلب عملي منذ ثلاثين سنة! ولذا فإني لا أخاطر بعملي الصالح الذي أعددته ليوم الحشر مقابل نصف درهم، وليس بي حاجة إلى الكرامة وإنما إلى الكريم!».



طلب مريدو نقشبندي شاه من حضرته يوماً كرامة، فقال حضرته:

«كرامتنا نحن جلية، انظروا، فعلى الرغم من ثقل الذنوب التي تُثقل عاتقنا فإننا لا نزال قادرين على الوقوف والمشي على الأرض، أَمِن كرامةٍ أعظم من هذه؟

وقال بعد ذلك مذكراً مرة أخرى بأن الأمر المهم في التصوف هو الاستقامة وليست الكرامة:



«من دخل روضة وسمع كل ورقة شجر فيها وهي تخاطبه بقولها: مرحباً بك يا ولي الله، فلا يلتفتن إل هذا الصوت سواء كان ما سمعه ظاهرياً أم باطنياً، بل على العكس عليه زيادة عزمه وجهده في العبودية».

فقال بعد المريدين معقبين على هذا:

«سيدي، إن لكم كرامات تظهر بين الحين والآخر مهما اجتهدتم في إخفائها!...».

فقال وليّ الحق –وهذا مثال التواضع–:

«إن ما ترونه كرامات مريديَّ».

قال ذلك لأنه كان في حالةٍ من إخفاء مقامه، ولذا لم يأذن لمريده حسام الدّين حاجّي يوسف بكتابة أقواله وكراماته وهو على قيد الحياة.

لقد وصل عظماء الإسلام إلى مراتب عالية، باتخاذهم الاستقامة دستوراً لهم، وليس الكرامة، وهم اعترفوا بعدم اكتسابهم قدراً أكثر مِن الطير الطائر في السّماء والسّمكة العائمة في الماء، وهم يوضحون بكل الوسائل أن المعرفة حصرياً ليست بالتوجه إلى تقليد ما يقوم به كل من الطائر والسمكة بل بالعيش في استقامة من خلال التمسك برضا الحق تعالى ضمن إحساس بعبودية عظيمة، وقدموا ذلك بأحوالهم وتصرفاتهم.



إن أولياء الحق لا يظهرون كراماتهم ما لم يضطروا إلى ذلك، وإنما يظهرون بكمالية الأخلاق البشرية التي تصلح مثالاً يحتذى به.

ومن الملفت للانتباه وصية الحسن البصري لأحد تلامذته فيما يتعلق بالكرامة: «لا تغتر بمستوى العلم والحال والعرفان! وتذكر ما أصاب بلعم بن باعوراء بعد أن وصل إلى مرتبة الاطلاع على اللوح المحفوظ وقراءة ما فيه!».

فإن حالته المليئة بالعبرة مذكورة في القرآن الكريم كما يلي:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٥٤٣]

ويقول حضرة مولانا خالد البغدادي:

«الاستقامة والجهد أفضل من كشف وكرامة لا تحصى، إضافة إلى لزوم معرفة أن الكشف والكرامة إن لم يتحولا وسيلة إلى زيادة رعاية أوامر الدين، فإن كلاً منهما لا يعدو عن كونه بلاء وفتنة».



وتأتي تنبيهات محمد أسعد أفندي رحمة الله عليه في صدد بيان أهمية الاستقامة وبالأخص للأوائل على النحو التالي:

٥٤٣ الأعراف، ١٧٦.



«كل مَن لم يكن على رأسه عمامة الاستقامة فإنه ماضٍ إلى الزوال والفناء، سواء في ذلك العالِم أو الشيخ».

«أيصيب سهم الأمل هدف القرب من الله تعالى إنْ لم ينحنِ ظهرك بثقل الاستقامة؟».[٥٤٤]

ولنتأمل -نحن العباد المذنبين- في مقدار العناية التي ينبغي علينا إيلاؤها في شأن الاستقامة، في حين ترتعش قلوب أولياء الحق وأهل الكرامة في هذا الشأن...



وباختصار فإن الاستقامة ضرورية لكل مؤمن، لكن من الصعب جداً نيله والمحافظة عليه، وبما أن شرف أي نتيجة يحصل المسلم عليها تكون متناسبة والمشاقّ التي تحمّلها في سبيل بلوغ تلك النتيجة، فإن أهل الاستقامة ينالون شرفاً عظيماً ومكافآت لا حصر لها مقابل ما بذلوه في سبيل ذلك.

١٩ . الوفاء والإخلاص

الوفاء والإخلاص من أهم الشعارات الإسلامية، ومن الأوصاف التي ينال بها الإنسان الكرامة والشرف، وهي خصلة معنوية تتوج الحياة البشرية في أرفع سوية بكونها صفة تخص الأنبياء والأولياء وأصحاب الفضل، هذا الشعور العلوي مقياس

٥٤٤ الديوان، اسطنبول، ١٩٩١، ص: ٢٧.



للقيمة المعطاة للمحبوبين أو الذين يجب أن يُحَبُّوا، إنّ مَن لا وفاء عنده هو المغرور الذي لا يفكّر إلا بنفسه ومتعه ومنفعته.

وعلى الإنسان قبل كل شيء أن يكون وفياً لربه ﷻ، ولا يتحقق هذا إلا برعاية أوامره تعالى، يقول الحق تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٥٤٥]

والوفاء الأفضل والألزم بعد الوفاء لله تعالى هو الوفاء لفخر الكائنات الأبدي نبينا ﷺ، فهذا الوفاء عبارة عن مشاعر الشكر المكنونة للنبي ﷺ، الذي يولي أمته الأولوية في تضرعه والتجائه إلى الله تعالى بقوله «**أمتي، أمتي**». ثم إن هذا الوفاء الذي يبدأ بالتعمق بحب رسول الله ﷺ، لا يمكن تحققه إلا بالتمسك بسنته السنية.

وعلى كل مؤمن أن يكن مفعماً بحسِّ الوفاء لعظماء الإسلام أي أولياء الحق، لأنّ أولياء الحق تعالى هم من أوصل إلينا أوامر الله تعالى ونبيّه ونواهيهما، والأخلاق الحميدة والمصابيح العليّة التي تضيء عالَمِينا.

ما يلزم إظهار الوفاء فيه غير محصور بما أحصيناه، إذ يجب تثبيت الوفاء في القلب وبالأخص للأصحاب والإخوة في الدين، ومن ناحية أخرى فإنّ الوفاء للأجداد وللأحياء منّا والأموات،

---

٥٤٥ الحشر، ١٩.



والوفاء للوطن ولجميع الأمانات الموجودة في المجتمع من خصال الطابع والشخصية المتينة.

وما أجمل بيان حضرة مولانا لفضيلة الوفاء والإخلاص:

«إن جملة أمور كالعشق والمحبة والصداقة مرتبطة بالوفاء وتبحث دائماً عن الأوفياء، ولا تقترب من فؤاد غير مخلص.

وقد كتب القلم: «الوفاء يقابله الوفاء والجفاء يقابله الجفاء»، ثم جفّ مداده.

لقد كان كل سلطان يقوم بقطع رأس من ظهرت منه الخيانة له حتى ولو كان ولده، لكن إن أظهر عبد هندي الوفاء والإخلاص للسلطان، تطري القلوب ذلك العبد، وتكن له التقدير... ولا يحصل مئات الوزراء على الاحترام الذي يحصل هو عليه.

ومن هو العبد، فلو كان الوفيّ كلباً على الباب تثمر في قلب صاحبه مئات مشاعر الرضا والامتنان، ويربت صاحبه عليه بكل محبة...».

صور الفضيلة

ويقدّم النبي ﷺ لأصحابه نموذجاً على الوفاء:

«**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت**». [٥٤٦] مظهرٌ وفاءه لهم.

---

٥٤٦ أحمد، ٥، ٢٦٢؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٤٥٣/ ٣٥٦٦.

«لمّا مّر رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية بالأبواء قال: "**إن الله قد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه**" فأتاه رسول الله ﷺ فأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ فقيل له فقال: "**أدركتني رحمتها فبكيت**"».[٥٤٧]



لما شرّف النبي عليه الصلاة والسلام الدنيا بمولده، كانت بين من أرضعنه ثويبة بلبنِ ابنٍ لها يقال له مسروح.[٥٤٨]

فكان رسول الله ﷺ بعد أن هاجر يسأل عن ثويبة، فكان يبعث إليها بالصلة والكسوة حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع مرجعه من خيبر، فقال: "**ما فعل ابنها مسروح؟**" فقيل: مات قبلها ولم يبق من قرابتها أحد.[٥٤٩]



استأذنت حليمة السعدية على النبي ﷺ وكانت قد أرضعته، فلما دخلت عليه قال: أمي أمي، وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه.[٥٥٠]

---

٥٤٧ ابن سعد، ١، ١١٦ ـ ١١٧؛ مسلم، الجنائز، ١٠٥، ١٠٨.

٥٤٨ ابن سعد، ١، ١٠٨.

٥٤٩ ابن سعد، ١، ١٠٨، ١٠٩.

٥٥٠ ابن سعد، ١، ١١٣، ١١٤.



وروي أيضاً، أن رسول اللّه ﷺ كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له رسول اللّه ﷺ فأجلسه بين يديه.(٥٥١)

قدمت حليمة بنت عبد الله على رسول الله ﷺ مكة وقد تزوج خديجة فشكت جدب البلاد وهلاك الماشية، فكلم رسول الله ﷺ خديجة فيها فأعطتها أربعين شاة وبعيراً موقعاً للظعينة، وانصرفت إلى أهلها، وبهذا أظهرت السيدة خديجة رضي الله عنها وفاءها للنبي ﷺ.(٥٥٢)



وقدمت على النبي ﷺ إحدى نساء بني سعد بن بكر، إما خالة وإما عمة بنحي مملوء سمناً وجراب أقط، فدخلت عليه وهو في الأبطح، فلما دخلت انتسبت له فعرفها رسولُ الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت وصدقت، ثم أمر رسول الله ﷺ بقول هديتها، وجعل يسائلُها عن حليمة، فأخبرته أنها توفيت في الزمان، قال: فذرفت عينا رسول الله ﷺ، ثم سألها من بقي منهم؟ فقالت: أخواك وأختاك، وهم والله محتاجون إلى برِّك وصِلتك، ولقد كان لهم موئل فذهب، وقال لها رسول الله ﷺ: أين أَهلك؟ فقالت: بذنب أوطاس، فأمر لها رسول الله ﷺ بكسوة وأعطاها جملاً ظعينة

---

٥٥١ أبو داوود، الأدب، ١١٩ ـ ١٢٠/ ٥١٤٥.

٥٥٢ ابن سعد، ١، ١١٤.



وأعطاها مائتي درهم، وانصرفت وهي تقول: نعم والله المكفول كنت صغيراً، ونعم المرء كنت كبيراً عظيم البركة.[553]



لما تحقق النصر للمسلمين في غزوة حنين، وسيقت الغنائم ومعها الأسرى وساقوا معهم الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله من الرضاعة، قال: فعنفوا عليها في السوق، فقالت للمسلمين: تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة؟ فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ، فلما انتهى بها إلى رسول الله قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة،

قال: "**وما علامة ذلك؟**"

قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، قال: فعرف رسول الله العلامة، فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيرها، وقال:

"**إن أحببت فعندي محببةً مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلتُ؟**"

قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله وردها إلى قومها، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً يقال له مكحول وجارية، فزوجت أحدهما الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.[554]



---

٥٥٣ الواقدي، ٢، ٨٦٩؛ البلاذوري، ١، ٩٥.

٥٥٤ ابن هشام، ٤، ١٠١؛ الواقدي، ٣، ٩١٣.



وبعد فترة أعلن سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أنه فكّ أَسْرَ أقاربه من الرضاعة ممن كان بين الأسرى من نصيبه هو ونصيب بنو عبد المطلب، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

«...فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحبّ منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله ﷻ علينا فليفعل»

فقال الناس: قد طيّبنا ذلك لرسول الله ﷺ.[555]

وبهذا تمّ رد آلاف أسرى الحرب يومئذ إلى هوازن من غير أخذ عوضٍ عنهم، فتم إحياء آلاف الناس بفضل حس وفاء الرسول عليه الصلاة والسلام، وحصلوا على الإيمان والحرية.



لما كان نور الوجود عليه الصلاة والسلام في السادسة من عمره، قصد المدينة بصحبة أمه زائراً قبر والده، وعند الرجوع توفيت أمه في قرية الأبواء، وبهذا أضحى النبي عليه الصلاة والسلام يتيم الأم أيضاً، ورجع إلى مكة بصحبة الخادمة أم أيمن رضي الله عنها.

فكان رسول الله ﷺ يزور مربيته أم أيمن بين الحين والآخر طوال عمره، ويخاطبها بأمي!، وكان يثني عليها فيقول:

---

٥٥٥ البخاري، المغازي، ٥٤/ ٢٣٠٧؛ ابن هشام، ٤، ١٣٤ ـ ١٣٥.



«**هي أمي بعد أمي! هذه بقية من أهلي!**»، ويظهر لها الاحترام والمحبة.



كانت السيدة فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب فاضلة وذات قلب سليم، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يزورها على الدوام بعد أن شرفها الله بالإسلام وهاجرت إلى المدينة، وكان ينام في بيتها وقت القيلولة.[٥٥٦]



لما توفيت السيدة فاطمة بنت أسد ﵂ ذرفت عينا النبي ﷺ الدمع سخيا رقراقا كحبات اللؤلؤ، وقال: «**اليوم ماتت أمي**»، وخلع النبي قميصه وألبسها إياه، واضطجع في قبرها، فلما سوّى عليها التراب قالوا: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه بأحد، فقال:

«**إني ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت معها في قبرها خفف عنها من ضغطة القبر**».

ولما قيل للنبي ﷺ: لقد اشتد جزعك على فاطمة قال ﷺ:

«**إنها كانت أمي، إن كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهنني، وكانت أمي**»،

ثم دعا لها النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً:

---

٥٥٦ ابن سعد، ٨، ٢٢٢.



«الله الذي يحيى ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها»

وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«رحمكِ الله يا أمي كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبا وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة...».[٥٥٧]



وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:

«مَا غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ، ما غِرْتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول:

"إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد"».[٥٥٨]



لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بدفن شهداء أحد قال في عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

---

٥٥٧ الحاكم، ٣، ١١٦ ـ ١١٧؛ الهيثمي، ٩، ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ اليعقوبي، ٢، ١٤.

٥٥٨ البخاري، مناقب الأنصار، ٢٠ / ٣٨١٨؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٧٤ـ٧٦.



«ادفنوا عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، فإنهما كانا في الدنيا متحابين، متصافين».[٥٥٩]

ما أعظمه من حسٍّ بالوفاء، وثناء عليه، وحض للصحابة أن يتخلقوا بأخلاق إخوانهم...



روي أن رجلاً أسود أو امرأة سوداء كان يقمّ المسجد، فمات فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات قال:

«أفلا كنتم آذنتموني به دلّوني على قبره، أو قال قبرها فأتى قبرها فصلى عليها».[٥٦٠]



مضى سنوات على هجرة الحبشة، وقدم على النبي عليه الصلاة والسلام مرة رُسُلُ ملك الحبشة، فاهتم النبي عليه الصلاة والسلام بهم من قريب، حتى إنه قام بخدمتهم بنفسه، ثمّ إنّ ما قاله رسول الله ﷺ -معقِّباً على قول صحابته: نكفيك ذلك- ذو معنىً:

«إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، فإني أحب أن أكافئهم».[٥٦١]



---

٥٥٩ انظر: ابن هشام، ٣، ٤٩؛ ابن سعد، ٣، ٥٦٢.

٥٦٠ البخاري، الجنائز، ٦٧/ ٤٥٨.

٥٦١ البيهقي، شعب الإيمان، ٦، ٥١٨، ٧، ٤٣٦/ ٨٧٠٤.



وأثناء الرجوع من غزوة تبوك في رجب توفي النجاشي ملك الحبشة، فنعى رسول الله ﷺ للناس النجاشيَّ في اليوم الذي مات فيه، وقال:

«مات اليوم عبد لله صالح بغير أرضكم، فقوموا فصلوا عليه»،

قالوا: ومن هو يا رسول الله؟

قال عليه الصلاة والسلام: **«النجاشي»**

ثم قال عليه الصلاة والسلام : **«استغفروا لأخيكم»**

فخرج بهم إلى المصلى.[٥٦٢]

وقد عرف فيما بعد أن نعي النبي عليه الصلاة والسلام النجاشي كان في اليوم الذي توفي فيه.



«مكث النبي ﷺ في مكة بعد الفتح خمسة عشر يوماً، فأصاب القلقُ بعضَ الأنصار، وأصبحوا يفكرون هل سيرجع النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مجدداً أم لا، لأن الله تعالى كان قد أكرمه بفتح مكة المكرمة -المكان الذي وُلد وشبّ فيه- ثم أتى عليه الصلاة والسلام الصفا فعلاه، فرفع يديه فجعل يذكر الله ويدعوه، قال والأنصار تحته، يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام:

---

٥٦٢ مسلم، الجنائز، ٦٢ـ٦٨؛ أحمد، ٣، ٣١٩، ٤، ٧.



"يا معاشر الأنصار"

قالوا: لبيك يا رسول الله.

قال: **"قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟"**

قالوا: قد كان ذاك.

قال: **"كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم"**

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله، ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ:

"إن الله ورسوله يصدقانكم، ويعذرانكم" ».[٥٦٣]



لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام لينسَ أحداً من أصحابه الذين جاهدوا أموالهم وأنفسهم وبذلوها في سبيل الدعوة الإسلامية أبداً أو يفتر قلبه عنهم، فكان يذهب بين الحين والآخر إلى مقبرة الجنة الباقية وسائر مقابر الشهداء داعياً لهم، يقول الصحابة الكرام رضي الله عنهم:

«صعد نبينا الأكرم عليه الصلاة والسلام المنبر، فكان أول ما قاله بعد إتيانه بالشهادتين، استغفاره لشهداء أحد».[٥٦٤]

---

٥٦٣ مسلم، الجهاد، ٨٤، ٨٦/ ١٧٨٠؛ أحمد، ٢، ٥٣٨.

٥٦٤ ابن سعد، ٢، ٢٢٨.



ثم قال في معرض وفائه للأنصار:

«أيها الناس، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن وَلِيَ منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم».[٥٦٥]

«الأنصار كرشي، وعيبتي والناس سيكثرون، ويقلون فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».[٥٦٦]



لم ينس النبي ﷺ التضحيات التي قدمها المهاجرون أيضاً إطلاقاً، حيث كان يضع في الاعتبار من كان عوناً للإسلام في أيامه الأولى عند تكليفه صحابته بوظائف هامة، إلا أن لأبي بكر رضي الله عنه مكانة خاصة، يبين لنا رسول الله ﷺ امتنانه العظيم له بقوله:

«ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله به يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن صاحبكم خليل الله».[٥٦٧]



٥٦٥ البخاري، مناقب الأنصار، ١١/ ٣٨٠٠.

٥٦٦ البخاري، مناقب الأنصار، ١١/ ٣٨٠١.

٥٦٧ الترمذي، المناقب، ١٥/ ٣٦٦١.



لما تولى أبو بكر ﵁ الخلافة، نَادَى نادى: من كان له عند النبي ﷺ عِدَةٌ أَوْ دَيْنٌ، فليأتنا، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فأعطى منه ووفّى.[٥٦٨]

وقد كان علي ﵁ يقضي دين رسول الله ﷺ، فروي: أن رسول الله ﷺ لما توفي أمر عليٌّ ﵁ صائحاً يصيح: من كان له عند رسول الله عدة أو دين فليأتني، فكان يبعث كل عام عند العقبة يوم النحر من يصيح بذلك حتى توفي علي، ثم كان الحسن بن علي يفعل ذلك حتى توفي، ثم كان الحسين يفعل ذلك.[٥٦٩]



ومن المعروف عن عبد الله بن عمر ﵁ وفاؤه وتعلقه بالذكريات النبوية، فيسير بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام متأمّلاً الطريق التي كان يسلكها عليه الصلاة والسلام، ويتذكره بجلوسه تحت ظلال الأشجار التي كان النبي ﷺ قد استظلّ بظلها، ويسقي هذه الأشجار حتى لا تجف وتيبس، بغضّ النظر أين كانت في الجبل أو في السهل، كل ذلك صور تقدم لنا وفاءه الفريد لذكريات النبي عليه الصلاة والسلام، عن طريق محبته العظيمة لرسول الله ﷺ.



٥٦٨ انظر: البخاري، الكفالة، ٣/ ٢٢٩٧.

٥٦٩ ابن سعد، ٢، ٣١٨.



وما أروع ما يقصّه لنا فريد الدين عطّار عن حال الغافلين عن نعم الله التي تتوالى عليهم، ويقعون في أسر نفوسهم:

كان للسلطان كلب صيد اكتسب اهتماماً خاصاً من السلطان، كان الكلب ماهراً وبارعاً في الصيد، وذا قيمة إلى أبعد الحدود لدى السلطان، إذ كان يأخذه معه في كل صيد، وقد زيّن طوقه بالمجوهرات، وعلق في رجليه ويديه حلقات وأساور مصنوعة من الذهب والفضة، وأما ظهره فمغطّى بقطيفة من الديباج مطّرزة.

وذات يوم خرج السلطان إلى الصيد ومعه أفراد من القصر مصطحباً الكلب أيضاً، فكان السلطان مسروراً للغاية وهو يتقدم على ظهر حصانه وبيده شريط الطوق الحريري الخاصّ بالكلب، لكن وفجأة شد انتباهه ما أذهب فرحه، حيث كان كلبه الذي يحبه بشدة يلهو بأمور أخرى ناسياً سلطانه، ولما قام السلطان الحزين بشدّ خيط الحرير فإن الكلب قاومه، واستمر بمضغ قطعة العظم التي أمامه، وهنا صرخ السلطان وقد خالجته مشاعر الحيرة والغضب قائلاً: «كيف تنشغل في حضرتي بشيء آخر ناسياً إياي! كيف حدث هذا؟»

أسِف أشدّ الأسف، وقد تأثر أشد التأثر بنكران الكلب للجميل وجحوده وعدم وفائه له واكتراثه به، ولم يرض قلبه بالصفح عنه بأن يلتمس له عذراً ولو كان كلباً، فنسيان الكلب إياه مقابل كلّ ذاك الشرف والإحسان والإكرام فجأة ولأجل قطعة من العظم، كان



أمراً لا يمكن العفو عنه إطلاقاً على اعتبار أنه تصرف يجرح القلب ويخدش الوفاء.

فقال بغضب: «افسحوا المجال لقليل الأدب هذا»

أدرك الكلب معنى هذا الغضب إلا أن الوقت قد فات، وما من شيء يسعه القيام به، إلى درجة أن المحيطين بالسلطان عندما قالوا له: «مولاي، لنأخذ كل ما عليه من المجواهرات والذهب والفضة وغيرها ولنتركه» قال: «لا! دعوه يذهب كما هو»، وأضاف قائلاً:

«دعوه ليذهب كما هو! ليذهب كما هو وليبق غريباً وجائعاً وعطشاً في الصحارى المقْفِرة والحارّة والموحشة، وليعش بألم فقد الإكرام واللطف برؤيتها لها على الدوام!...»

يا لها من قصة معبرة تعكس حال عديمي الوفاء الذين هلكوا لتمسكهم بالمنافع البسيطة والدونية متجاهلين قيمة نعم الحق تعالى التي لا حصر لها.



كان الخطّاط كارا هيساري مكلفاً بوظيفة كتابة خطوط قبّة جامع السليمانية، فانكبّ قاراهيساري بجهدٍ لا مثيل له لإتمام النقوش على نحو يليق وعَظَمة الجامع، بحيث لما فرغ من التصحيح الأخير للخط الأخير ذهب نور عينه وانغلقت نافذة مشاهدة العالم لديه، فقال السلطان سليمان خان القانوني عندما اكتمل بناء الجامع وأضحى جاهزاً لأداء العبادة فيه:



«إن شرف افتتاح الجامع الشريف للعبادة من حظ المهندس المعماري سنان الذي بناه على هذا النحو العظيم والمذهل».

إلا أن المهندس سنان -الذي بدأ مهنته هذه بتعلّم التواضع أولاً، والذي كان لا يضاهى في مهارته وشهرته- فكّر حينها بتضحية الخطاط كاراهيساري وقابل كلام السلطان بكلِّ أدب قائلاً:

«مولاي! لقد ضحّى الخطّاط كاراهيساري بعينيه أثناء تزيينه هذا الجامع بنقوشه وعَمِيَ، فهلّا وهبتم هذا الشرف له!..».

فأصدر السلطان القانوني مرسوماً بجعل الخطّاط كاراهيساري يفتح الجامع للعبادة، فكان مشهدا عظيماً ومهيبا تكلله دموع الحاضرين.



كان أستاذي في اللغة الفارسية المرحوم يامان دادا -والذي كان مسيحي الأصل ثم اهتدى من خلال المثنوي- عندما يسئل: «لم تتطرقون في حديثكم لمولانا ومثنويته دائماً؟» يقول:

«يا بني، لقد أمسك مولانا بيدي، وكان وسيلة لهدايتي بإيصالي إلى باب النبي عليه الصلاة والسلام، وتَحَدُّثي بهذا القدر عمن خلّصني من النار قليلٌ!».

ما أجمله من وفاء وأدقّه من تفكير!..





كان والدنا وأستاذنا موسى أفندي قدس سره معروفاً بين محبيه بصاحب الوفاء، ونسرد بعض وقائع وفاء موسى أفندي الكثيرة، فمنها مثلا:

كان يتأثر أشدّ التأثر أمام الغرباء والعجزة المتروكين للوحدة بغير إخلاص في المجتمع، والمتروكين وجهاً لوجه مع معاناتهم وآلامهم ويقول: «في الحقيقة يلزمنا استضافة هؤلاء الغرباء المساكين في بيوتنا، لكن ذلك ليس في استطاعتنا، ولذا علينا إنشاء دار للسلام»، وبهذا فقد حقق مع بعض أقربائه هذه الفكرة الحسنة، فكانوا يهتمون باحتياجات الغرباء بزيارتهم لهم بين الحين والآخر وقضاء حوائجهم.

وقد كان فؤاده يرق حتى على القطط الموجودة في الحديقة حيث تأثرت بشخصيته العالية، وذلك بتسميته إياها بصفاتها فكان يعامل كل واحدة معاملة تختلف عن الأخرى بما يتناسب وشفقتها ورحمتها بصغارها.

وأما شخصياً فقد طلب البحث عن الممرّضة التي اعتنت بي، وأنا رضيع حتى بعد مضي خمس وخمسين سنة، حتى وجدوها، وأعزها وأكرمها.

ولا سيما وفاؤه لأستاذه حضرة سامي أفندي حيث كان أسطورياً، فكان أولَّ مكان يزوره في أيام العيد بيتُ سامي أفندي، وأول الأضاحي التي يذبحها من أجله، ويكون وسيلة لتلاوة الكثير



من ختم القرآن الكريم على روحه الشريفة خاصة، وعشرات آلاف الختمات الشريفة التي تتلى على روح أستاذه من قبل محبيه كل سنة، ترضي قلبَه الوفيّ وتسره أشد السرور.

وباختصار فإنه بتصرفاته الحسنة الشاملة لحياته كلها كان لنا معلم عشق ومحبة، كأبي بكر رضي الله عنه فيما يتعلق بـــ «ماهية وفاء المحبين وكيفيته».

أكرمنا الحق تعالى جميعاً بأحوالهم الحسنة تلك!

يا إلهي! اجعلنا في زمرة الصالحين وامنن على قلوبنا بأحوال أهل الوفاء الحسنة! واجعلنا الوارثين لجنات النعيم بتفضلك على أعمالنا بالإخلاص والوفاء، وأكرمنا بذرية تكون قرة عين لنا! واجعلنا مخلصين لك ولرسولك ولوالدينا وأقربائنا وإخواننا في الدين، ولأوطاننا وللأمة ولسائر الأمانات! وأحْيِنَا في رضاك الشريف في العالَمين!

آمين!..

٢٠ . العفّة والحياء

العفة هي حفظ النفس من الانجرار وراء الشهوات والرغبات الدونية، والعفة صفة تميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات، وغيابها يعني غياب كرامة الإنسان وشرفه وانحداره إلى مستوى البهائم.

إن العفّة والشرف شريان الوريد النابض في جميع الأخلاق، والخصل الحميدة كالشرف والكرامة والعزة مرتبطة بأن يكون المرء عفيفاً دائماً.

لقد أرانا الحق تعالى شخصين بالغي القمة في العفة ومَدَحَهم وأثنى عليهم كنموذج مثاليٍّ للمؤمنين، أحدهما يوسف عليه السلام الذي تُقَصُّ حكايته على أنها أحسن القصص في سورة يوسف، والنموذج الآخر مريم عليها السلام التي تروى قصّتها بالثناء والمديح في مختلف المواضع من القرآن الكريم، تقول الآية الكريمة:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٥٧٠]

فسينال الرجال والنساء المحافظون على عفتهم مغفرة الله تعالى الواسعة وأجراً عظيماً. [٥٧١]

ويمدح الحق تعالى عباده المفلحين بأنهم ذوي عفة فيقول:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [٥٧٢]

---

٥٧٠ الأنبياء، ٩١.

٥٧١ انظر: الأحزاب، ٣٥.

٥٧٢ المؤمنون، ٥ ـ ٧.



ثمّ إنّ النبي ﷺ كان يعلّم الناس أسس الأخلاق، كالصِّدق والعفة وحماية الأقرباء والاعتناء بهم، إلى جانب تعليمهم أسس الإيمان والعبادة، وقد قال هرقل الروم لأبي سفيان: ماذا يأمركم رسول الله؟ فقال: يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.[٥٧٣]

فكان النبي ﷺ يولي أهمية بالغة للعفة، ويبايع النساء على المحافظة على العفة خاصة.[٥٧٤] فكان يقول مخاطباً المؤمنين كلهم:

«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة».[٥٧٥]

ومن ناحية أخرى فإن سيطرة الحياء والعفة والنزاهة واللطف على العلاقات بين الرجال والنساء مسألة غاية في الأهمية، لأن الإسلام حرم كل القبائح وانعدام الحياء والوقاحة.

فالعلاقة غير المشروعة بين الرجل والمرأة تبدأ من النظرة، ولذا فقد أُمِر المسلمين والمسلمات بقصر النظر، وغضّ البصر:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ.وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

٥٧٣ البخاري، بدء الوحي، ٦، الصلاة ١؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

٥٧٤ انظر: الممتحنة، ١٢.

٥٧٥ البخاري، الرقاق، ٢٣/ ٦٤٧٤.

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥٧٦)

ولا تمشي المرأة المسلمة بحيث تلفت انتباه الآخرين نحوها، ولا تتطيب بطيب عبق الرائحة عند خروجها حتى لا تلفت الرجال إليها.

وهذه الآية الكريمة إلى جانب توجه الخطاب إلى أمهات المؤمنين تتناول ما يلزم على سائر النساء التنبه له:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٥٧٧)

---

٥٧٦ النور، ٣٠ ـ ٣١.

٥٧٧ الأحزاب، ٣٢ ـ ٣٣.



ويقول في آية كريمة أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٥٧٨]

على الرجال والنساء الأجانب إن أرادوا قضاء أمر ما بينهم أو قول شيء لبعضهم أن يحققوا ذلك من وراء باب أو حجاب قدر الإمكان.[٥٧٩]

وعلى الناس ألا يدخلوا بيوت بعضهم بغير إذن، بل حتى على أهل الدار الواحدة أن يطلبوا الإذن بالدخول على غرف غيرهم وإشعارهم بوجودهم، لأن الحق تعالى يعلمنا أن العفة خيرٌ على كل حال.[٥٨٠]

ويولي الحق تعالى أهمية بالغة لتمتع عباده بالعفة، ويشير إلى ذلك في كثير من الآيات الكريمة.[٥٨١] ولذا فمن الإثم العظيم الافتراء على أصحاب العفة وقد أوقع بالمفترين «حد القذف» جزاء على إساءتهم لسمعة العفيفات الطاهرات، يقول الحق تعالى:

---

٥٧٨ الأحزاب، ٥٩.

٥٧٩ انظر: الأحزاب، ٥٣.

٥٨٠ انظر: النور، ٢٧، ٥٨ ـ ٦٠.

٥٨١ انظر: النساء، ٢٥، المائدة، ٥، الأنبياء، ٩١، النور، ٤، ٢٣، التحريم، ١٢.



﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٥٨٢)

ولذا فقد قال سيدنا ﷺ: «...**ولا تقذفوا محصنة!..**».(٥٨٣)

ومما لا شك فيه أن العفة هي أهم صفات المرأة، وما تم إيضاحه آنفا يوضح عِظَمَ إثم الافتراء على المرأة العفيفة، وليس هذا فحسب بل إن من الإثم العظيم نقل كل ما يسمعه المرء من الشائعات والتهم من غير تحرٍّ فيما يتعلق بعفة الناس وشرفهم في أية حالة من حالات الشهادة.

وليست العفة بالابتعاد عن الزنا و مواطن الشبهات فحسب، بل هي البعد عن كل موقف يستحيا منه ولو كان طلب حاجة من الناس،وقد قال الحق تعالى يحض عباده على مساعدة المتعففين عن السؤال والذين يلجمهم حياؤهم عن إظهار فاقتهم وحاجتهم:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٥٨٤)

---

٥٨٢ النور، ٢٣.

٥٨٣ الترمذي، الاستئذان، ٣٣/ ٢٧٣٣.

٥٨٤ البقرة، ٢٧٣.



وقال عليه الصلاة والسلام:

«ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقرءوا إن شئتم: ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾[٥٨٥]».[٥٨٦]

«أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال».[٥٨٧]

«... من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله».[٥٨٨]

وأما الحياء الذي هو شعبة من الإيمان، فاجتناب الأمور السيئة والقبيحة، والاعتدال في التصرفات والسلوك، وعدم تجاوز الحد في أي عمل كان، وصفة الحياء أصلُ كل خير، وهي تضاد كل ما هو سيء وقبيح.

ويقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام في الحياء الصفة التي يحبها الله تعالى:

«الحياء من الإيمان».[٥٨٩]

---

٥٨٥ البقرة، ٢٧٣.

٥٨٦ البخاري، ٦، ٣٢/ ٤٥٣٩.

٥٨٧ مسلم، الجنات، ٦٣/ ٢٨٦٥.

٥٨٨ البخاري، الزكاة، ١٨/ ١٤٢٧.

٥٨٩ البخاري، الإيمان، ٣/ ٢٤/ ٦١١٨.

«الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».[٥٩٠]

«الحياء لا يأتي إلا بخير».[٥٩١]

«الحياء كله خير».[٥٩٢]

«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».[٥٩٣]

«اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى».[٥٩٤]

ووحدها فضيلة الحياء هي التي تحول دون وقوع المرء في قبائح الأعمال التي تنافي الأخلاق الرفيعة، وتأثير الأدب والحياء في صيانة المؤمن من القبائح أشد من مئات قوات القانون والشرطة، وقول «ألا تخجل؟» كافٍ للعفيف وذو الحياء ليحجزه عن قبائح الأعمال.

لقد كان سيدنا عثمان ﷺ شخصا شديد الحياء حتى اشتهر به، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأنه من شدة حيائه كانت الملائكة تستحي منه.[٥٩٥]

---

٥٩٠ السيوطي، ١، ٥٣.

٥٩١ البخاري، الأدب، ٧٧/ ٦١١٧.

٥٩٢ مسلم، الإيمان، ٦٠- ٦١.

٥٩٣ مسلم، البر، ٧٨/ ٢٥٩٤.

٥٩٤ مسلم، الذكر، ٧٢/ ٢٧٢١.

٥٩٥ انظر: أحمد، ١، ٧١، ٦، ١٥٥.



وبالمقابل يحذّر الحقّ تعالى فاقد الحياء ومن يريد شيوع الفاحشة وخلع ستر الحياء بين المسلمين فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ [٥٩٦]

فمن يريد انتشار قلة الحياء في المجتمع يكون قد تسبب بأعظم إساءة لوطنه وملته، وهؤلاء يصابون بأكبر نصيب من الضرر، لأن انعدام الحياء سببٌ للهلاك على ما أخبر به النبي ﷺ:

«إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً، فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً، فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيماً ملعناً، فإذا لم تلقه إلا رجيماً ملعناً نزعت منه ربقة الإسلام». [٥٩٧]

صور الفضيلة

يحدثنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول:

«كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه». [٥٩٨]

---

٥٩٦ النور، ١٩.

٥٩٧ ابن ماجة، الفتن، ٢٧.

٥٩٨ البخاري، المناقب، ٢٣/ ٦١٠٢؛ أبو داوود، الخراج، ٣٤ـ ٣٦.

لم يتكلم النبي عليه الصلاة والسلام قطّ بصوت عال، وكان يمرّ أمام الناس بلِيْنٍ متبسّماً، وحين يصل إلى مسامعه قولٌ غليظ لا يُكَلِّم الناس في وجوههم، وبما أن تعابير وجهه كانت تعكس مشاعره فقد كان مَن حوله شديدي الحيطة في الحديث معه والتصرف أمامه، ومن حيائه وأدبه ولطفه أنه لم يكن يضحك قهقهة، وإنما كان جُلُّ ضحكه التبسم، يقول في أحاديثه الشريفة:

«**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار**».(٥٩٩)



لم يكن رسول الله ﷺ يحدق بنظريه في وجه أحدهم وينظر بإمعان أثناء حديثه معه لصفة الحياء العلية التي يمتلكها.(٦٠٠)



جاء جدّ بهز بن حكيم رسول الله ﷺ، وسأله:

«يا نبي الله، عوراتنا، ما نأتي منها وما نذر؟

قال: "**احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك**"

قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟

قال: "**إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها**"

---

٥٩٩ الترمذي، الحياء، ٢٠٠٩.

٦٠٠ المناوي، ٥، ٢٢٤.



قال: قلت: إذا كان أحدنا خالياً؟

قال: "**الله أحق أن يستحيا منه من الناس**"».[٦٠١]

ويقول في إحدى أحاديثه الشريفة:

«**إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم**».[٦٠٢]



ما من شك أنّ رسول الله ﷺ كان الشخص الأكثر حياء بين الناس، حيث كان متميزاً بهذه الخصلة العلية حتى في عصر كانت الفواحش فيه أمرا يجترئ عليه عموم الناس، قبل نبوته عليه الصلاة والسلام، وأحد أروع أمثلة هذا ما يلي:

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يحمل مع عمه سيدنا العباس رضي الله عنه حجارة الكعبة أثناء إعادة إنشائها، فقال العباس رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام كيلا تؤثّر الحجارة في منكبيه العاريتين:

«اجعل إزارك على رقبتك، فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: "**أرني إزاري**"، فشده عليه».[٦٠٣]



---

٦٠١ أبو داوود، الحمّام، ٢/ ٤٠١٧.

٦٠٢ الترمذي، الأدب، ٤٢/ ٢٨٠٠.

٦٠٣ البخاري، الحج، ٤٢/ ١٥٨٢.



رأى فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام رجلاً يغتسل بالبراز (أي العراء) بلا إزار فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«**إنّ الله ﷻ حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**».[٦٠٤]



يحدثنا مسور بن مخرمة رضي الله عنه فيقول:

«أقبلتُ بحجر أحمله وعليَّ إزار خفيف، قال: فانحل إزاري، ومعي الحجر لم أستطع أن أضعه حتى بلغت به إلى موضعه فقال رسول الله ﷺ: "**ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة**"».[٦٠٥]



وينقل لنا ابن مسعود رضي الله عنه هذا الحديث:

«قال النبي عليه الصلاة والسلام ذات يوم: "**استحيوا من الله حق الحياء**"، قلنا: يا نبي الله إنا لنستحيي الحمد الله، قال:

"**ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**"».[٦٠٦]

---

٦٠٤ أبو داوود، الحمّام، ١/ ٤٠١٢.

٦٠٥ مسلم، الحيض، ٧٨/ ٣٤١، أبو داوود، الحمّام، ٢/ ٤٠١٦.

٦٠٦ الترمذي، القيامة، ٢٤/ ٢٤٥٨.



وقد قال حضرة جنيد البغدادي:

«رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولَّد من بينهما حالة تُسَمَّى الحياء».



كانت عائلة الفرعون هي التي تدير شؤون دولة مصر، وهؤلاء كانوا طغاة وجبابرة، فإن عبرت حدودَ المملكة امرأة غريبة وجميلة سرعان ما يُعْلَم الفرعون بذلك، فيقتل زوجها إن كانت متزوجة، وإلا تطلب من أخيها إن وجد، وقد عبر سيدنا إبراهيم عليه السلام الحدود ومعه زوجته السيدة سارة فبلغ الأمر الفرعون، وتم إعلامه بأن امرأة فاتنة دخلت الأراضي المصرية، فقادوا السيدة سارة إلى القصر، وثمة حديث شريف في هذا الشأن يقول-لما دخلت سارة القصر-:

«قامتْ تتوضّأ وتصلّي، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي، إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر».[٦٠٧]

«فَلَمَّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فَأُخِذَ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها

٦٠٧ انظر: البخاري، البيوع، ١٠٠/ ٢٢١٧.



هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر» . (٦٠٨)

ما أحسنه من مثال على العفة وحفظ الحياء والأدب!...

تقول الآية الكريمة: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...**﴾ (٦٠٩)



روي أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا فشدت اليهود على المسلم، فقتلوه فاصطرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسملون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وكان من حديثهم: أن الرسول جمعهم في سوقهم ثم قال:«يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم» فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، ثم أعلن

---

٦٠٨ انظر: البخاري، ٤، ١٤٠ / ٣٣٥٨؛ مسلم، الفضائل، ١٥٤.

٦٠٩ البقرة، ٤٥.



النبي عليه الصلاة والسلام الحرب بينه وبينهم.[٦١٠]. فإلى هذا الحد يرى المجتمع المسلم أهمية عفة المرأة المسلمة والحفاظ عليها.



عن أبي شهم رضي الله عنه قال:

«مرت بي جارية في بعض طرق المدينة إذ هويت إلى كشحها، فلما كان الغد قال: فأتى الناس رسول الله ﷺ يبايعونه فأتيته فبسطت يدي لأبايعه، فقبض يده وقال: **"أجنك صاحب الجبيذة؟**، يعني: **أما إنك صاحب الجبيذة، أمس** ". قال: قلت: يا رسول الله، بايعني فوالله لا أعود أبدا. قال: **"فنعم إذا"**».[٦١١]



وروي أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ:

«دعه فإن الحياء من الإيمان».[٦١٢]



كانت أم خلاد إحدى الصحابيات المدنيات، وقد أرسلت ابنها خلاداً إلى غزوة بني قريظة، فقتل، فلما علم بعض المسلمين بعودة جنود المسلمين وشهادة خلاد أتوا أمه، فقيل لها: يا أم خلاد قُتل

٦١٠ انظر: ابن هشام، ٢، ٤٢٦-٤٢٩؛ الواقدي، ١، ١٧٦-١٨٠؛ ابن سعد، ٢، ٢٨-٣٠.

٦١١ أحمد، ٥، ٢٩٤/ ٢٢٥٦٤/ ٢٢٥١٢.

٦١٢ البخاري، الإيمان، ١٦، الأدب، ٧٧؛ مسلم، الإيمان، ٥٧ - ٥٩.



خلاد، قال: فجاءت متنقبة، فقيل لها: قُتل خلاد وأنت متنقبة قالت: إن كنتُ رزئت خلاداً فلا أُرزأ حيائي، فأُخبر النبي ﷺ بذلك،

فقال:«**أما إن له أجر شهيدين**»

قال: قيل ولم ذلك يا رسول الله؟

فقال: «**لأن أهل الكتاب قتلوه**».(٦١٣)



دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها فقالت:

«ممن أنتن؟ قلن: من أهل الشام قالت: لعلكن من الكورة التي تدخل نساؤها الحمامات، قلن: نعم، قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"**ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى**"».(٦١٤)

فالمرأة التي تفعل هذا تهتك ستر الحياء والأدب، لأنّ الله تعالى أمرها بحفظ نفسها بلباس التقوى، في حين أنها بتصرفها هذا في انتهاك لأمر الله تعالى إياها بالتستر والتقوى أيضاً.



٦١٣ ابن سعد، ٣، ٥٣١؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١٤٠.

٦١٤ أبو داوود، الحمّام، ١/ ٤٠١٠؛ الترمذي، الأدب، ٤٣/ ٢٨٠٤.



توفيت النوار زوجة الفرزدق -أحد كبار شعراء الهجاء الثلاثة في عصر الأمويين- فكان الحسن البصري بين الحاضرين في مراسم جنازتها، فقال الحسن البصري مشيراً إلى القبر، متوجهاً إلى الفرزدق الذي افترى على الناس بشعره وجرح عفتهم: ما أعددت لهذا المضجع يا أبا فراس؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فقال له الحسن: نِعْمَ ما أعددت، فهذا العمود فأين الطنب، (أي لِكلمة الشهادة شروط، ولذا فاحذر قذف العفيفات!).

قيل لوهب بن منبه:

«أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك».[٦١٥]

والخير والحسنات وجميع الأعمال الصالحة هي أسنان مفتاح التوحيد.



كانت عفة الناس وشرفهم في الدولة العثمانية مضمونة، فمثلاً أصدر السلطان فاتح في فتح البوسنة أمراً مقتضاه:

«حذار من تواجد جنودي في أماكن النبع عند مجيء فتيات الصرب لأخذ الماء..».

٦١٥ البخاري، الجنائز، ١.



والسلطان فاتح بأمره هذا صان عفة وشرف جنوده وأتباعه من النصارى ممن هم تحت أمانه.



بدأت رذيلة ولهو خليع يدعى بالرقص تظهر في فرنسا في عهد السلطان سليمان القانوني، فما إن بلغ الأمر سليمان القانوني حتى أرسل من فوره هذه الأوامر لملك فرنسا:

«...بلغني أنه ظهر لديكم لهو دُوْنِيٌّ يتصرف به الناس على نحو يغاير الأخلاق والحياء، يتعانق فيه النساء والرجال أمام العامّة تحت اسم الرقص في بلدكم! وثمّة احتمال لوصول هذه الرذيلة إلى مملكتي باعتبار الحدود التي تصلنا ببلدكم، ولذا فليتم وضع حد لهذه الرذيلة مجرد أن تصلكم رسالتي المختومة! وإلا فإني قادر على المجيء وإزالة تلك الرذيلة بنفسي».

وقد سجل المؤرخ حمّاد حظر هذا النوع من الرقص في فرنسا عقب هذه الرسالة طيلة مائة عام.



ومن المعروف قديما حجارة الصدقة التي كانت توضع في بعض أحياء اسطنبول القديمة، كيلا يقع ذوو الحاجة في الحرج -من الاضطرار إلى سؤال الناس- وعدم جرح قلوبهم، من العاجزين عن طلب شيء من الغير لعفتهم وحيائهم.



وقد كانت حجارة الصدقة هذه يوماً شاهداً على أعظم سباق في التسارع للخدمة والخيرات، حيث كان الميسورون المنفقون على نحو «لا تدري فيه شماله ما تنفق يمينه» يتركون صدقاتهم في الحفرة التي في أعلى هذا الحجر في جنح الظلام.

ومن ثم يأخذ فقراء المحلة الفضلاء والعفيفون كفايتهم من النقود التي في الحفرة غير ملتفتين إلى الفاضل عن حاجتهم، وبالأخص من كان محتاجاً لكنه لا يسأل الناس إلحافاً يقصد الحجر في ساعات متأخرة من الليل ويأخذ ما يقضي له حاجته، وقد كتب سائح فرنسي يتحدث عن اسطنبول في القرن السابع عشر أنه راقب حجراً فيه نقود طيلة أسبوع لكنه لم يجد أحداً يقصده ليأخذ صدقة منه.



وباختصار، على المؤمن أن يكون عفيفاً وحَيِيًّاً، ويشغل قلبه بالمشاعر الحسنة ويملأ ذهنه بالأفكار السامية، للتمكن من صيانة العفة والشرف والسيطرة على النفس، باعتبار أن الرغبات والأحاسيس النفسية موجودة بكل قوتها في نفس الإنسان، بالإضافة إلى أن من الأهمية بمكان في هذا الشأن اجتناب رفقاء السوء، يقول النبي ﷺ:

«عفّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك منه محقاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد عليّ الحوض».[٦١٦]

٦١٦ الحاكم، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٨.



إن الحياء الذي هو زينة البشرية حِصْنٌ معنوي يحمي صاحبه من كل سوء، ويُسْهِمُ في إيفاء الإنسان بجميع وظائفه تجاه ربه والعباد، يقول رسول الله ﷺ مبرزاً هذا التأثير والأهمية للحياء:

«إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت».[617]

٢١ . الفطنة والفراسة

تعد الفطنة -والتي تعني امتلاك قوة في الذكاء المتفوق- إحدى الأوصاف الخمس الفارقة المختصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وليست الفطنة مجرد عقل ومنطق جاف، وإنما منزلة أعلى من الدهاء، فالعقل المرتبط بالقلب عبارة عن الفراسة والبصيرة، وعلى كل نبي أن يمتلك مثل هذا الذكاء المتفوق كي يكون قادراً على أداء مهمة التبليغ من غير نقص وعلى النحو الكامل، وإلا فسيعجزون عن الإتيان بالأدلة القوية لمن أُرْسِلوا إليهم، وبالتالي لن يتمكنوا من إقناعهم وإلزامهم.

فالأنبياء في أعلى المستويات بين الناس من كل المناحي ولا سيما في العقل والذكاء والفراسة، فهم يمتلكون صفاتٍ متميزةً كالذاكرة القوية والإدراكِ العالي وَحِدَّة المنطق والقدرة على

٦١٧ البخاري، الأنبياء، ٥٤، الأدب، ٧٨؛ أحمد، مسند، جـ ٤، ١٢١/ ١٧١٣٩.



الإقناع، وفي مقدورهم حلّ أغمض المسائل وأكثرها إشكالاً، وبما أنهم يتكلّمون بالسهل الممتنع [٦١٨] لا يصعب على المخاطبين المختلفة مستوياتهم في الإدراك فهمهم.

إن الفراسة التي هي جزء من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تعني التصرف حسب السوية العقلية للمخاطب من خلال الدقة في الذكاء، إذ إنه يمكن لسلوكٍ ما أن يسر أحدهم في حين يزعج غيره، ولذا فإنّه ينبغي تربية الإنسان على التمكن من تحديد نفسيته والقدرة على القيام بحساب المراحل المتقدمة للحوادث.

ومن المثير للاهتمام هذه الحادثة التي توضح معاملة رسول الله ﷺ لأولئك البعيدين عن الفراسة والبصيرة الذين يفتون الناس بغير علم، ومن ثم يلحقون الضرر بالآخرين بقصر نظرهم وقلة علمهم وضعف محاكمتهم للأمور:

يقول جابر رضي الله عنه:

«خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر فشده في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل، فمات، فلما قدمنا على النبي أُخبر بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام:

---

٦١٨ السهل الممتنع يعني التعبيرات التي يصعب قولها وتقليدها على الرغم من أنها تبدو سهلةً في الظاهر وبسيطة وطبيعية.

"قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العيّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو «يعصب» على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده"».[٦١٩]

وباختصار فعلى المسلمين المتعقبين أثر النبي عليه الصلاة والسلام أن يكونوا ذوي عقل ومعرفة وذكاء ويقظة وفراسة.

إن الفراسة نور يَمُنُّ الله تعالى به على قلوب مَنْ يحب مِنْ عباده، أي يجب أن تتجلى الأحوال كالذكاء وحدّته والحدس والمعرفة والفهم في القلب على أنها قابلية إدراك معنوي، وتقييم وتشخيص السطح الداخلي للحوادث وما يخطر في الأذهان والقلوب بفضل الأحاسيس المخلصة التي تنبعث من القلب والإلهامات الموهوبة، وما من شك في أنّ هذه الفراسة لا يحصل عليها إلا المتخلّص من غرور نفسه، الناظر إلى الأمور بنور الله تعالى.

وقول سيدنا النبي ﷺ:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».[٦٢٠]

يشير إلى أنّ فراسة كل مؤمن تتناسب وإيمانه، وفي هذا الصّدد فإنّ فراسة أولياء الله تعالى من المؤمنين الكاملين أقوى بالقياس إلى سائر المؤمنين.

---

٦١٩ أبو داوود، الطهارة، ١٢٥/ ٣٣٦/ ٣٣٧؛ ابن ماجة، الطهارة، ٩٣.

٦٢٠ الترمذي، التفسير، ١٥/ ٣١٢٧.



إن تحفة الفراسة تبدأ بالجهد المبذول في محاولة لحلِّ لغز الموت، لأن التمكن من معرفة الأسرار والحقائق في الدنيا الفانية لا يتحقق إلا «بالموت قبل الموت»، يقول حضرة مولانا:

«العقلاء هم الباكون أولاً، والغارقون في التبسم آخراً، في حين أن الحمقى تخنقهم القهقهات أولاً ومن ثمّ يبكون ضاربين رؤوسهم بالحجارة لشدة الندم، يا أيها الإنسان! كن ذا فراسة ترى ما سيؤول إليه الأمر وهو في أوله كيلا تكوى بنار الندامة يوم الجزاء!..».

وشرط الفراسة أكل اللقمة الحلال وكشف الحياة القلبية والتعمّق في التفكر، وأول خطوة في التفكّر والتخصص نظر المرء إلى ما حوله بعين الاعتبار والاتعاظ، لقد دعا الله تعالى عباده في القرآن الكريم إلى النظر ببصيرة لإدراك مثل هذه العبر، وقال في آيات مختلفة:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٦٢١]

ومن ناحية أخرى فقد خوطب النّاس في القرآن أيضاً مراراً وتكراراً بعد تعداد نِعم الله تعالى عليهم بقوله يا أولي الأبصار،[٦٢٢] وطولبوا بالنظر إلى المخلوقات بعين العبرة، وثمّة الكثير من الآيات الكريمة في هذا الصدد تفيد لزوم نظر بني آدم إلى الكائنات

---

٦٢١ الغاشية، ١٧ـ ٢٠ ؛ وانظر أيضاً: ق، ٦، يونس، ١٠١، النور، ٤٣، الحج، ٦٣، الرعد، ٣، الأنبياء، ٣١، النحل، ٦٥، الروم، ٥٠، محمد، ١٠...

٦٢٢ انظر: آل عمران، ١٣، النور، ٤٤، الحشر، ٢...

بدراية وبصيرة تدرك بهما الحكمة، بعيداً عن مشاهدة العالم بنظرة فارغة وخالية عن الوعي من خلال أمرها بـ «**أفلا تتفكرون**» و«**أفلا يتدبرون**» و «**أفلا يعقلون**»، تقول الآيات الكريمة التي توضح أهمية البصيرة:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٦٢٣]

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[٦٢٤]

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾[٦٢٥]

صور الفضيلة

سئل رسول الله ﷺ يوماً:

«يا رسول الله! أعبدت شيئاً غير الله؟ «فأجاب: «لا» فسئل: «أشربت الخمر»، فقال: «لا! كنت أعرف أن ما يفعلونه هو الكفر حتى وأنا أجهل معنى الكتاب والإيمان».(بمعنى الحديث).[٦٢٦]

٦٢٣ آل عمران، ١٣.

٦٢٤ ص، ٤٥ ـ ٤٧.

٦٢٥ يوسف، ١٠٨

٦٢٦ دياربكري، ١، ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

لقد خُلق رسول الله ﷺ في ذروة الفطرة السليمة والفطانة والفراسة والبصيرة.



جمعت القبائل من قريش الحجارة لبناء الكعبة قبل نبوة رسول الله ﷺ بخمس سنين، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا أو تحالفوا، وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة وكان عامئذ أسنّ قريش كلها قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم -فيما تختلفون فيه- أولَّ من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أولَّ داخل دخل رسولُ الله ﷺ.[٦٢٧] فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: «**هلموا إلي ثوباً**» فأُتيَ به، وأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: «**لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً**»، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه، وكانت قريش

---

٦٢٧ عبد الرزاق، ٥، ٣١٩؛ ابن كثير، البداية، ٢، ٣٠٤.



تسمي رسول الله ﷺ الأمين، وبهذا حال النبي ﷺ دون حرب كان من المحتمل وقوعها بين القبائل وذلك من خلال فراسته وفطانته.[٦٢٨]

إن الدراية التي كان يظهرها النبي ﷺ في الغزوات التي خاضها في سبيل الإسلام، والتي قدمها في عهود الصلح والمهادنة وخاصة في الحديبية، والطريقة الرائعة التي اتبعها في فتح مكة وحنين والطائف، كلها من العلو والسمو بحيث يكاد يتعذر بشر بلوغه.

لقد تم قبول براءة يوسف عليه السلام من التهمة الموجهة إليه وبُعث إليه رسول لإخراجه من السجن، إلا أن يوسف عليه السلام رفض الخروج ما لم يتحرَّ الملك عن الحقيقة جيداً، وتتضح الحقيقة على نحو جلي، وما لم يعترف الجميع بدخوله السحن ظلماً وجوراً، وهو بهذا حال دون إلصاق التهمة به، من خلال استخدامه لعقله وإظهاره سلوكاً يتضمن صبراً ووقاراً.

وحين تخلص كلياً من التهمة -بتمكنه من إثبات الكذب والافتراء الذي تعرض له-، عندها فقط رضخ لطلب الخروج من السجن، ولذا على كل مسلم التصرف بدقة وصرامة بالغتين فيما يتعلق بإزالة التهمة عن نفسه واجتناب مواقع التهمة من خلال اتّعاظه بفراسة يوسف عليه السلام.



---

٦٢٨ ابن هشام، ١، ٢٠٩ ـ ٢١٤؛ عبد الرزاق، ٥، ٣١٩.

كان سليمان عليه السلام ذا فهم عال وذكاء وقاد منذ صغره، يذكر لنا رسول الله ﷺ حادثة في هذا الشأن فيقول:

«كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى».[٦٢٩]



وثمة رواية ينقلها كتاب باسم العرائس والمجالس:

«أصدقُ النساء فراسةً امرأتان كلتاهما تفرستا في موسى فأصابتا، إحداهما امرأة فرعون حين قالت: قرة عين لي ولك لا تقتلوه، والأخرى بنت شعيب حيث قالت: يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوي الأمين، وإنما قالت القوي الأمين، لأنه أزال الحجر العظيم الذي لا يرفعه إلا أربعون رجلاً، فقال لها أبوها: هبكِ أنك عرفت قوتَه فما أعلمكِ بأمانته، فأخبرته بما أمرها به من استدبارها إياه في الطريق».[٦٣٠]



---

٦٢٩ البخاري، الأنبياء، ٤٠/ ٦٧٦٩.

٦٣٠ الثعلبي، عرائس المجالس، ٢٣٢.



على كل مسلم أن يأخذ بنصيبٍ من صفة الفطنة وبعد النظر والفراسة التي تمتع بها الأنبياء، واستخدامه نعمة العقل على النحو الأمثل، كما عليه معرفة مَن يلزمه الكلام معه ولم ومتى وكيف والطريقة التي عليه التصرف بمقتضاها، فعلى سبيل المثال: الأسلوب الدقيق الذي اتبعه جعفر الطيار رضي الله عنه في حديثه مع النجاشي ملك الحبشة بشأن التعريف بالإسلام كان غاية في العبرة من ناحية إظهاره فراسة المسلم، إذ إن النجاشي الذي كان نصرانياً لما سأل جعفر الطيار رضي الله عنه: هل معك مما جاء به الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ جعفر من سورة مريم، فبكى النجاشي، ثم قال: إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.[٦٣١]



يقول أنس رضي الله عنه فيما يرويه هو:

«دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد رأيت امرأة في الطريق فتأملت محاسنها، فقال لي عثمان: يدخل عليّ أحدكم وأثر الزنى ظاهر على عينيه؟! فقلت: أوحيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة».[٦٣٢]



٦٣١ ابن هشام، ١، ٣٥٨ـ٣٦٠.

٦٣٢ القشيري، الرسالة، ص: ٢٣٨.



لـمَّا علم ابن عمر ﵁ بخروج الحسين ﵁ أدركه على بعد ثلاث مراحل من المدينة، فقال للحسين أين وِجْهَتك؟ فقال: أريد العراق، ثم أخرج إليه كتب القوم، ثم قال: هذه بيعتهم وكتبهم، فناشده اللهَ أن يرجع، فأبى الحسين، ثم قال ابن عمر: أحدِّثك بحديث ما حدَّثت به أحداً قبلك: إن جبريل أتى النبي يخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنَّكم بِضْعَةٌ منه، فوَالله لا يليها أحد من أهل بيته، ما صرفها الله عنكم إلا لما هو خيرٌ لكم، فارجع، أنت تعرف غدر أهل العراق وما كان يلقى أبوك منهم، فأبى، فاعتنقه وقال: استودعتك من قتيل.[٦٣٣]

وكان سيدنا الحسن ﵁ قد كتب رسالة إلى معاوية تنازل فيها عن الخلافة درءاً للفتنة بين المسلمين وحقناً منه لدماءهم.

إن هذه الحوادث -التي تعكس فراسة سيدنا عبد الله بن عمر- تقدم لنا المعاناة التي تكبّدها آل البيت مقابل عشق التضحية والمسؤولية والخدمة.



لقد بيّن حضرة عبد القادر الجيلاني حالاً تعرّض فيقول:

«ذات مرة ظهر نور أمام عيني وغطّى الأفق كله، وحين رنوت متسائلاً ما هذا، جاءني صوت من النور يقول:

---

٦٣٣ ابن كثير، البداية، ٨، ١٥٢؛ الذهبي، السير، ٣، ٢٩٦.



«يا عبد القادر، أنا ربك، إنني من الرضا على أعمالك الصالحة التي قمت بها حتى اليوم بحيث أحللت لك اعتباراً من اليوم فصاعداً كل ما كان محرماً»

لكنني أدركت عقب توقف الصوت أنه الشيطان عليه اللعنة، وقلت:

«انصرف عني أيها اللعين! إن النور الذي أريتني إياه ظلام بالنسبة إلي»

فابتعد الشيطان عقب هذا قائلاً:

«لقد نجوت مني مجدداً بالحكمة والفراسة التي منَّ الله تعالى بها عليك! في حين أنني كنت قد أغويت المئات من الناس بهذه الطريقة».

ففتحت يدي متوجهاً إلى الحضرة العلية وشكرت الحق تعالى وأنا أعرف أنه فضل ربي عليَّ، فسألني أحد الذين في الجماعة ممن سمعوا هذا:

«يا عبد القادر، كيف أمكنك معرفة أنه الشيطان؟

فأجاب عبد القادر الجيلاني قدس سره بقوله:

«من مقولته أحللت لك ما كان محرماً!..».

هذه هي الفراسة التي يحتاجها كل مسلم في حياته.





كان الرعية –أثناء مجادلة الأمراء في السلطنة العثمانية– في حالٍ من المتانة والنضج والتحكم بحسِّ التاريخ بحيث لا يقاس بيومنا هذا، إذ اختاروا انتظار نتيجة الخلاف الجاري بينهم من غير انحيازٍ لأحد الأمراء دون غيره، ولذا فقد قال الرعيّة لموسى شلبي البالغ ضواحِي مدينة بورصة العاصمة آنذاك بإرسالهم ممثليهم:

«نحن لسنا بمنحازين لأيٍّ منكم، ولا معارضين! أنتم الأخوة أنهوا المسألة التي بينكم بأنفسكم! فإن أشركتمونا في هذا الخصام، تسببتم بجراح يتعذر التئامها مجدداً، فإخلاص جنود كل أمير لأميرهم دينٌ عليهم، لكن ثمة التماس منكم ألا وهو تفاديكم أن يفرّق هذا الخلاف أفراد الأمة...».

ثم إنّ إحدى أشدّ القوى تأثيراً في الحيلولة دون تفكّك الدولة العثمانية، هي هذه البصيرة والدراية والشخصية المتمكنة لهذا المجتمع. وإلا فيتعلق كل واحد بقائد من غير بصيرة منه على نحوٍ تعصبيٍ كالدعم الحزبي، ويدخل الدم والحقد بين أفراد الأمة.



لقد فرض تيمور الذي غلب يلدرم بيازيد في أنقرة خراجاً للعثمانية يدوم بضع سنين فقط، ومن ثم استمر الإلهانيون في أخذ هذا الخراج زاعمين أنهم في مكان تيمور، وهذا الخراج أُعطي حتى مراد خان الثاني، فقال سادة الدولة العثمانية التي كانت قد استعادت شأفتها واسترجعت قوتها تماماً في عهد مراد خان الثاني للسلطان:



«يا مولاي! لم لا نزال نعطي هؤلاء الخراج؟ لندفعهم عنا!..»

فردّ مراد خان الثاني الذي كان سلطاناً بالغ الذكاء والفراسة على هذا الطلب الحسي بهذا الجواب المشتمل على العبرة:

«إنهم غير مدركين لتقدمنا وإمكانياتنا في وقتنا الحالي، فلو امتنعنا عن إعطائهم المال الذي فرضوه علينا يذهبون ويجمعون جيشاً حتى لو كان بسيطاً ويُغِيرون علينا، ورغم أنهم يُغْلَبون إلا أن دماء مسلمة تسيل... وعليه فواصلوا أنتم إعطاءهم المال حالياً! لأنني لا أريد إراقة دم مسلم من أجل المال! .

لكن قوموا بعروضٍ رائعةٍ لرسل الإلهانيين وأروهم عظمة جيشنا، كي يصبحوا على بيّنة من القوة والقدرة التي نمتلكها، فلا يجترئوا مجدداً لطلب الخراج من هذه الدولة العلية التي باتت أفضليتها الكبيرة أمرا محققا.»

وهذا ما حصل بالفعل، فقد كانت النتيجة وفق ما بينه مراد خان الثاني.



ثم إن إحدى الأسباب التي دعت مراد خان الثاني يصرّ على جعل ابنه محمد الفاتح الثاني يجلس على العرش، مواهبه الكبيرة، إذ إنّ الأمير محمد على الرّغم مِن صغر سنه، يفكّر بأمورٍ يعجز الكثير من الناضجين والعقلاء عن إدراكها، وكان يفكّر ويسأل



أباه عن أمور عميقة، وقد رأى مرة والده في حديقة القصر فركض مسرعاً نحوه، وقال له بعد أن سأله عن أحواله:

«يا والدي العظيم! ما الحكمة على الرغم مِن كل تلك الأعباء التي تثقل كاهلك والمعاناة التي قاسيتها، ولستُ مصاباً بعلامات الشيخوخة البادية عليكم كسائر المسنين، لقد كبرتم في السن كباقي الناس لكن ظهوركم لم تنحنِ، وعلى الرغم من كل المشاق والعناء فإنكم لا تزالون في نشاط الشباب وحيويته وبطولته مع شجاعته مستخدمين عقولكم وإرادتكم وفي محلها، فأراك تارة قائداً مظفراً في ميادين القتال، وتارة أخرى أستاذاً عميقاً في مجالس العلم، وأراك مخلصاً وفياً يقضي حوائج العامة!.. لا فرق عندكم لليل أو نهار! كيف تطيقون القيام بكل هذا كغصن غض لا تنحنون ومن دون استنزاف لروحكم الدقيقة تلك؟. أيُّ أمر هو هذا يا والدي؟!. لما كان انشغال الذهن على الدوام يفني الإنسان ويهلكه لم يُظهر فيكم تغييراً، ولم يعكر صفو طمأنينتكم!.. ما هو العقار الذي تستخدمونه للشخصية الاستثنائية التي تتمتعون بها، وما هو العلاج الذي تشربونه للمحافظة على دهائكم؟ هلا تفضلتم بتعليمي كل هذا؟ حتى أمضي في طريقكم...».

فأصابت الحيرة السلطان مراد خان الثاني من أسئلة ولده الشاب التي لم يتوقعها، ونصحه بهذه النصيحة التاريخية وهو مسرور راض عنه:

«يا ولدي الحبيب! لقد أدخلت السرور إلى قلبي، ليزد ربي العليّ -متخذ الكائنات والمخلوقات عباداً له- ميزاتك المتفوقة، وليُدم فضولك لبحث مثل هذه المسائل الكبيرة والواسعة.

يا بني! فليقل من يريد ما يريد، فإني أوقن بأن من يقضِ حياته بالإخلاص والصدق لا يحيد عنهما سيصل إلى النعم اللامتناهية والتي لا يحدها خيال في عالم الآخرة عندما يفارق هذه الدنيا، وليس عندي أدنى شك في اعتقادي هذا، ولذا فإنَّ العبادات التي أقوم بها لربي العظيم، أؤديها على النحو الأخلص من روحي وقلبي، ولأني أوقن بأن جزاء ما أعانيه في عالم المشقات والعناء هذا سألاقيه في عالم الآخرة من قِبل ربي، وألتجئ إليه في كل أمر، إضافة إلى أني أظن بأن تقديره أي قضاءه تزكية معنوية بالنسبة لي.

يا بني! يجب تفادي تصديق كل ما يقال والانخداع به، كما يلزم معرفة الوجه الداخلي لكل أمر والتفكير به ومن ثم الاقتراب من حقيقته! فكما أن فاكهةً ما لا يمكن تناولها بشكل جيدٍ إلا بعد نضجها، فكذا يفضّل من الناس من أكل عليه الدهر وشرب ممن لديه معرفة وخبرة على الدوام، وإلا فإنَّ مما ينافيه العقل تناول (الحصرم) غير الناضج من العنب أثناء تواجد الناضج اللذيذ منه في عنقوده.

يا بني! إني أتذكر بين الحين والآخر أجدادي العظماء، وأسرح في الأفكار فيما يتعلق بعاقبة جيلنا الصاعد، نحمد الله على بلوغنا



هذا اليوم بالمحبة والاحترام والتمسك، وأرجو أن نستمر على هذا النحو في قادمات الأيام، فأنا أود الرحيل عن هذا العالم على الحال التي ولدنا وأُوْجِدنا عليها...

ولتعلم جيداً أنه من غير الممكن استمرار شيء ما بإلزام القوة والسيف والبطولة والقوة الساحقة، وإنّ العقل والتدبير والصبر ورؤية المستقبل والامتحان والتجارب المضنية مهمة جداً، والطريق الأول كما أنه ليس بصحيح دائماً فإنّ محظوراته كثيرة، وأما الثاني فلا يفيد شيئاً لوحده، ولا بد من أن يسير الطريقان معاً للحصول على النجاحات، ولا تنس أن أجدادنا العظماء حتى لو كان ما نالوه من الانتصارات الكبيرة حاصل تحت ظلال السيوف إلا أنهم ملكوها في الحقيقة بقوة العقل والمنطق والمحبة.

يا بني! لا تتخل عن العدالة لو للحظة واحدة! لأن الله العظيم عادل يحب كل عادل، وأنت نوعاً ما خليفته في الأرض، وهو بإرادته قد أكرمك ببعض اللطائف وجعلك سيداً على رأس عباده، فلا تنس هذا!..

يا بني! ثمة ثلاث أنواع للبشر في هذا العالم:

الفئة الأولى: وهم من كَمُلَ عقلُهم ورجح تفكيرُهم، فتمكنوا من رؤية المستقبل والإعداد له، وعاشوا حياتهم بتوازن واستقرار.

الفئة الثانية: الذين لا يملكون تمييز الصواب من الخطأ والصحيح من الباطل، لكنهم لم يقعوا في هذه الحالة باختيارهم



وإنما بتأثير الآخرين، وإن قدمت النصيحة إليهم سرعان ما يتبعونه ويقبلون الحقيقة، ويستمعون إلى ما يقال لهم، ومع هذا فإنهم في كثير من الأحيان يعيشون ممتثلين لما يسمعونه.

الفئة الثالثة: فهم غير عالمين بأيّ شيء، ولا يستمعون للنصائح والتنبيهات الموجهة إليهم، ويقتصر سلوكهم على امتثالهم لرغباتهم الشخصية ويحسبون أنهم عالمين بكل شيء، وهؤلاء هم الأشد خطراً.

يا بني! إن كان الله ﷻ قد خلقك في الفئة الأولى من الناس، فإني أفرح لذلك وأشكر الحق تعالى، وإن لم تكن منهم بل من الفئة الثانية فإني أوصيك بالاستماع إلى النصائح والتنبيهات، وإياك وأن تكون من الفئة الثالثة! فهم بعيدون عن الله بعيدون عن الناس.

يا بني! إن السلاطنة أشبه بأشخاص في أياديهم ميزان، إلا أن السلطان بحقّ هو من يعرف كيف يمسك بذلك الميزان الذي في يده! وأوصيك بأن تحسن مسك الميزان في يدك عندما تصير سلطاناً، فعندها يقدر الله تعالى لك ما فيه خيرك، ويجعلك من الصالحين، فكل شيء في علمه هو معلوم لديه...»



ثم إن الأهمية التي أولاها ولي بيازيد الثاني للعلوم الإسلامية والثقافة إلى جانب القوانين والمجمعات والمستشفيات وسائر الخدمات الخيرية كانت أهمية عظيمة، ففي عهده وضعت أسس



الثقافة والحضارة العثمانية، وعندما عرض المهندس المعماري والرسام الإيطالي الشهير ليوناردو دا فينشي على بيازيد الثاني القيام بنفسه بخطط ومشاريع الجوامع وسائر الآثار في اسطنبول من خلال رسالة بعث بها إليه، كان لهذه الرسالة وقعاً حسناً لدى وزراء كوبّا آلتي، وأما بيازيد خان الثاني الذي يتمتع بنظرة تصوفية عميقة ودقيقة فقد قال رادّاً هذا التكليف:

«لو قبلنا هذا لسيطر على بلادنا هندسة معمارية مقلدة لعمارة الكنيسة من ناحية الأسلوب والروح، وبذلك يتعذر ظهور وتجلّي عمارتنا الإسلامية ولا تكتسب طابعاً مميزاً».

إذاً هذا الرأي يوضح أفق المسلم العاقل وصاحب الفراسة والقلب، لأنه كما بلغت الأراضي المسلمة بعد بيازيد الثاني أربع وعشرين مليون كلم مربع، فقد كان الفن الإسلامي أيضاً قد بلغ الذروة، وبفضل هذا الفهم ظهرت روح الإسلام في الهندسة، وظهرت سلسلة تحفٍ ستتمكن من المحافظة على قيمتها حتى القيامة كالسلمية والسليمانية وأشباههما.



ما من شك في أن السلطان عبد الحميد خان الثاني هو أول مظاليم فلسطين، حيث أإنه أظهر حساسية كبيرة في الشأن الفلسطيني وأخذ موقفاً يتمتع بالبصيرة والفراسة من رغبات اليهود وآمالهم التي تبدو بريئة للوهلة الأولى، فقد قال عبد الحميد خان



الثاني حين طلب منه تيودور هرتزل بعضاً من الأراضي الفلسطينية مقابل قضاء الديون الخارجية للدولة العثمانية:

«أنا لا أبيع حتى شبراً واحداً من تراب فلسطين! إذ إن هذا البلد ليس لي، بل لأمتي، وأما أمتي فقد نالوا تلك الاراضي بدمائهم، وقطعة الأرض المأخوذة بدماء الشهداء لا تباع بالمال! ولتعلموا أني لا أسمح أبداً بإجرائكم العملية الخائنة التي خططتم لها في بدن حي!» مع اتخاذه تدابير جدّية للقضاء على هذا الخطر.

وبإمكاننا فهم وإدراك فراسة ودراية عبد الحميد خان الثاني عندما نرى ما حدث وما يحصل الآن.

إن أغلب الأسماء التي يسمى بهم الأولاد اليوم في فلسطين هي «عبد الحميد»، يتذاكر الفلسطينيون عبد الحميد بقولهم «نحن أيتام عبد الحميد.



وباختصار فإن الفراسة والبصيرة من الصفات اللازمة للمؤمن.

يقول شاه الكرماني:

«من شَخَصَ بصره عن المحارم، وأمسك عن الشهوات، وعَمَرَ باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ فراسته!».



٢٢ . تزكية النفس وتصفية القلب

إن تزكية النفس وتصفية القلب هي الأساس الذي ينبغي على المسلم أن يؤسس عليها صرح الأخلاق الحسنة التي تُكَوِّنُ الشخصية الإسلامية، هذه التزكية والتصفية هي في الوقت نفسه أهمّ عامل يبيِّن نهاية الإنسان التي ستتكشف يوما ما إما بالهلاك وإما بالسعادة.

ولا بدّ أولاً من التمسك بالإرادة الإلهية، والعمل على مقاومة المشاعر الشهوانية والأحوال القبيحة، وعلى كل مؤمن أن يدرك ربه بكل عظمته وقدرته وكماله من خلال إدراكه تقصيره هو ونقصانه وعجزه وفنائه وجهالته، كما عليه توجيه أفعاله على أساس هذا الإدراك، إذاً فإن تحقق هذا فإنَّ النفس التي عبر عنها القرآن الكريم بــــ «النفس الأمارة بالسوء» تطهر من الأوصاف المذمومة حتى تكون في حالة مقبولة.

لقد عُدَّتْ تزكية النفس ومجاهدة أهوائها -من خلال المجاهدات الروحية- أعظمَ الجهاد بناءً على أهميتها وعظمتها، وقد عبّر النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا إثر عودتهم من غزوة تبوك التي شقَّت على المسلمين، ففي هذه الغزوة مشى الأصحاب الكرام ألف كيلومتر ذهابا ثم مثلها إيابا، وفي طريقهم تعرضوا للعديد من المشاقّ واليأس من جوع وعطش، تشعث الصحب

الكرام وتغبروا والتصقت جلودهم بعظامهم، فقال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة وهم على هذه الحالة:

«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه». [٦٣٤]

وقد قال عليه الصلاة والسلام في أحاديثه المختلفة:

«المجاهد من جاهد نفسه». [٦٣٥]

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». [٦٣٦]

«إنّ أخوف ما أخاف على أمتي الهوى، وطول الأمل». [٦٣٧]

وفي هذا الشأن فإنّ تربية النبي ﷺ لأصحابه تقوم على مجادلة قاسيةٍ ضد النفس، حتى بلغ الصحابة الكرام بهذه التربية النبوية مرتبة الإنسان الكامل نتيجة تزكية النفس وتصفية القلب من خلال تطهير نفوسهم من خبائثها وقبائحها، وباتوا جيلاً مثالياً يحتذى به، وقد أفاد ابن مسعود رضي الله عنه الذي عاش في حالة من الحمد والشكر والذكر في رحلة التدريس، والذي روى ٨٤٨ حديثا عن النبي ﷺ

---

٦٣٤ انظر: السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٧٣.

٦٣٥ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢/ ١٦٢١.

٦٣٦ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩؛ ابن ماجة، الزهد، ٣١.

٦٣٧ السيوطي، ١، ١٢.



فقط على سعة علمه بالحديث الذي تعلمه لكثرة مجالسته للنبي ﷺ، والسبب في ذلك يعود إلى الدقة والاعتناء اللذين يوليهما للحديث، أفادنا بالحالة الروحية التي بلغها ضمن التربية المعنوية التي تلقاها عن النبي ﷺ على النحو التالي:

«لقد كُنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».[٦٣٨]

لقد أضحى قلب ابن مسعود رضي الله عنه الذي كان «راعيا للإبل» في السابق، بعدما وصل إلى الهداية وتلقى تربية الرسول ﷺ المعنوية، أضحى نبعاً، ورقّ وتعمّق وبات قلبه مرآةً تعكس التجليات الإلهية، وإنّ مدرسة الكوفة المعروفة ما هي إلا أثر من آثار هذا الصحابي الجليل، وقد نشأ الإمام الأعظم أبو حنيفة -أعظم رجال الحقوق في العالم- وتربى في هذه المدرسة، وهذا الإمام الأعظم من العظمة بحيث يكون كبار الحقوقيين في العالم -أمثال سولون وحمورابي- تلامذة بين يديه، وباستمرار المذهب الحنفي الذي أسسه الإمام أبو حنيفة سينال ابن مسعود رضي الله عنه أجر الصدقة الجارية، وهكذا فإنه وأمثاله من الصحابة ممن لم يغيب الماضي ذكرهم مع أن التراب غيب أجسادهم، وستظل سيرتهم العطرة في قلوب الأمة المحمدية إلى يوم القيامة.

والصحبة هي إحدى أهمّ الوسائط المستخدمة من قبل الأنبياء وأولياء الحق للتأثير على الأرواح والقلوب في التربية المعنوية

٦٣٨ انظر: البخاري، المناقب، ٢٥/ ٣٥٧٩.

للإنسان، ثم إنّ مَن زكّى نفسه وصفّى قلبه تضمخت كلماته بمشاعر الحال التي يعيش بها، والكلمات المعجونة بهذه العواطف والمروية بماء الإخلاص تولّد تأثيرات إيجابية في نفس المخاطب لأن ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وتكون وسيلة لاستمرار الفيض والروحانية.

يقوم العلماء والعارفون الذين هم ورثة الأنبياء بتهيئة قلوب الخلق -قبل تطهيرهم من أحوالهم السلبية- وذلك عن طريق تليينها بالتلذذ من المشاعر الروحانية وبركة الصحبة، ويهيّئون مناخاً مواتيا لهبوب نسائم الندامة اللطيفة بتهدئة عواصف الغضب والغيظ التي في القلب.

ثم إنّ الفيض المنتقل إلى قلوب المرشدين الكاملين على هيئة سلسلة من النبي عليه الصلاة والسلام، ينتقل أيضاً إلى المؤمنين عن طريق الرابطة والصحبة، وبفضل هذا تعكس الشخصية المثالية للرسول عليه الصلاة والسلام، في القلوب المؤمنة بما يتناسب مع استعداداتها.

وكلما أُدِّيت العبادات بشوقٍ أكثر كان التجلّي بقدره، فالقلوب في الصحبة تُضْبَط وفق حال المخاطب، لأن الصحبة كوصفة الدواء التي يعيّنها الطبيب للمريض، إنّ الصحبة المؤداة والمسموعة بقلبٍ مخلص، حالةٌ من الكشف العميق، وتحصل الانكشافات على حسبٍ حالة المخاطب القلبية.



وقد كانت الصحبة أشد الأساليب التي كان يتبعها النبي عليه الصلاة والسلام في تربية أصحابه وتزكيتهم، لأن الحق تعالى قال لسيدنا النبي ﷺ:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦٣٩]

﴿... إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[٦٤٠]

ومما يلفت الانتباه أنّ «الصحابي» و«الصحبة» مشتقان من الجذر نفسه، لقد أصبح الصحابة الكرام الأنموذجَ الأوضح والأكمل في الاستفادة الْمُرادة من الصحبة المعنوية والتربية ضمن حسّ المحبة والاحترام والأدب، وقد قال رسول الله ﷺ -في صدد بيان شرط هذه الاستفادة التي نالوها- متحدثاً عن حال السكون والأدب التي كانوا يستغرقون بها:

«**كأنما على رؤوسنا الطير**».[٦٤١]

هذا ما كانت عليه مجالس صحبة النبي عليه الصلاة والسلام من الوجد، فقد كان يصغي إليه مَن حوله بأذن الروح في حالة من الطمأنينة والوجد لا تخطئها العين، وقد كان الأدب والحياء

---

٦٣٩ الذاريات، ٥٥.

٦٤٠ الغاشية، ٢١.

٦٤١ انظر: أبو داوود، السنة، ٢٣ ـ ٢٤/ ٤٧٥٣؛ ابن ماجة، الجنائز، ٣٧؛ ابن سعد، ١، ٤٢٤.

والإجلال لرسول الله ﷺ كان يمنع الصحابة في كثير من الأحيان عن سؤال النبي أو الإكثار عليه، ولذا كان الصحابة رضوان الله عليهم ينتظرون أن يأتي النبيَّ عليه الصلاة والسلام أعرابيٌّ من البادية يسأله عن أمور فيستفيدون من فيضها وروحانيتها.

إن الصحب الكرام الذين كانوا فيما مضى جاهليين أضحوا -بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام المؤثرة وتربيته المعنوية- صفوة العالم عندما زكّوا أنفسهم وصفّوا قلوبهم، حتى عم ذكرُهم العصورَ والبلاد، وملأ حبهم القلوب والعباد.

هذه هي الأهمية الكبيرة لتزكية النفس وتصفية القلب في تكوين الشخصية المسلمة، فهي أولاً تَطَهُّرٌ من الكفر والجهالة والمشاعر السيئة والعقائد المغلوطة والعادات القبيحة، أي التنقّي من كل اعتقاد منافٍ للدين المبين ومن الأخطاء الأخلاقية والعملية، وبعد تطهير القلب من السيئات وصيانته منها، ملؤه بالروحانية من خلال تربيته وتزيينه بخصل التقوى كالإيمان والعلم والعرفان والحكمة والمشاعر الخيّرة والصفات الحميدة.

إن ابن آدم مبتلى بعلة يطلق عليها النفس وتشتمل على آلاف السلبيات، من حين ولادته في هذا العالم وحتى الموت، فهو وإنْ بلغَ أعلى درجات الولاية معرّضٌ في كل آنٍ إلى حيل ووساوس ومكائد ثلاثيةِ الدنيا والنفس والشيطان، ثم إنّ قيمة العبودية تبدأ بالقضاء على هذه الأخطار عن طريق التملّص من الحيل الجذّابة



لهذا العالم الفاني، والاصطباغ بالتقوى وبالنتيجة التوجه إلى الله تعالى.

ويبين حضرة مولانا المدَّ والجزر الحاصل في عالم الإنسان الداخلي على النحو التالي:

«صاحب النفس كموسى عليه السلام وجلده هو فرعونه، فصاحب النفس يدع النفس التي في داخله، ويظل باحثاً في الخارج عن العدو».

«يا مسافراً في طريق الحق! إن كنت تريد معرفة الحقيقة، فإن موسى وفرعون لم يموتا، بل لا يزالان حيّين اليوم داخلك، مختبئَين في وجودك، يواصلان معركتهما في قلبك، ولذا عليك البحث عن هذين العدوَين فيك!».

يقول حضرة مولانا أيضاً:

«لا تهتم بتغذية ورعاية الجلد والبشرة! إذ لا يعدو عن قربانٍ سيُقَدَّم للتراب في النهاية، وإنما اعتن بتغذية قلبك! إذ إن ما سيسمو في العلا ويلقى الشرف إنما هو قلبك».

«أعط جسمك من الدهن والعسل القليل، لأن من غذاه بأكثر من اللازم يقع في الشهوات النفسية ويذلّ في عاقبته».

«أعط روحك الأغذية المعنوية، وقدم لها تفكيراً ناضجاً وفهماً دقيقاً وأغذية روحية كي تبلغ المكان الذي ستذهب إليه قوية».



وفي الحقيقة فإن النفس واسطة ذات وجهين فإن هي تربّت سمَتْ بالإنسان إلى أكرم المنازل بين المخلوقات، وإلا فتهبط به إلى أسفل سافلين، فهي سلاحٌ ذو حدّين.

إن النفس المحرومة من الإرشاد المعنوي والرقابة، غلِّفت بحجابٍ مؤلمٍ من الحرمان يستر الحقائق بالغفلة، لكن الإنسان إن هو تمكّن ً من تزكية نفسه وتصفية قلبه بالتخلص من الأخلاق الذميمة رغم مانع النفس، فإنه قد يسبق الملائكة التي لا تتعرض لمانعٍ مِنْ نفسٍ للتوجهِ إلى الحقّ والخير. لأنَّ شرفَ نتيجةٍ ما يكون متناسباً مع ما يعانيه المرء ويضحي في سبيل بلوغها.

وبالتالي فتزكية النفس وتصفية القلب ضرورية لترويض وتهذيب ميول الشر المركوزة في فطرة الإنسان ثم زرع بذور التقوى، ولذا فكل إنسانٍ مكلَّفٌ بتسبيح الله تعالى وتكريمه بالأعمال الصالحة من خلال معرفة الحق تعالى وتصيير هذه المعرفة عرفاناً، وهذه هي العبودية، وأما بلوغه هدف كيفية هذه العبودية فمرتبطٌ بتزكية النفس وتصفية القلب التي تأتي بمعنى امتلاء الإنسان بالمشاعر السّامية عن طريق اجتياز حاجز النفس.

ثم إنّ تزكية النفس أمرٌ مهمٌّ لفتَ الحقّ تعالى الانتباه إليه بالقسم تلو القسم، فقد قال في سورة الشمس:



﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٦٤٢]

وتزكية النفس تكون بتنقيتها من الملوثات المادية والمعنوية.

إنّ قَسَمَ الحق تعالى هو في الحقيقة إظهار عظمة وأهمية الأمر الإلهي المبين بعد القسم، مع إبدائه قيمة وشرف المخلوقات المقسَم بها أيضاً، والوضع هو على هذا النحو في آيات القسم هذه، لكن بفارقٍ هو كما يلي:

«أقسم الحق تعالى في هذه الآيات إحدى عشر مرة متتالية، وأعقبها بأداة التأكيد «قد» لزيادة تقوية المعنى، وأفاد بعد هذا التأكيد والتأييد القويّ بأن من صفّى نفسه وطهّرها، لا بد وأن يبلغ الخلاص، وإلا فمن لوثّها بالمعاصي والذنوب فسيقع في الخسران!..»

ومن المثير للاهتمام أن الحق تعالى لم يقسم بأمرٍ إحدى عشر مرّةً متتالية في القرآن الكريم غير تزكية النفس، وهذه الحقيقة كافية لإيضاح أهمية وضرورة تزكية النفس لخلاص الإنسان.

التزكية في التصوف تعني كسر سلطة النفس على البدن من خلال تقليل رغباتها، ومن ثم إتاحة المجال لسيادة الروح، وهذا لا

---

٦٤٢ الشمس، ١ ـ ١٠.



يتحقق إلا بالرياضة التي تقوّي الإرادة ضد النفس، أي إ ذلك يوفَّر بأساليب من رعاية الاعتدال في الطعام والشراب والنوم والكلام، ولهذا فأساليب كبح جماح النفس في التصوف يطلَق عليها قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام، لأنها أولى خطوات السيطرة على النفس بالرياضة، إلا أنه ينبغي عدم ترك الاعتدال أثناء القيام بهذه الأساليب كما هو الشأن في كل أمر، لأن البدن أمانة الله للناس.

ثم إنّ النفس ينبغي ألا تموت بالمجاهدة القائمة تجاهها، وإنما يتمّ التحكّم بها، وليس المطلوب القضاءُ على النفس بل تحديد وتربية رغباتها وميولها بتجنيبها الإفراط ضمن قوانين موافقة للرضا الإلهي.

والأمر الآخر المهمّ لتصفية النفس جعل القلب نقياً وبرّاقاً، فالقلب في جوهره الأصلي موضع نظر الإله في هذا العالم، أي مظهر لشرف كونه مكاناً لتجلي نظر الحق تعالى، وكما أنه لا يسمح لغير السلطان بالجلوس على عرش القصر فكذا يجب تنقية وتطهير القلب -الذي هو بمثابة قصر البدن- من كل شيء عدا الله تعالى أي من كل الأفكار النفسية والميول القبيحة وما سوى الله تعالى، وإلا فينغلق القلب عن اللطائف الإلهية، لكن هذا لا يعني أنه يتعذر أن نكنَّ حباً في القلب لغير الله تعالى، وفي الحقيقة فإن من بلغ ذروة سلامة القلب بتزكيته نفسه وتصفيته قلبه، فقد تحرر من حبّ ما سواه تعالى، لكن غيرهم من الناس لا يوفقون تماماً في محو محبة المال والأولاد وأشباههما من قلوبهم شيئاً فشيئاً، ومن المعلوم فإن هذا



النوع من المحبة مسموح به ما لم يتجاوز الحدود المعلومة، ويكفي لإدراك أهمية تصفية القلب النظرُ إلى المقام المادي والمعنوي للقلب في الحياة، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام الأهمية الحياتية للقلب حين قال:

«...ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».[٦٤٣]

ويبين حضرة مولانا قُدِّس سره أن من العبث وإضاعة الجهد محاولة ملء كيسٍ مثقوب دون إغلاق ثقبه، ومن الواضح أن مثل هذه الأعمالً عندما تؤدى بقلب مصفىً تكون وسيلة لسعادة الإنسان، لأن الأعمال بالنيات، وأًما النية فمن أعمال القلب، وبالتالي فيشترط تصحيح النية وتزيينها بالإخلاص.

وهذه الكيفية حالٌ يتعذر الحصول عليها إلا بعد تصفية القلب، إن النقطة التي استهدفها أولياء الحق في تربية القلب هي بلوغ القلب مرتبة الإحسان، بأن يكون العبد مع الله تعالى على الدوام، وبهذا ينال وصف القلب الحيّ، ومما لا بد للقلب منه للوصول إلى هذا القوام تنقيته مما سوى الله تعالى أي من كل شيء عداه تعالى.

وعندها يغدو القلب الواصل إلى هذا القوام يألف الحقائق الدقيقة والعميقة، وتتجلى على صفحة القلب أسماء الله الحسنى

٦٤٣ البخاري، الإيمان، ٣٩.

وأسراره بقدر تخلّصه من كثافته واصطباغه بالرقة واللطافة، وبهذا يبلغ معرفة الله تعالى والتي تعني معرفة الحق تعالى عن طريق القلب، وأما هذا فيعني نوال العلم مرتبة العرفان.

فالخلاص لا يناله إلا من وفد على حضرة الله عزّ وجلّ بقلب سليم طاهر، وامتلأت قلوبهم بالمحبة الإلهية عن طريق تصفية القلب وتنقيته من جميع العلل، يبين الحق عزّ وجلّ هذا على النحو التالي:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٦٤٤)

وثمة بعض الشروط الواجب مراعاتها للحصول على قلب سليم ومنيب ونفس مطمئنة بعد تزكية وتصفية معنوية، ويمكن أن نُعَنْوِنَها على النحو التالي:

١. اللقمة الحلال.

٢. الاستغفار والدعاء.

٣. تلاوة القرآن الكريم، والانصياع لأحكامه واتباعها.

٤. تأدية العبادات بالخشوع.

٥. الإنفاق.

٦. قيام الليل.

٧. ذكر الله والمراقبة.

---

٦٤٤ الشعراء، ٨٨ ـ ٨٩.



٨. الاستغراق في محبة النبي ﷺ ومداومة الصلاة والسلام عليه.
٩. التفكر بالموت.
١٠. صحبة الصالحين والصادقين.
١١. التخلق بالأخلاق الحسنة.

القلب السليم -الذي يحرص المرء للحصول عليه وفق جميع هذه الشروط- يغدو مظهراً لصفات الحق الجمالية، منقّىً مما سواه كمرآة ملساء، وحين يرى الحق تعالى تجلي صفاته الجمالية في قلب عبده يحبه ويرضى عنه.

ربنا خالق كل شيء ومالكه، ولذا فإنه مستغن عن كل المخلوقات، وما من هدية قيمة -ليست في خزائنه اللامتناهية- يمكن أن ترسل إليه، فهو الحسن المطلق، ومنبع كل الخير والحسن، ولذا فإنّ الشيء الأكثر جمالاً وقيمة بين المخلوقات إنما هو قلبٌ نقي وبراق إلى درجة يكون فيها كمرآة تعكس أسماء الله الحسنى، وبالتالي فإن الهدية الأكثر لياقة لتقديمها لله تعالى إنما هي القلب السليم الذي يطلبه الله تعالى منا.

صور الفضيلة

كان النبي عليه الصلاة والسلام ينقل وقائع معركة مؤتة وكل ما يجري على ساحتها وهو يخطب على منبر مسجده، حيث كانت ساحة المعركة معروضة أمام عينيه، فكان يُعلم أصحابه بالشهادات

التي تحققت متتالية هناك ومجالدة الصحابة الكرام تارة مع الأعداء وأخرى مع نفوسهم، وهو مغتمٌ حزينٌ قائلاً:

«أخذ الراية زيد بن حارثة، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين يمنيني الدنيا!، ثم مضى قدماً حتى استشهد، فصلى عليه الرسولُ وقال: استغفروا لأخيكم فإنه شهيد، دخل الجنة وهو يطير في الجنة، ولما قتل زيد: أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين يمنيني الدنيا!، ثم مضى قدماً حتى استشهد،[٦٤٥] وقال: استغفروا لأخيكم فإنه شهيد، دخل الجنة وهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء في الجنة، ثم أخذ الراية جعفر، فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم صمت رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة ما يكرهون، ثم قال: أخذها عبد الله بن رواحة، ومضى قدماً نحو الأعداء، وهو يقول: وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس

---

٦٤٥ يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه وقف على جعفر بن أبي طالب يومئذ وهو قتيل فعد به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شئ في دبره»، (البخاري، المغازي، ٤٤). قُتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . (ابن هشام، ٣، ٤٣٤)



بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس، وهو يقول:

يا نفس مالك تكرهين الجنة

أقسم بالله لَتنزِلنَّه

طائعة أو لتُكرهِنَّـه

فطالما قد كنت مطمئنة

هل أنت إلا نطفةٌ في شنَّه

قد أجلب الناس وشدوا الرنّه

وفي حومة مؤتة، تُجرَحُ إصبعُهُ، فينفرُ منها دمٌ غزير، لكنّه لا يعبأ به، فهو في سبيل الله، فينزل من على فرسه، ويدهس إصبعه ويقول:

هل أنت إلا إصبع دميت

وفي سبيل الله ما لقيت

يا نفـس إلا تُقتَلي تموتي

هـذا حياض الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت

إن تفعلي فعلهما هديت

وإن تأخرت فقد شقيـت



ثم شد يده بسرعة فقطعت إصبعه، ومضى في قتاله، فكان -وهو في جهاد صغير مع العدو من ناحية- يواصل جهاده الكبير مع نفسه من ناحية أخرى، فيقول:

يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة -زوجه- فهي طالق، وإلى فلان وفلان -غلمانه- فهم أحرار، وإلى بستان له فهو لله ولرسوله، ثم قال:

ثم استمر النبي عليه الصلاة والسلام بنقل وقائع المعركة قائلاً:

أخذ الرايةَ عبدُ الله بن رواحة، فاستشهد ثم دخل الجنة معترضاً، فشق ذلك على الأنصار، فقيل: يا رسول الله ما اعترضه؟، قال: لما أصابته الجراح نكل، فعاتب نفسه فتشجع، واستشهد ودخل الجنة، فسُرِّي عن قومه، ثم قال: لقد رُفعوا في الجنة على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت: ممَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى، فدمعت عينا النبي عليه الصلاة والسلام وهو يصف ساحة المعركة، وزاد حزنه وذرفت عيناه المباركتان بدمع كحبات اللؤلؤ، وقال: حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم.[٦٤٦]

---

٦٤٦ انظر: البخاري، المغازي، ٤٤؛ أحمد، ٥، ٢٩٩، ٣، ١١٣؛ ابن هشام، ٣، ٤٣٣ ـ ٤٣٦؛ الواقدي، ٢، ٧٦٢؛ ابن سعد، ٣، ٤٦، ٥٣٠؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٢٣٧

وهذا يعني أنّ كلاً من النفس والشيطان لن يتخليا عن الإنسان حتى الموت، وحينئذ يجب علينا أن نكون في حالة من التيقظ والمجاهدة دائماً، والالتجاء إلى حفظ ربنا تعالى، تقول الآية الكريمة:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٦٤٧)



كان حضرة عبد القادر جيلاني من كبار أولياء الله قد اعتزل في خرابات بغداد وقتاً طويلاً -بعد بلوغه كمال العلم الظاهري- وذلك لبلوغ «حال الفناء»، أي الاحتماء من الذاتية والأنانية ودسائس النفس، والتمكّن من حفظ قلبه وصيانته من كل ما يُبعده عن الحق.

وكان شاه نقشبندي قدّس سرّه في أُولى سنوات انتسابه للطريقة قد عاش سبع سنوات من حياته في الخدمة -من خلال قضاء حوائج المرضى والفقراء والمصابين، وحتى الحيوانات كان لها نصيبا من خدمته ورعايته، حتى إنه كان ينظف الشوارع التي سيمر بها الناس، وذلك في سبيل بلوغ «حالة الفناء».

هذه هي صعوبة تزكية النفس والمكافأة العظيمة مقابلها.



وقد حصل ميل سلطان بلخ إبراهيم بن الأدهم لتزكية النفس وتصفية القلب نتيجة هاتف جاءه، حيث روي أنه كان يوماً نائماً في

٦٤٧ الحجر، ٩٩.



قصره عندما سمع وقع أقدام –قيل إنهم ملائكة– فوق سطح القصر، فهتف ابن أدهم قائلا: أيها الطارقون، من أنتم وما الذي جاء بكم إلى سطح القصر؟ فجاءه الجواب: إننا نبحث عن جمل لنا فقدناه، فأجاب ابن أدهم مستنكراً: وهل تتوقعون أن تجدوا جملكم فوق أسطح المنازل؟ وكم كانت دهشته كبيرة عندما جاءه الردّ بالقول: وهل تتوقع أنت أن تجد الطريق إلى الله في القصور ووسط أبّهة السلطان؟.

فكثفت هذه الحادثة المد والجزر المعنوي الحاصل مسبقاً في قلب إبراهيم بن الأدهم، فتركته في حيرة وتعجب، لكن السلطان لم يتخل عن حياته السابقة كلياً.

إلا أن إبراهيم بن الأدهم بسبب إدمانه على الصيد، جعله التنبيه المعنوي الثاني –الذي لاقاه أثناء صيده المعتاد –سائراً حقيقياً في طريق الحق، وقد جرت مغامرة الصيد هذه حين خرج مع بعض أصحابه إلى الصيد، وبينما كان يكر ويفر جاداً إثر أرنب يروم صيده، إذ بهاتف من وراء الغيب يناديه باسمه: يا إبراهيم! أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون، يا إبراهيم! ألهذا خُلقت أم بهذا أُمرت، فلم يبال في بادئ الأمر، فعاوده الثانية والثالثة، فشد لجام فرسه ووقف حائراً من شدة الجزع، ثم هتف به الرابعة، فآمن آنئذٍ أنه صوت من الحق ونذير من رب العالمين، فاطمأنت نفسه من بعد اضطراب، فرجع إلى أهله، ثم جاء إلى راعٍ لأبيه فألقى إليه ما



يلبس من حُلَلِ الإمارة وحُلِيِّها ، وأخذ منه أطماره ولفّ جسمه بها وهام على وجهه، وقد قال الراعي من ورائه: لقد جنّ سلطاننا، لكن ما حصل كان على العكس حيث عاد عقله إليه، فقد كان خرج لصيد الغزلان فتصيده الله تعالى بغزالٍ.

وعلينا أن نعلم أنه يتعذر تطهير النفس وكبح جماحها من دون مجاهدتها وحرمانها من كثير من متطلباتها، فلا بد من جهد جادّ لكي ينال السلامة في الآخرة من خلال جعله في مقام يرضي ربنا تعالى، فيلزم البدء بهذا الجهد وهذه المجادلة فوراً قبل فوات الأوان، لأن الأجل قد يتصيد المرء في كل آن!..



اشترك حضرة نجم الدين كبرى أحد أولياء الله برفقة تلامذته في جنازة رجل صالح، فتبسم حضرة نجم الدين أثناء تلقين الميت الشهادتين، فدهش التلامذة من تبسم شيخهم في وقت كهذا وسألوه عن حكمة ذلك، فلم يرد البوح عن السبب، لكنه وبإصرارهم في سؤالهم قال:

«قلب الملقن في غفلة، وقلب الميت الذي في القبر حيٌّ، فتعجبت من تلقين غافل القلب لمن قلبه حيٌّ».

إن المؤمن الذي يزكي نفسه ويصفي قلبه يستمر في الحياة حتى بعد موته، ومن لم يفعل ذلك فلا فرق بينه وبين الميت حتى وهو في الحياة.





خرج حضرة مولانا خالد البغدادي مع بعض أصدقائه لزيارة حضرة عبد الله الدهلوي، وأخيراً وبعد سفر طويل وصلوا إلى دهلي (جيهان آباد)، وقد روي أن هذا السفر استمر سنة كاملة، وعند بلوغهم ذهب مولانا خالد من فوره والذي كان متشوقاً للمثول في حضرة عبد الله الدهلوي مع أصحابه إلى تكية الشيخ، فقال مَن معه للدرويش الذي فتح لهم الباب:

«جاء مولانا الحاج خالد زياد الدين من علماء السليمانية والشام وبغداد مع رفاقه، لزيارة حضرة العارف بالله».

فقال عبد الله الدهلوي العالِم معنىً بمجيئهم:

«ليبق خالد! وليعد البقية إلى بلادهم بعد استضافتهم مدة لدينا».

فتم تنفيذ الأمر، وجاء أمر ثان مقتضاه:

«ليبدأ خالد في تنظيف الحمامات التي في التكية».

إلا أنّ مولانا خالد –مع شهرته في كل العالم الإسلامي وعلمه الواسع الذي كان نبعا ثرا– لم يعترض بأي اعتراض، وهو الذي تم قبول تلمذته على هذا النحو، وهو لم يقابل الشيخ بعد أيضاً، فأخذ إناءه ومقشّته وباشر عمله من فوره.

فكان يأتِ بالماء اللازم للتنظيف من البئر الكائنة بعيداً من التكية، يملؤ الماء ويربطها على خشبة يضعها على عاتقه، فكان يقطع المسافة بين التكية والبئر كل يوم ذهاباً وإياباً مرات عديدة في اليوم للقيام بهذا العمل، ينظف التكية ويجهز مياه الوضوء،



وبهذا يقضي أيامه في عزم وجهد كبيرين في سبيل تربية نفسه، وكان سرعان ما يستغفر ويتوب فيما لو أظهرت نفسه بعض التردد أو اللوم، استمرّ على هذه الحال شهوراً عديدة.

وذات يوم كان مُنهَكاً مِن تنظيف حجارة المراحيض، وإذ توسوس له نفسه في لحظة ترى فيه مولانا خالد ضعيفاً بهذه الوساوس:

«يا منبع العلم الذي لا مثيل له في ديار بغداد والشام! يا مولانا خالد في إقليم الأغنياء، لقد أتيتَ إلى هنا بعد أن قطعت مسافاتٍ طويلةٍ منصاعاً لقولِ شخص لا تدري أمجنون هو أم وليٌّ، فهل وجدت ما تبحث عنه؟ انظر فما من شيخ ولا سير السلوك! وأيُّ شيء فعلوه لك منذ شهور عدا تنظيف المراحيض؟ أهذا هو العلم اللَّدنِّي الذي كنت تبحث عنه؟..».

فحذّر حضرة خالد البغدادي -الذي دهش أمام هذا الإغواء الخطير- نفسَه ممزِّقاً من فوره حجاب الغفلة الذي أرادت نفسه إسداله أمام عينيه وذلك عن طريق الإخلاص، فقال:

«يا نفسي! إن كنت ستتمنّعين عن هذه الوظيفة الشريفة التي كلفكِ بها شيخي المبارك، ولم تبدي امتنانك، فإني سأجعلك تكنسين الأرض بلحيتي وليس بالمكنسة!..».

وقد كان عبد الله الدهلوي يراقب متبسّماً حال خالد البغدادي هذه من بعيد، ورأى أن الملائكة بدأت تحمل إناء مولانا خالد ومكنسته والذي قضى على آخر وسوسات نفسه، إضافة إلى أنه بدأ

يشع نورٌ -يصل إلى السماء- من الجراح التي ظهرت على منكبيه بسبب حمل الماء، فدعا العارف بالله الذي سُرَّ إلى أقصى الحدود بهذا، دعا تلميذه الاستثنائي هذا إليه، وقال:

«يا بني خالد! كنت قد بلغت مكانة لا مثيل لها في العلم، إلا أنه لزمك تزيينها بالمعنوية، فكان لا بد من تربية القلب وتصفية القلب، وإلا فإن نفسك ستهلكك بجرك إلى مهاوي الغرور والكبر، والحمد لله أنك بدأت تتسلق قمّة الكمال بجعلك نفسك تحت قدميك، حتى أضحت الملائكة تقوم بالعمل عنك».

وأضاف أيضاً:

«يا بني! إن سيدنا الذي انتسبنا إليه هو ممن وصلوا إلى الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة، وقد غدوتَ أنت الآن باعتبارك مجدداً حلقةً منهم، والآن كل الأقاليم تنتظرك إرشادك، فليجعل الله همتك عالية!».[٦٤٨]

من المستحيل لنفس لم تزكّى بعد، وقلب لم ينضج ولم يصفّى مهما بلغ في العلم أنٍ يرشد الناس، إذ لا يصير الإنسان جاهزاً للاستفادة والإفادة إلا بعد إيفاء هذين الشرطين.



٦٤٨ محمد بن عبد الله الخاني، الآداب، ترجمة. خسرو أوغلو، اسطنبول ١٩٩٥، ص: ١٠٧ ـ ١٠٨؛ الهيئة، موسوعة علماء الإسلام، اسطنبول ، منشورات جريدة تركيا، ١٨، ص: ٨١ ـ ٨٢.



جعل حضرة محمود محي الدين أفتادة تلميذه المنتمي إليه عزيز محمود هدائي إلى جانب بيع الكبد في سوق بورصة، مسؤولاً عن خدمة تنظيف أماكن الوضوء، بعد أن كان يشغل وظيفة قضاء مرموقة، وذلك بترجيحه طريق الشعور بالعدم أولاً، ونتيجة لتربية النفس هذه تم وصف القاضي محمود من قبل شيخه شخصياً بـ (هدائي) باعتباره نال كمالاً يمكنه من توجيه السلاطين.

أتى رجل إلى حضرة هدائي لما سمع اطلاعه على علم الكيمياء القديمة [٦٤٩]، وقال لحضرته:

«يا سيدي! لقد بلغني اطلاعكم على علم الكيمياء، فماذا تأمرونني؟».

فلم ينبت حضرة هدائي ببنت شفّة ونزع ثلاث وريقاتٍ من كرم قريبة منه، ونفث فيها فانقلبت بإذن الله كل واحدة منها أوراقاً من ذهب. وأما الرجل الذي كان يراقب ما حدث بدهشة فعلى الرغم من أنه قام بالفعل نفسه من فوره إلا أنه لم يوفق لذلك، فقال حضرة هدائي:

«يا بني! ولتعلم أنّ تعلم علم الكيمياء هو عبارة عن جعل نفسك...».

ثم إنّ المقصد الرئيسي من الحياة ليس التمتع بالخوارق للعادات والكرامات، وإنما التمكن من بلوغ حالة الإيمان الكامل

---

٦٤٩ الكيمياء: علم تحصيل المعادن الثمينة من المعادن عديمة القيمة.

من خلال التخلص من وصف النفس الأساسية عن طريق تزكية النفس وتصفية القلب.



وما أجمل ما يذكره الشاعر الكبير والمفكّر العظيم محمد إقبال عن أهمية ملء القلب بالعشق بتزكية النفس:

«سمعت ذات ليلة في مكتبتي حديثاً لفراشة تقول لمروحة: استقررتُ داخل كتب ابن سينا، ورأيتُ كتب الفارابي، وتجولتُ بين سطورها الجافة التي لا تنفد وبين ما فيها من الحروف الذابلة، وقضمتها، وفي هذه الأثناء سحتُ في شوارع مدينة الفارابي الفاضلة شارعاً شارعاً وزقاقا زقاقا، إلا أني لم أستوعب فلسفة هذه الحياة أبدا، وغدوت أعبر الشوارع المسدودة المخيفة حزينة، فلا شمس لي تضيء أيامي... ».

وفي مقابل احتجاج الفراشة فقد أَرَتْ المروحة أجنحتها المحترقة للفراشة، وقالت: «انظري، لقد أحرقت جناحيّ في سبيل هذا العشق»، ثم أضافت قائلة:

«إن المجادلة والمحبة هي ما تجعل الحياة أكثر حيوية، والعشق هو ما يجعل الحياة ترفرف!..».

أي إنّ لسان حال المروحة كان يقول للفراشة وهي تعرض أجنحتها عليها:



خلّصي نفسكِ من طرقات هذه الفلسفة المسدودة! ولترفرفي للوصال واللقاء بأخذ نصيبٍ من نبع المعنى المليء بالفيض والوجد والعشق للمثنوي!.

وهكذا يلزم الدورانُ بمحبة عميقة وعشق كبير كمروحة تدور حول شمس المعنوية، والعيشُ عيشة جهدٍ وخدمةٍ فائقةٍ لتزكية النفس وتصفية القلب.



كان الشيخ ماهر إيز قد أدرك في سنوات عمره الأخيرة أن الحلّ الوحيد للقضاء على هذا النقصان هو الإرشاد المعنوي، وقد بيّن حاله هذه، فقال:

«بما أنّه من المتعذر جمع قيل وقال العلم في موطن واحد على الدوام، فإني أؤمن بأنّ الوقوف على الحقيقة في الأصل لا يتحقق إلا بإرشاد أهله مع أنه ليس بأقل من التدقيق العلمي، ولهذا السبب فإنني ربطت سلّم الإرادة بإشارة خارجة عن اليقظة للعروج إلى سماء المعرفة بالفيض». [٦٥٠]

وللتحليق في سماء المعرفة فلا بدّ من بذل الجهد في ارتقاء درجات سلم الإرادة والمحبة والخدمة من خلال دعمها بشمس المعرفة.



---

٦٥٠ أثر السنوات، ماهر إيز، إسطنبول ١٩٧٥، ص: ٣٩٦.

وباختصار فإنّ تزكية النفس وتصفية القلب عملية ينبغي علينا مواصلتها طوال الحياة من غير انقطاع، وعلى المؤمن أن يكون يقظاً تجاه نفسه، وأن لا يظنّ نفسه بالغاً الكمال أبداً، فيقع فريسةً لحيل ودسائس النفس، ويذكر حضرة مولانا التحذيرات التالية فيما يتعلق بهذا الأمر:

«تريد هذه النفسُ الدّنيّةُ جرّك إلى نجاح زائل، فإلى متى ستلهو بهذا النجاح الكاذب، فقد لهوت بما فيه الكفاية حتى الآن».

«لو أمهلك العمر ألف سنة، فإن نفسك تعثر على عذر جديد كل يوم».

«إن طلبت منك تلك النفس الدنية نجاحاً معنوياً، وأعمالاً صالحة فاحذر، إذ لا شك أن تلك النفس العدوة تخفي حيلة ما في ذلك الخير».

«ثمّة مسبحة وقرآن كريم في اليد اليمنى للنفس، إلا أنَّ في اليد الأخرى خنجرا وسيفا مخبئين».



إن التصوف -الذي يعتني بتزكية النفس وتصفية القلب ويعد ذلك ضرورة- محيطٌ لا نهاية له، وعلم إلهي يضمّ في فحواه كل الكائنات، ومن المتعذر إيفاءه حقه في التعريف به، لكن كل واحد يمكنه التكلم عنه بقدر حظه منه وفهمه له.



وإنَّ أهل التصوف أشخاص موصوفون بصفات عليّة من السخاء والرحمة واللطف والتواضع، فهم ينظرون إلى الغير بالبصيرة والتأني، فكل حركاتهم متوافقة وأحكامَ القرآن الكريم وأخلاق وآداب وأفعال رسول الله ﷺ، وهم يحبون الله تعالى ورسوله الكريم وأصحابه أكثر من أنفسهم وأموالهم وكل ما يملكونهم وأولادهم.

اللهم تفضّل علينا بحياة العبودية، وأعنا أن نستخدام رأس مال عمرنا على أحسن وجه!..

يا ربي! زيّن قلوبنا بمحبة الإيمان! واجعلنا مِن الذين يجتنبون بحقٍّ الكفرَ والعصيان برؤية قبحهما! وأكرمنا جميعاً بأن نغدو قرآناً حياً بتخلّقنا بالأخلاق النبوية! وأن نعيش حياة مثالية من الفضائل ضمن قوام الإحسان، وامنن على قوبنا بنصيبٍ من محبتك! واجعلنا من المستحقين لخطابك «عبادي» المليءِ بكرمك ومحبتك، والْتفات حبيبك بقوله «إخواني»، وأكرمنا بذرية تكون قرة أعين لنا.

يا ربي! لا تترك وطننا وأمتنا من غير قرآن وإيمان وأخلاق! وأكرمنا -في هذا العالم الزائل- بالحياة في جنة القرآن الكريم من خلال تمسكنا بتعاليمه ومعرفة عظمته، وأكرمنا جميعاً بخدمة لائقة لأهل القرآن وخدامه!..

آمين!..

والحمد لله رب العالمين

فهرس

